يوسف الأحلام

قصة يوسف عليه السلام

ضياء سعيدة

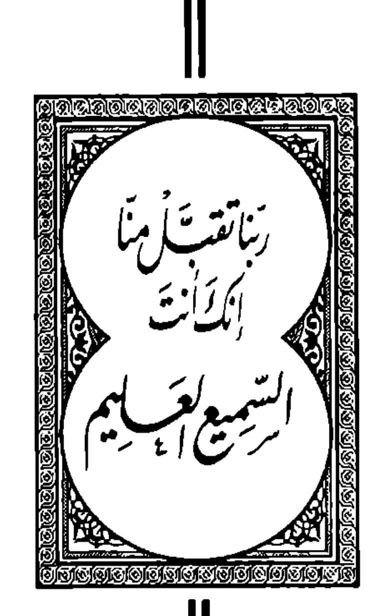
الشيخ محمود المصري أبو عمار



يوسف الأحلام

«قصة يوسف عليه السلام»





الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع: ١٦٨٦٠ / ٢٠٠٨

مكتبة الصفا

١٢٧ ميدان الأزهر القاهرة ت: ٢٥١٤٧٣٢٠
١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ت: ٢٥١٤٧٩٧٤ / ٠١٠١٤٣١١١٤

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

المصري، محمود .
يوسف الأحلام قصة يوسف عليه السلام
/ محمود المصري . - القاهرة: مكتبة الصفا
، ٢٠٠٨ .
٣٦٨ ص ؛ ٢٤ سم.
١- قصص الأنبياء
أ- العنوان.

٢٢٩,٥

يوسف الأحلام

«قصة يوسف عليه السلام»

الشيخ
محمود المصري
أبو عمار

مكتبة الصفا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين.

فمازال فضل الله العظيم الكريم يتوالَى علينا بالتوفيق لإخراج ونشر الكتب الدينية المبينة لشرع ربنا تبارك وتعالَى، فقد مَنَّ علينا سبحانه بالتوفيق لإخراج عدة طبعات جديدة للمصحف الشريف، حرصنا فيها على غاية الإتقان فى جميع ما يتعلق بها.

كما وفقنا لإخراج كتب تفسير كتاب الله العزيز سواء كان كاملاً، أو مفرقًا على هيئة سورة تلو السورة، أو مجموعة سور، أو موضوع تلو الموضوع، كآيات الأحكام وغير ذلك من العلوم المتعلقة بالكتاب العزيز، كما وفقنا لإخراج كتب الحديث النبوى الشريف والتى عليها قوام هذا الدين وهى بيان وتفسير لكتاب الله العزيز، والتى قام بها الجهابذة الأولون من سلفنا الصالح علماء الحديث، الذين وفقهم الله - عز وجل - لتوصيل الدين وتبليغه كتابًا وسُنة، قولاً وفعلاً، نصًّا وفَهمًا وعملاً.

وقد أخرجنا بفضل الله عدة كتب، كموطإ الإمام مالك، وصحيح الإمام البخارى، ومسلم، وسير أعلام النبلاء، وفتح البارى بشرح صحيح البخارى، وشرح صحيح مسلم، وغيرها من الكتب المتضمنة لحديث رسول الله ﷺ رواية ودراية وشرحًا وبيانًا.

وأيضًا وفقنا لإخراج كتب العلوم الشرعية التى تخدم الكتاب والسُّنة بشتى

الأشكال. والتى قام بها من تبع الأولين بإحسان لبيان مراد الله - عز وجل- فى كتابه وسنة رسوله ﷺ، فى صور شتى ما بين المطول والمختصر، رحمنا الله وإياهم وغفر لنا ولهم وأحسن إلينا وإليهم.

ويسرنا اليوم أن نقدم هذا الكتاب الذى بين يديك أخى القارئ وهو كتاب «**يوسف الأحلام.. قصة يوسف عليه السلام**»، وهو إضافة جديدة لإصداراتنا والتى نرجو من الله - عز وجل- أن يتقبلها منا قبولاً حسنًا وأن ينفع بها الإسلام والمسلمين.

إنه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله رب العالمين وصلَّى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مكتبة الصفا

جعلها الله مناراً لخدمة العلم والدين

إهداء واعتراف لأصحاب الفضل

وكما تعودت دائمًا أن أقدم هذا الإهداء والاعتراف لأصحاب الفضل؛ فوالله أنا لا أستطيع أن أنساهم أبدًا؛ وذلك من باب قول الحبيب ﷺ: «**من لم يشكر الناس؛ لم يشكر الله**»(١).

وفى مقدمة هؤلاء الناس جميعًا أقدم هذا الإهداء.

● إلى أمى الحبيبة - رحمة الله عليها -:

وكيف أنساكِ يا أمى الحبيبة، يا من ضحيت من أجلى بكل شىء كيف أنسى أيامك العامرة بالعطاء والتضحية والرحمة والحنان؟! والله أنا لا أستطيع أن أوفيك حقك ولو كتبت ألف كتاب؛ ولذلك أقول لك: جزاك الله عنى وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، فهو سبحانه القادر على أن يجزل لك العطاء فى الدارين فأسأله سبحانه أن يرحمك رحمة واسعة، وأن يجعل قبرك روضة من رياض الجنة، وأن يجعل أعمالى كلها فى ميزان حسناتك، وأن يجمع بينى وبينك فى الجنة.

● إلى أبى الحبيب - حفظه الله:

أسأل الله تعالى أن يُعجِّل لك بالشفاء وأن يبارك فى عمرك، وأن يرزقنى وإياك وسائر المسلمين حُسن الخاتمة... فجزاك الله عنى وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء فلقد كنت ومازلت نعم الأب الرحيم..

● إلى زوجتى الغالية / أم عمار:

جعل الله أيامك عامرة بالعطاء لدينك.. عامرة بالسعادة.. عامرة بالإخلاص.. وجعل الله آخرتك عامرة بالنعيم والرضوان.

(١) صحيح: رواه الترمذى (١٩٥٥) كتاب البر والصلة، وأحمد (١٠٨٧٧)، من حديث أبى سعيد، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٦٥٤١).

• إلى أبنائى الأعزاء (عمار، وهاجر، وسارة، وحبيبة):

أسأل الله جل وعلا أن يحفظكم وأن يبارك فيكم وأن يجعلكم من عباده المخلصين الطائعين، وأن يستخدمكم لنصرة دينه وأن يجعلكم فى ميزان حسناتى، وأن يجمعنى بكم فى جنته ومستقر رحمته.

• إلى كل أخ مسلم وإلى كل أخت مسلمة:

والله ما نسيت الدعاء لكم فى صلاتى وأنا ساجد بين يدى الله فلا تنسونى من دعوة صالحة، بأن يغفر الله لى ذنوبى، وأن يرزقنى الإخلاص فى القول والعمل وأن يرزقنى حسن الخاتمة، وأن يجمعنى بكم فى جنته إخوانًا على سُرر متقابلين. فجزاكم الله عنى خير الجزاء فى الدنيا والآخرة.

الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصرى

(أبو عمار)

بين يدى الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٣).

أما بعد: فإننا فى هذه الفترة العصيبة التى تعيشها الأمة المسلمة لفى أشد الحاجة إلى شعاع من النور ليضىء لنا الطريق ويبعث فى نفوسنا الأمل ويزيل من قلوبنا الألم ويكون حافزًا لنا على الإخلاص فى القول والعمل.

ولا شك أن الله -عز وجل- قد جعل الأنبياء والمرسلين قدوة وأسوة لنا فى كل زمان ومكان فقال تعالى: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾**(٤).

بل وجعل العظة والعبرة فى قصصهم فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٠٢).

(٢) سورة النساء: الآية: (١).

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان: (٧٠، ٧١).

(٤) سورة الأنعام: الآية: (٩٠).

شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١) بل وجعل قصصهم سببًا فى تثبيت قلب النبى ﷺ والأمة من بعده فقال تعالى: **﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾**(٢).

فما أحوج الأمة إلى أن تتعايش مع سيرتهم لتعيش القدوة الحقيقية المتمثلة فى الأنبياء والمرسلين-صلوات ربى وسلامه عليهم أجمعين- وها نحن على موعد مع قصة يوسف -عليه السلام.

بل أقول: نحن على موعد مع تلك الحديقة الغنَّاء التى حَوَت من الأزهار أجملها ومن الرياحين أطيبها ومن المياه أعذبها لنتعرف على حياة نبىٍّ كريم كانت حياته مليئة بالأحداث والابتلاءات والدروس والعِبر لنتعلم من خلال سيرته كيف نكون عبيدًا لله-جل وعلا- فى البلاء والرخاء، وفى السراء والضراء فقد قال نبينا ﷺ: «**عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَه خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(٣).

* ولقد ذُكرت سير الأنبياء فى القرآن مُفرَّقة فى مواضع كثيرة ما عدا سيرة يوسف-عليه السلام- فهو النبى الوحيد الذى ذُكرت سيرته كاملة فى سورة واحدة بكل تفاصيلها ودروسها العظيمة.

قال القرطبى-رحمه الله-: قال العلماء: وذكر الله أقاصيص الأنبياء فى القرآن وكررها بمعنى واحد فى وجوه مختلفة، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر، والإعجاز لمن تأمل(٤).

---

(١) سورة يوسف: الآية: (١١١).

(٢) سورة هود: الآية: (١٢٠).

(٣) **صحيح:** رواه مسلم (٢٩٩٩) كتاب الزهد والرقائق.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١١٨).

* فإلـى كل مبتـلًى أُهدى إليك سورة يوسف لتكون عـزاءً لك فى هذا البلاء الذى أصابك.

* وإلى كل شـاب مفـتون بفـتنة النساء... أهدى إليك سـورة يوسف لتكون حاديا لك إلى أن تكون فى عفة يوسف - عليه السلام.

* وإلى كل مظلوم.. أهدى إلـيك سورة يـوسف لتـعلم يقـينًا أن الله سينصرك لا محالة وأن نصره قريب جدًّا.

* وإلى كل مسـؤول: أهدى إليك سورة يوسف لتتـعلم أن هذا المنصب تكليف لا تشـريف لتؤدى الأمـانة للأمـة المسلمة كـما أداها يوسف-عليـه السلام.

* سورة يوسف لا يقرؤها محزون إلا استراح وأزال الله همه وغمه.

* ولقد سـميت هذا الكتاب (يوسف الأحـلام) لأنى أحلم أن يكون كل شاب مسلم فى عفة يوسف (عليه السلام)... وأحلم أن يكون المسلمون فى عفـو وتسامح يوسف (عليـه السلام).. وأحلم أن يُمكِّن الله للأمـة المسلمة كما مكَّن ليوسف (عليه السلام) ولذلك سميت الكتاب (يوسف الأحلام).

* فتعـالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع قصة حـياة هذا النبى الكريم يوسف- عليه السلام- لتكون لنا نوراً يضىء سماء اليأس وفجراً يُشرق بالأمل.

* أسأل الله-جل وعـلا- أن ينفعنى وإياكم بهذا الكتاب وأن يجـمعنى وإياكم فى الفردوس الأعلى إخوانًا على سرر متقابلين.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصرى

(أبو عمار)

س: متى نزلت سورة يوسف وكيف كان أثرها على النبى ﷺ وأصحابه؟

ج: * نزلت هذه السورة الكريمة (سورة يوسف) على رسول الله ﷺ بعد سورة «هود»، فى تلك الفترة الحرجة العصيبة من حياة الرسول الأعظم ﷺ، حيث توالت الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين، وبالأخص بعد أن فقد النبى عليه السلام نصيريه: زوجه الطاهر الحنون «خديجة» وعمه «أبا طالب» الذى كان له خير نصير، وخير معين، وبوفاتهما اشتد الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، حتى عُرف ذلك العام بـ «عام الحزن».

* فى تلك الفترة العصيبة من حياة الرسول الكريم، وفى ذلك الوقت الذى كان يعانى فيه الرسول والمؤمنون من الوحشة، والغربة، والانقطاع فى جاهلية قريش، كان الله سبحانه يُنزل على نبيه الكريم هذه السورة تسلية له، وتخفيفًا لآلامه، بذكر قصص المرسلين، وكأن الله تعالى يقول لنبيه - عليه السلام-: لا تحزن يا محمد ولا تتفجع لتكذيب قومك، وإيذائهم لك، فإن بعد الشدة فرجًا، وإن بعد الضيق مخرجًا، انظر إلى أخيك «يوسف» وتمعن ما حدث له من صنوف البلايا والمحن، وألوان الشدائد والنكبات، وما ناله من ضروب المحن: محنة حسد إخوته وكيدهم له، ومحنة رميه فى الجُبِّ، ومحنة تعلق امرأة العزيز به وعشقها له، ثم مراودته عن نفسه بشتى طرق الفتنة والإغراء، ثم محنة السجن بعد ذلك العز ورغد العيش!!

انظر إليه كيف أنه لما صبر على الأذى فى سبيل العقيدة، وصبر على الضُّر والبلاء، نقله الله من السجن إلى القصر، وجعله عزيزًا فى أرض مصر، وملَّكه الله خزائنها، فكان السيد المطاع، والعزيز المكرم.. وهكذا أفعل بأوليائى، ومن صبر على بلائى، فلابد أن توطد النفس على تحمل

البلاء، اقتداء بمن سبقك من المرسلين ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[١]، ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[٢][٣].

* فلا عجب أن تكون هذه السورة بما احتوته من قصة ذلك النبى الكريم، ومن التعقيبات عليها بعد ذلك، مما يتنزل على رسول الله ﷺ والجماعة المسلمة معه فى مكة، فى هذه الفترة بالذات، تسلية وتسرية، وتطمينًا كذلك وتثبيتًا للمطاردين المغتربين الموحشين!

* لا بل إن الخاطر ليذهب بى اللحظة إلى الإحساس بالإيحاء البعيد بالإخراج من مكة إلى دار أخرى يكون فيها النصر والتمكين، مهما بدا أن الخروج كان إكراهًا تحت التهديد! كما أُخرج يوسف من حضن أبيه، يواجه هذه الابتلاءات كلها، ثم لينتهى بعد ذلك إلى النصر والتمكين: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[٤][٥].

* **قال خالد بن معدان:** «سورة يوسف ومريم مما يتفكه بهما أهل الجنة فى الجنة» وقال عطاء: «لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها»[٦].

* * *

س: بمَ تمتاز قصة يوسف على غيرها من قصص النبيين عليهم الصلاة والسلام؟

ج: امتيازها لكونها سيقت كلها بتمامها وكمالها فى سورة واحدة من

---

(١) سورة الأحقاف: الآية: (٣٥).

(٢) سورة النحل: الآية: (١٢٧).

(٣) صفوة التفاسير (٢/ ٣٩، ٤٠).

(٤) سورة يوسف: الآية: (٢١).

(٥) الظلال (٤/ ١٩٥٠، ١٩٥١).

(٦) حاشية الصاوى على الجلالين (٢/ ٢٣٣).

كتاب الله - عز وجل- ولم تتفرّق فى جملة مواطن وسور.

وبكونها تضمنت عبراً وحكمًا ومواعظ أكثر من غيرها ولذلك بُدئت بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾(١) وختمت بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(٢)(٣) .

* * *

س: اذكر بعض فضائل يوسف-عليه السلام-؟

ج: ها هى باقة عطرة من فضائل نبى الله يوسف- عليه السلام-:

* عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: **«الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام»**(٤).

* وعن أبى هريرة رضي الله عنه... سُئل رسول الله ﷺ من أكرم الناس؟ قال: **«أتقاهم لله»** قالوا: ليس عن هذا نسألك! قال: **«فأكرم الناس يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله»**(٥).

قال المناوى: وأى كريم أكرم ممن حاز مع كونه ابن ثلاثة أنبياء متراسلين شرف النبوة وحسن الصورة وعلم الرؤيا ورئاسة الدنيا وحياطة الرعايا فى القحط والبلاء؟؟

قال الشاعر:

إن السَّرى إذا سرى فبنفسه

وابن السرى إذا سرى أسراهما(٦)

* * *

(١) سورة يوسف: الآية: (٣).

(٢) سورة يوسف: الآية: (١١١).

(٣) التسهيل (ص:٣٢-٣٣) للشيخ / مصطفى العدوى.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٣٣٩٠) كتاب أحاديث الأنبياء.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٧٤) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم(٢٣٧٨) كتاب الفضائل.

(٦) فيض القدير للمناوى (٥/ ٦٤) .

ومن هنا نبدأ

وتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع قصة نبى الله يوسف - عليه السلام- والتى جمع الله فيها من العِبر والعِظات الكثير والكثير.

إعجاز القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (١).

تقرير إعجاز القرآن الكريم، إذ هو مؤلَّف من مثل: الر، الم، طس، ق، ومع هذا لم يستطع العرب أن يأتوا بسورة من مثله (٢).

* **قال أحمد نوفل:**

وقد أنزل الله تعالى هذه الكلمات المركبة من الحروف الهجائية التى فى أوائل السور إعلامًا لهذا الإعجاز؛ لأنها هى التى كانوا يؤلفون منها ومن أخواتها كلامهم الفصيح البليغ الذى افتتنوا به.

وما القرآن فى سمو بلاغته وجمال رونقه إلا مُركَّب من هذه الحروف، أما وقد عجزوا عن تأليف مثله، فهذه الكلمات أعلام نصر وعزة تدل على المعجزة الباقية إلى يوم الدين.

وهذه سورة يوسف التى فيها من دلائل النبوة وبراهين الرسالة آيات للسائلين، فلا غرو أن افتتحها الله - تعالى- بعلم من أعلام الإعجاز:

﴿الٓر﴾ لينبه الأذهان إلى ما تحويه من جمال يبهر النفوس، ويشرح الصدور، ومن جلال يفتح القلوب المغلقة، ولذا أردف الله هذه الكلمة

(١) سورة يوسف: الآية: (١).

(٢) أيسر التفاسير (٢/ ٥٩٢).

بقوله: ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾(١)(٢).

* إشارة إلى ما فى الكتاب من العبر والعظات والمعجزات، والعلامات والعجائب الدالة على شمولية القرآن الكريم لكل ما تقدم.

* **قال الفخر الرازى:**

إنما وصف القرآن بكونه مبينًا، لوجوه:

الأول: أن القرآن معجزة قاهرة، وآية بينة لمحمد ﷺ.

والثانى: أنه بيِّن فيه الهدى والرشد والحلال والحرام، ولما بينت هذه الأشياء فيه كان الكتاب مبينًا لهذه الأشياء.

الثالث: أنه بُينت فيه قصص الأولين، وشُرحت فيه أحوال المتقدمين(٣).

* **قال محمد رشيد رضا:**

آيات هذه السورة هى آيات الكتاب المبين، الظاهر بنفسه فى حقيقته وإعجازه وكونه ليس من كلام البشر، والمظهر لما شاء الله من حقائق الدين ومصالح الدنيا(٤).

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٥).

* **قال ابن كثير:** فلهذا أنزلَ أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك فى أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله فى أشرف شهور السنة وهو رمضان، فكَمُلَ من كل الوجوه(٦).

---

(١) سورة يوسف: الآية: (١).

(٢) سورة يوسف دراسة تحليلية (ص: ٢٢٥).

(٣) مفاتح الغيب (٩/ ٨٥).

(٤) تفسير المنار (١٢/ ٢٥١).

(٥) سورة يوسف: الآية: (٢).

(٦) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٧٨).

* وقال البقاعى:

وهذه الآية تدل على أن اللسان العربى أفصح الألسنة وأوسعها وأقومها وأعدلها؛ لأن من المقرر أن القول - وإن خُصَّ بخطابه قوم - يكون عامًا لمن سواهم[(١)] .

* قال جمال الدين القاسمى:

وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعانى التى تقوم بالنفوس[(٢)] .

● الدروس المستفادة من الآية:

(١) وجوب تعميم اللغة العربية:

وقد رجح الإمام الشافعى فى «الأم»[(٣)] وجوب تعميم اللغة العربية، ووجوب تعلمها على كل مسلم، ليفهم القرآن الكريم، الذى هو أصل الدين... ولقد كان الصحابة الكرام، ومن اهتدى بهديهم من الفاتحين، يلقنون الناس الدين على وجه يبعثهم على تعلم العربية من أنفسهم، ولذلك لم يمض على انتشار الإسلام فى بلاد الروم والفرس وبلاد أفريقيا، وغربى أوروبا زمن يسير، حتى علت اللغة العربية على لغات هذه الأمم، بل نسختها كما تنسخ آية النهار آية الليل، من غير مدارس ولا معلمين، ينصرفون إلى تعليم اللغة، وما كان انتشار اللغة بهذه السرعة، إلا بوازع نفسى يفعل ما لا تفعل السياسة والمدارس، وما أوقف هذا السير، إلا ضعف الدول العربية، ووثوب الأعاجم على عروشها، وإفتاء علماء الأعاجم بجواز العبادة وقراءة القرآن وأذكار الصلاة باللغات الأعجمية...[(٤)] .

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٥).

(٢) محاسن التأويل (٦/ ١٨٦، ١٨٧).

(٣) الرسالة (ص: ١٤، ١٥).

(٤) قال الشيخ أحمد شاكر -رحمه الله- فى تعليقه على «الرسالة» (ص: ٤٩): فى هذا معنى سياسى وقومى جليل؛ لأن الأمة التى نزل بلسانها الكتاب الكريم، يجب عليها أن تعمل على نشر دينها، =

(٢) وصف القرآن بأنه بلسان عربى مبين يمنع ترجمته:

قال العلمى: «إن مقاصد الإسلام العلمية، جمع البشر على دين واحد، ولغة واحدة، لتكتمل وحدتهم، وتتحقق وحدتهم، وتتحقق أخوتهم؛ ولذلك منعت ترجمة القرآن الكريم، على تقدير حسبان الترجمة قرآنا، فيحتم بقاؤه عربيًا، ويجب شروع كل مؤمن فى تعلم اللغة العربية، كما كان الحال كذلك أيام صاحب الرسالة، والخلفاء الراشدين، بل وفى أيام دولة الأمويين والعباسيين، ولولا الصدمات السياسية التى صدمت الإسلام لظل أهل فارس ومن يجاورهم إلى هذا الزمن، ينطقون بالعربية، كما كانوا فى القرون الأولى للإسلام، بل لكانت بلاد الهند والأفغان والترك وجزء عظيم من بلاد الصين، يحسنون التفاهم باللغة العربية، كبلاد سوريا ومصر لهذا العهد، ولكان الإسلام سياجًا من الوحدة لا يُخرق[(١)][(٢)].

(٣) بعث محمد ﷺ الرسول العربى إلى الناس كافة:

قال العلمى: إن جملة ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[(٣)] لا تشير إلى أن

= ونشر لسانها، ونشر عاداتها وآدابها بين الأمم الأخرى، وهى تدعوها إلى ما جاء به نبيها من الهدى ودين الحق، لتجعل من هذه الأمم الإسلامية أمة واحدة، دينها واحد، وقبلتها واحدة، ولغتها واحدة، ومقومات شخصيتها واحدة، ولتكون أمة وسطًا، ويكونوا شهداء على الناس.

(١) بل إن بعض المتآمرين على الإسلام كـ«أتاتورك» عندما ألغى الخلافة الإسلامية، ألغى اللغة العربية جملةً وتفصيلاً، بل إن اللغة التركية التى كانت تكتب بالحروف العربية استبدلها بالحروف اللاتينية تنفيذًا لرغبات أسياده الذين ضخموه، وفخموه وحموه حيًا وميتًا، فلقد سنَّ رفيقه وخليفته «عصمت اينونو» قوانين يحرس بها نظامه، فلا يستطيع أحد فى تركيا أن يجهر بانتقاد أتاتورك وكشف مخازيه وفضائحه التى بقيت سرًا لأكثر من نصف قرن... لكن الله أبى إلا أن يفضح من عصاه، ومن يرد الله أن يفضحه لا يستره شىء، ولا يحميه أحد، فلقد قام طبيب أتاتورك الخاص (رضا نور) -وهو الذى لازمه مدة حكمه- فكتب أربع مجلدات: كتبها فى الإسكندرية، وأكملها فى لندن، وأوصى بنشرها بعد موته: روى فيها فضائحه، وكشف مخازيه التى يخزى منها كل إنسان حى الضمير ذى عقل مستنير، ووضح أبعاد المؤامرة الصليبية اليهودية على الإسلام، وأن أتاتورك حفيد يهود الدونمة الذين فروا من مذابح التفتيش فى الأندلس.

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٩٩).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٢).

النبى لم يُبعث لغير العرب.. لا.. حاشا وكلا.. ولكن المراد: أن العرب فى الأصل، وهم متى عـقلوا القرآن وفـهمـوه أمكنهم أن يفهـموه لغـيرهم من الأمم،... قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾(١).

فالنبى يُعلم قومه العرب ويزكيهم بالقرآن، ويعلمهم الكتاب والحكمة وهم ينشرون دعوته، ويبثون حكمته فى الأمم، فيفـتح الله لهم المشرق والمغرب، وينقل الله بهم الأمم والشعوب، من حال إلى حال أعلى وأرقى، ينقلونهم من الوثنيـة والعبـودية والذلة والظلم وفسـاد الأخلاق وقلة الآداب والجـهل، إلى التوحيد والحرية والعزة والعدل والآداب والفضائل والعلم وثمراته.

إذًا فالصـحابة - وأكـثرهم عـرب - هم رسل محـمد ﷺ إلى الأمم والشعوب(٢).

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾

قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾(٣) أى: نحن نوحى إليك يا محمـد ونروى لك أخبار الأمم السابقة بأصدق كـلام وأحـسن بيان ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾(٤) أى: بإيحائنا إليك هذا القـرآن المعجز ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾(٥) أى: وإن الحال والشأن أنك كنت من قبل أن نوحى إليك هذا القـرآن لمن الغافلين عن هـذه القصـة فلم تخطر ببالك ولم تـقرع سمعك لأنك أمىٌّ لا تقرأ ولا تكتب.

---

(١) سورة الجمعة: الآية: (٢).

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/٩٨، ٩٩).

(٣)(٤)(٥) سورة يوسف: الآية: (٣).

س: لماذا أطلق على هذه السورة الكريمة (أحسن القصص) ؟

ج: قال أبو حيان:

قيل: كانت هذه السورة أحسن القصص لانفرادها عن سائرها بما فيها من ذكر الأنبياء، والصالحين، والملائكة، والشياطين، والجن، والإنس، والأنعام، والطير، وسِير الملوك، والممالك، والتجار، والعلماء، والرجال، والنساء وكيدهن ومكرهن، مع ما فيها من ذكر التوحيد، والفقه، والسِّير، والسياسة، وحُسن الملكة، والعفو عند المقدرة، وحسن المعاشرة، والحِيل، وتدبير المعاش، والمعاد، وحسن العاقبة، وفى العفة، والجهاد، والخلاص من المرهوب إلى المرغوب، وذكر الحبيب والمحبوب، ومرأى السنين وتعبير الرؤيا، والعجائب التى تصلح للدين والدنيا.

وقيل: كانت أحسن القصص لأنّ كل من ذكر فيها كان مآله إلى السعادة؛ انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته وامرأة العزيز والملك أسلم بيوسف وحَسُنَ إسلامه. ومعبر الرؤيا الساقى، والشاهد فيما يقال[1].

وقيل: سماها أحسن القصص لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته وصبره على أذاهم وعفوه عنهم بعد الالتقاء بهم عن ذكر ما تعاطوه وكرمه فى العفو حتى قال: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾[2].

* **وقال آخرون:** إن فيها بيان العاقبة الحسنة للصبر والصابرين، ورفعة درجات المتقين، وتبرئة الله للمتهمين المظلومين.

وقال آخرون: إن السورة الكريمة حَوَت عِبرًا ومواعظ وحِكمًا لم تحوه سورة غيرها.

وفيها أيضًا: كيفية التعامل مع الناس - جاهلهم وعالمهم وملكهم ومملوكهم ورجالهم ونسائهم.

وفيها أيضًا: معجزات باهرات ودلالات للنبوة واضحات، ودعوة للتوحيد

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٢٣٦).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٩٢).

ونبذ الشرك والخرافات، والتذكير باليوم الآخر.

وبالجملة، فقد اجتمع فيها ما لم يجتمع فى غيرها [١].

* * *

س: هل هناك سبب لنزول قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾؟

ج: نعم صح للآية الكريمة سبب نزول، وهو ما أخرجه الحاكم[٢] وغيره بسند صحيح عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه فى قول الله عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ...﴾[٣] الآية قال: نزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتلا عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾[٤] تلا إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ الآية، فتلا عليهم زمانًا فقالوا: يا رسول الله! لو حدثتنا؟ فأنزل الله عز وجل ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾[٥] الآية كل ذلك يؤمر بالقرآن.

ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أن عمر ابن الخطاب أتى النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبى صلى الله عليه وسلم فغضب وقال: **«أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذى نفسى بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق فتكذبونه، أو بباطل فتصدقونه، والذى نفسى بيده، لو أن موسى كان حيًا، لما وسعه إلا أن يتبعنى»**[٦].

---

(١) التسهيل لتأويل التنزيل (تفسير سورة يوسف) للشيخ مصطفى العدوى (ص:٣٣، ٣٤).

(٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبى: صحيح.

(٣) سورة يوسف: الآية: (٣).

(٤) سورة يوسف الآية: (١).

(٥) سورة الزمر: الآية: (٢٣).

(٦) حسن: أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧)، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى المشكاة (١٧٧).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ . قال عبد الله بن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً. قال: فسُرِّي عن النبي ﷺ وقال: «والذي نفس محمد بيده، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظِّي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين»(١)(٢).

﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

س: قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ غافلين عن ماذا ؟

ج: من الغافلين عما أخبر الله به في كتابه الكريم، من الغافلين عن قصص السابقين، وأحوال المتقدمين، ومن الغافلين أيضًا عن أحكام الدين، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾(٣)(٤).

● غفلة النبي ليست عيبًا يُذم به.

* **قال العلمي:** الغفلة قسمان: غفلة يُذم بها الإنسان، وهي فيما إذا كان قد بُلِّغ شيئًا وعلمه ثم غفل عنه.

وغفلة يُعذر بها الإنسان، وليست مذمومة قطُّ، وهي فيما إذا غفل عن شيء لم يُبَلَّغه ولم يعلمه.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٦٥)، وقال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف لضعف جابر، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٧٣): «رجاله رجال الصحيح إلا أن فيه جابر الجعفي وهو ضعيف».

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٠، ٤٧١).

(٣) سورة الشورى: الآية: (٥٢).

(٤) التسهيل (ص: ٣٧).

فقوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ لا يقصد منه الذم والعتاب، ولكن يقصد منه بيان الواقع[(١)].

وقال جمال الدين القاسمي: «والتعبير عن عدم العلم بالغفلة، لإجلال قدر شأن النبي ﷺ»[(٢)].

● **الدروس المستفادة من الآية:**

إثبات نبوة محمد ﷺ وتقريرها بأقوى برهان عقلي وأعظم دليل نقلي.

إن محمدًا ﷺ هو النبي الأمي الذي لم يكن يعلم شيئًا من القرآن، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾[(٣)].

وقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[(٤)].

وقوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(٥)].

ولذلك أكَّد ذلك في سورة يوسف بقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[(٦)].

* **قال العلمي:** كان النبي ﷺ أميًّا لم يتعلم من الكتب قط، ولم يُعْنَ في طفولته ولا في شبابه بشيء مما كان يسمى علمًا عند الأميين، كالشعر،

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/١٦٩).

(٢) محاسن التأويل (٦/١٩٧).

(٣) سورة العنكبوت: الآيتان: (٤٨، ٤٩).

(٤) سورة آل عمران: الآية: (٤٤).

(٥) سورة هود: الآية: (٤٩).

(٦) سورة يوسف: الآية: (١٠٢).

والنسب، وأيام العرب، ولم يتربَّ علـى يد عالم ولا حكيم ولا سياسى، وكان - وهو فى سن التعليم وتكوّن الأخلاق والملكات - يرعى الغنم نهاراً، وينام من أول الليل، فلا يحضر سمّار قومه - وهى: موضع السمر فى الليل - ولا يجتمع بهم فى معاهد لهوهم، واتجر قليلاً فى شبابه مع قومه من أبناء الجاهلية وأترابه، فهو لم يصادف من التربية المنزلية والتأديب الاجتماعى فى أول نشأته ما يؤهله للمنصب الذى تصدى له فى كهولته، وهو: تربية الأمم تربية دينية اجتماعية سياسية، ولكنه مع ذلك قام بهذه التربية أكمل قيام.

وأتى من علم الحقوق والجزاء والتاريخ ما يعجز عن مثله أكبر رجل دارس فى الجامعات العالية، فكان هذا حجة على صحة نبوّته، وبرهانًا عظيمًا على عناية الله به، وتأييده إياه بوحيه:

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا ﴾(١).

ومن الغريب؟ أنه يوجد فى هذا العصر، عصر النور والأفكار الحرة المطلقة(٢)، من لا يفكر فى إتيان الأمى الناشئ بين الأميين بخلاصة أخبار أشهر الرسل مع أهليهم وأقوامهم.

رجل أمى يتيم فقير فى بيئة منحلة، وفى وسط جاهل، لم يقرأ ولم يطلع على أى شىء من كتب الدين، ولا كتب التاريخ بل كان من الغافلين، فى غير عقيدته، ومع ذلك أتى من العلوم ما لم يأته قبله نبى ولا حكيم:

كفاك بالعلم فى الأمىّ معجزة

فى الجاهلية والتأديب فى اليُتم(٣)

---

(١) سورة هود: الآية: (٤٩).

(٢) كما يزعم دعاة الفكر العقلانى، لانبهارهم بمدنية الغرب الجاهلية، والواقع عكس ذلك.

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١٦٧، ١٦٨).

ويُرفع الستار عن المشهد الأول

ويُرفع الستار فى هذه القصة عن المشهد الأول لنرى يوسف - عليه السلام- مسرعًا إلى أبيه ليقص عليه تلك الرؤيا التى رآها فى تلك الليلة.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾(١) من هنا بداية القصة، أى: اذكر حين قال يوسف لأبيه يعقوب: يا أبى إنى رأيت فى المنام هذه الرؤيا العجيبة، رأيت أحد عشر كوكبًا من كواكب السماء خرّت ساجدة لى ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾(٢) أى ورأيت فى المنام الشمس والقمر ساجدة لى مع الكواكب... قال ابن عباس: كانت الرؤيا فيهم وحيًا(٣)، قال المفسرون: الكواكب الأحد عشر كانت إخوته، والشمس والقمر أبواه، وكان سنُّه إذ ذاك اثنتى عشرة سنة، وبين هذه الرؤيا واجتماعه بأبيه وإخوته فى مصر أربعون سنة(٤).

قال المفسرون وغيرهم: رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم، كأن أحد عشر كوكبًا (وهم إشارة إلى بقية إخوته)، والشمس والقمر(وهم عبارة عن أبويه)، قد سجدوا له، فهاله ذلك.

فلما استيقظ قصّها على أبيه.

وقال ابن عاشور: وابتداء قصة يوسف عليه السلام بذكر رؤياه إشارة إلى أن الله هيأ نفسه للنبوة فابتدأه بالرؤيا الصادقة...

وفى ذلك تمهيد للمقصود من القصة وهو تقرير فضل يوسف عليه السلام من طهارة وزكاة نفس وصبر. فذكر هذه الرؤيا فى صدر القصة كالمقدمة والتمهيد للقصة المقصودة.

وجعل الله تلك الرؤيا تنبيهًا ليوسف عليه السلام بعلو شأنه ليتذكر كلما

---

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (٤).

(٣) الطبرى (١٢/ ١٥١).

(٤) الصاوى على الجلالين (٢/ ٢٣٤).

حلّت به ضائقة فتطمئن بها نفسه أن عاقبته طيبة [1].

* * *

س: لماذا أخبر يوسف أباه بهذه الرؤيا ؟

ج: «وإنما أخبر يوسف عليه السّلام أباه بهذه الرؤيا؛ لأنّه علم بإلهام أو بتعليم سابق من أبيه أن للرؤيا تعبيرًا، وعلم أنّ الكواكب والشّمس والقمر كناية عن موجودات شريفة، وأنّ سجود المخلوقات الشّريفة له كناية عن عظمة شأنه. ولعلّهُ علم أنّ الكواكب كناية عن موجودات متماثلة، وأنّ الشمس والقمر كناية عن أصلين لتلك الموجودات فاستشعر على الإجمال دلالة رؤياه على رفعة شأنه فأخبر بها أباه»[2] .

* * *

س: ما وجه السجود فى قوله: ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾؟

ج: هذا سجود تحية، وقد كان سائغًا فى شرع مَن قبلنا، ولكنه نُسخ فى شريعتنا .

أما كونه كان سائغًا فى شرع من قبلنا، فقد قال تعالى للملائكة: ﴿ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾[3] .

وقال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾[4] .

* أما نسخه فى شريعتنا: فلقول رسول الله ﷺ : **«لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عِظم حقه عليها»**[5] .

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/٢٠٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٠٨، ٢٠٩) لابن عاشور.

(٣) سورة البقرة: الآية: (٣٤).

(٤) سورة يوسف: الآية: (١٠٠)

(٥) أخرجه أحمد (٣/١٥٨)، والضياء (١٨٩٥)، وقال الهيثمى (٩/ ٤): رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح غير حفص ابن أخى أنس وهو ثقة، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٧٧٢٥).

س: لِمَ لم ير يوسف - عليه الصلاة والسلام - رؤيا تدل على ما سيصيبه من شر؟

ج: فالجواب ما قاله العلمى:

كانت قُدرت أشياء على يوسف لابد منها، وذلك مثل امتحانه بمراودة امرأة العزيز إياه، ثم نسبة المراودة إليه زورًا، ثم اختباره ثانيًا بالنسوة المصريات، ثم سجنه ظلمًا، ولم يُنذر بشىء من هذه الأشياء ولم ير عنها فى منامه ولكنه قدرت له أشياء أخرى، وذلك مثل سجود إخوته له، واجتباء ربه إياه، وتعليمه من تأويل الأحاديث، وإتمام نعمته عليه، وهذه الأمور قد بُشِّر ببعضها منامًا، وبُشر ببعضها الآخر بلسان أبيه يقظة، ولماذا هذه التفرقة يا ترى؟

أعنى: أنه لم ينذر بما سيصبُّ عليه، ولكنه بُشر بما سيصير له.

وجوابنا على ذلك: أن الأفضل فيما كانَ من قبيل الخير أن يبشر به الإنسان، ويوعد به قبل حصوله له بالفعل، وذلك لكى يتلذذ بالأمل بحصوله قبل أن يحصل بالفعل، وأما ما كان من قبيل الشر، فالأوفق أن لا يشعر به أولاً، لئلا يتنغص به قبل وقوعه، وقد قيل: الوقوع فى الشر ولا انتظاره[1].

• الدروس المستفادة من الآية:

(١) وجوب الأدب مع الوالدين فى الكلام والتلطف فى الخطاب.

ويظهر فى مناداة يوسف - عليه السلام - لأبيه بأداة النداء للبعيد إعلاء لمنزلة أبيه ورفعة شأنه، وكذلك فى قوله : ﴿يَا أَبَتِ﴾ فيه إظهار الطواعية والبر بمخاطبة أبيه.

(٢) بيان شفقة الأب على أبنائه ودفع ما يسوؤهم.

قال العلمى: كأن هذه الكلمة ﴿يَا أَبَتِ﴾ من الابن إلى الأب استعطاف

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ١٨١، ١٨٢).

واسترحام، وتذكير بالأبوة وواجباتها، نحو الشفقة والعناية بالأبناء وما بين الابن والأب من الحقوق التى تجب مراعاتها والقيام على الوفاء بها من الطرفين(١).

وقال جمال الدين القاسمى: «ناجى يوسف أباه بهذه الرؤية، لاعتقاد كمال علمه وشفقته عليه، بحيث لو كانت رؤياه تسوؤه، لأمكنه صرفها عنه»(٢).

(٣) بر الأم مقدم على بر الأب:

قال ابن عطية:

القمر: تأويله الأب، والشمس: تأويلها الأم، فانتزع بعض الناس فى تقديمها وجوب بر الأم وزيادته على بر الأب(٣).

قلنا: وهذا موافق لما ثبت عن رسول الله ﷺ: أن رجلاً قال: من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»(٤).

(٤) ثبوت الرؤيا شرعًا ومشروعية تعبيرها (٥).

قال العلمى:

من الواضح الذى نستحى أن نعزوه إلى كتاب، أو نقيم عليه شاهدًا: أن الرؤيا المنامية معتبرة شرعًا (٦)، ومسطورة فى كثير من الكتب السماوية.

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾(٧).

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ١٧١).

(٢) محاسن التأويل (١/ ١٨٧).

(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٢١٩).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٧١) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٤٨) كتاب البر والصلة والآداب من حديث أبى هريرة.

(٥) أيسر التفاسير (٥٩٤).

(٦) وهى مما يستأنس بها؛ لأن الرؤيا الصادقة من المبشرات، وأما الاحتجاج بها كدليل مستقل كما يفعل المتصوفة، فلا أصل له فى الشرع، بل هو من أسباب ضلالهم وأبواب زيغهم.

(٧) سورة الإسراء: الآية: (٦٠).

فانظرْ ماذا ترىٰ قالَ يا أبتِ افعلْ ما تؤمرُ ستجدُني إن شاءَ اللهُ منَ الصابرينَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ لقدْ صدقَ اللهُ رسولَهُ الرؤيا بالحقِّ لتدخلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاءَ اللهُ آمنينَ محلّقينَ رءوسكُمْ ومقصّرينَ لا تخافونَ فعلمَ ما لمْ تعلَموا فجعلَ من دونِ ذلكَ فتحًا قريبًا ﴾(٢).

وروى البخارى ومسلم عن أبى قتادة قال: كنت أرى الرؤيا تُمرضنى حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا الصالحة من الله، والرؤيا السوء من الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يحب، فلا يحدث بها إلا من يحب، وإذا رأى أحدكم ما يكره، فليتفل أحدكم عن يساره ثلاثًا، وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها، فإنها لن تضره»(٣).

ما هى أقسام الرؤيا؟

الرؤيا ثلاثة أقسام:

فمنها: رؤيا من الله - عز وجل.

ومنها: حلم من الشيطان.

ومنها: حديث للنفس، ينشغل الشخص بأمر فينام فيراه فى نومه.

وقد ورد فى هذا الباب حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ(٤): «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا. ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوة، والرؤيا ثلاثة: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم فليُصلِّ، ولا يحدث بها الناس».

---

(١) سورة الصافات: الآية: (١٠٢).

(٢) سورة الفتح: الآية: (٢٧).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخارى (٧٠٤٤) كتاب التعبير، ومسلم (٢٢٦١) كتاب الرؤيا.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٢٦٣) كتاب الرؤيا من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

س: اذكر ما يفعله من رأى رؤيا حسنة، وما يفعله من رأى رؤيا مزعجة؟

ج: الذى يرى رؤيا حسنة يحمد الله عليها ويحدث بها من يحب، أما الذى يرى غير ذلك مما يكره فعليه خمسة أمور:

١- أن يتعوذ بالله من شرها، ومن شر الشيطان.

٢- أن يتفل عن يساره ثلاثًا.

٣- أن لا يحدث بها أحدًا.

٤- أن يتحول عن جنبه الذى كان عليه.

٥- أن يفزع إلى الصلاة.

وهذا للآتى ذكره:

* **أولاً:** ما أخرجه البخارى من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه، أنه سمع النبى ﷺ يقول: **«إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هى من الله، فليحمد الله عليها، وليحدث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هى من الشيطان فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره»**[1].

* **ومنها:** ما أخرجه البخارى ومسلم من طريق أبى سلمة قال: لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضنى حتى سمعت أبا قتادة يقول: وأنا كنت أرى الرؤيا تمرضنى حتى سمعت النبى ﷺ يقول: **«الرؤيا الحسنة من الله، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب، وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها ومن شر الشيطان، وليتفل ثلاثًا ولا يحدث بها أحدًا، فإنها لا تضره»**[2].

* **وعند مسلم:** من حديث جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال لأعرابى جاءه فقال: إنى حلمت أن رأسى قُطع فأنا أتبعه، فزجره

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٩٨٥) كتاب التعبير.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠٤٤)، ومسلم (١٧٧٢) كتاب الرؤيا.

النبى ﷺ وقال: «لا تخبر بتلعب الشيطان بك فى المنام»(١).

* وعند مسلم: فى رواية أخرى عن جابر أيضًا قال: جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله! رأيت فى المنام كأن راسى ضُرب فتدحرج فاشتددت على أثره؟ فقال رسول الله ﷺ للأعرابى: «لا تحدث الناس بتلعب الشيطان بك فى منامك»، وقال: سمعت النبى ﷺ بعد يخطب فقال: «لا يحدثن أحدكم بتلعب الشيطان به فى منامه».

* قال السعدى:

فمن فوائد هذه السورة: أن فيها أصولاً لعلم تعبير الرؤيا، فإن علم تعبير الرؤيا علم عظيم مهم، مبناه على حسن الفهم، والعبور من الألفاظ والمحسوسات والمعنويات أو ما يناسبها بحسب حال الرائى، وبحسب الوقت والحال المتعلقة بالرؤيا، وقد أثنى الله على يوسف -عليه السلام- بعلمه بتأويل الأحاديث، تأويل أحاديث الأحكام الشرعية والأحاديث المتعلقة بتعبير الرؤيا، والفرق بين الأحلام التى هى أضغاث أحلام لا تأويل لها مثل ما يراه من يفكر ويطيل تأمله لبعض الأمور، فإنه كثيرًا ما يرى فى منامه من جنس ما يفكر به من يقظته، فهذا النوع الغالب عليه أنه أضغاث أحلام لا تعبير له.

وكذلك نوع آخر: ما يلقيه الشيطان على روح النائم من المرائى الكاذبة والمعانى المتخبطة، فهذه - أيضًا - لا تعبير لها، ولا ينبغى للعاقل أن يشغل فكره، بل ينبغى له أن يلهى عنها.

وأما الرؤيا الصحيحة، فهى إلهامات يلهمها الله للروح عند تجردها عن البدن وقت النوم، أو أمثال مضروبة يضربها الملك للإنسان ليفهم بها ما يناسبها، وقد يرى الشىء على حقيقته ويكون تعبيره هو ما رآه فى منامه، فيوسف - عليه الصلاة والسلام- أعطاه الله من العلم ما يميز به بين المرائى

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٧٦) كتاب الرؤيا.

الصحيحة والباطلة، والحق والباطل منها[1].

* * *

س: ما معنى «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة» ؟

ج: عن أبى رزين العقيلى قال: قال رسول الله ﷺ: **«رؤيا المؤمن جزء من أربعين (وفى رواية: جزء من ستة وأربعين) جزء من النبوة »**.

قال: وأحسبه قال: **«ولا يحدث بها إلا لبيبًا أو حبيبًا»**[2].

ووجه كونها جزءًا من ستة وأربعين جزءًا من النبوة: أنه ﷺ بقى حسبما أشارت عائشة رضي الله عنها ستة أشهر يرى الوحى منامًا، ثم جاءه الملك يقظة، وستة أشهر بالنسبة إلى ثلاث وعشرين سنة جزءًا من ستة وأربعين جزء، ولا تنس أن كون الرؤيا الصادقة جزءًا مما ذُكر إنما هو اعتبار صدقها لا غير، وإلا لساغ لصاحبها أن يُسمَّى نبيًّا وليس كذلك، هكذا أفادنا الحافظ العسقلانى-رحمه الله- وعليه، فلا تكون الرؤيا مبدأ للنبوة ولكن تعد من مقدماتها، فالظاهر لنا أن رؤى الأنبياء المنامية قبل نبوتهم هى من قبيل الإرهاصات التى تكون قبل النبوة، أى: قبل الزمن الذى يتأهل فيه النبى لقبول الوحى فى اليقظة، وأما رؤياهم فى المنام بعد النبوة بالفعل، فهى وحى صريح، كما نتعلمه من حادثة رؤيا إبراهيم المنامية فى شأن ولده الذبيح.

والخلاصة: أن رؤيا الأنبياء حال نبوتهم نوع من أنواع الوحى، ورؤياهم قبل نبوتهم هى كسائر رؤى أهل الصلاح والخير، تعد من أنواع المبشرات لا من قبيل الوحى.

قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) فوائد مستنبطة من قصة يوسف -عليه السلام- (ص :١٤، ١٥).

(٢) **صحيح:** رواه أحمد (٤/ ١٠)، وعلى بن الجعد فى مسنده (٢/ ٧١٧/ ١٧٧٢)، وصححه العلامة الألبانى -رحمه الله - فى الصحيحة (١١٩، ١٢٠).

وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[1].

وقد ورد فى الحديث[2]: أن البشرى فى الحياة الدنيا هى الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له.

* * *

س: هل رؤيا الكفار التى تتحقق تعدُّ من النبوة ؟

ج: ليس كل ما يتحقق من رؤيا الكفار يعد من النبوة، إذ ليس كل من صدق فى خبر يكون خبره هذا من النبوة.

* * *

س: هل الرؤيا تحرم حلالاً أو تحل حرامًا أو يترتب عليها حكم شرعى؟

ج: الرؤيا المنامية ولو كانت صحيحة وحقًّا، فهى لا تُحرم حلالاً، ولا تُحلل حرامًا، ولا يترتب عليها حكم شرعى، وقد حُكى أن رجلاً صالحًا فقيرًا رأى رؤيا: أن النبى ﷺ جاءه فى نومه وقال له: إن فى موضع كذا ركازًا، احضر وخذه، ولا تؤد خُمسه، فقام من نومه صباحًا، وأخذ ما يقتضى لحفر الأرض، فاطلع على الركاز، فذهب إلى الشيخ عز الدين بن عبد السلام يستفتيه فى عدم إعطاء خُمسه لبيت المال، حسب ما قال له النبى منامًا، فقال له الشيخ عز الدين: يجب عليك أن تؤدى خمسه لبيت المال، كما أفتانا النبى ﷺ يقظة، وفتواه فى اليقظة مقدمة على فتواه فى المنام، نعم إن رؤيا النبى حق، ولكن يحتمل عدم ضبط الألفاظ تمامًا، فلعله قال لك: وأدِّ خُمسه لبيت المال. وأنت سمعته يقول: ولا تؤدِّ خمسه.

---

(١) سورة يونس: الآيات: (٦٢-٦٤).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٦/ ٤٤٥)، والطحاوى فى مشكل الآثار (٣/ ٤٧) من حديث أبى الدرداء رضي الله عنه وصححه العلامة الألبانى -رحمه الله- فى الصحيحة (١٧٨٦).

وهكذا قال الفقهاء: لو اختلف المسلمون فى آخر يوم من شعبان: هل غدًا من رمضان أم لا؟ ثم رأى رجل النبى ﷺ فى نومه، وسمعه يقول له: «إن غدًا أول يوم من رمضان، فصمه، اؤمر الناس بصيامه، لا يجب عليه صيامه؛ لأن الرؤيا التى فى المنام، لا يترتب عليها شىء من الأحكام الشرعية، ولو كانت حقًّا وصحيحة. . . هذا إذا كانت لغير الأنبياء أنفسهم، وأما رؤيا الأنبياء أنفسهم، فهى وحى كما فى اليقظة، تترتب عليها الأحكام الشرعية بلا خلاف»[1].

* * *

س: اذكر حديثًا يحذر من الكذب فى ادعاء الرؤيا.

ج: ذلك ما أخرجه البخارى[2] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: **«من تحلّم بحلم لم يره كُلِّف أن يعقد بين شعيرتين، ولن يفعل، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرون منه صُبَّ فى أذنه الآنك يوم القيامة، ومن صور صورة عُذِّب وكُلِّف أن ينفخ فيها، وليس بنافخ».**

وعند البخارى[3] أيضًا من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«من أفرى الفرى أن يرى عينه ما لم تر».**

* * *

س: قد يتأخر تحقق الرؤيا عدة سنوات، وضح ما يدل على ذلك.

ج: إيضاحه أن يوسف -عليه السلام- رأى رؤياه وهو صغير وتحققت بعد سنوات طويلة مكثها فى بيت العزيز وهو عبد مُسترق، وسنوات مكثها فى السجن، ثم سبع سنوات سمان مكثها وهو عزيز لمصر، ثم دخلت عليه السنون العجاف فأتاه أبوه وإخوته فيها.

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/١٧٦-١٨١).

(٢) **صحيح:** رواه البخارى (٧٠٤٢) كتاب التعبير.

(٣) **صحيح:** رواه البخارى (٧٠٤٣) كتاب التعبير.

ورؤيا رسول الله ﷺ التي ذكرها الله في كتابه الكريم بقوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ﴾(١)قد تحققت بعد زمن من رؤية النبي ﷺ لها(٢).

﴿لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾

قال تعالى حاكيًا عن نبي الله يعقوب - عليه السلام - أنه قال: ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(٣).

لقد عرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبوه وإخوته فيها، فأمره بكتمانها وألا يقصها على إخوته، كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر(٤).

* ولهذا أمرنا النبي ﷺ بأن نستعين على قضاء حوائجنا بالسر والكتمان فقال ﷺ: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود»(٥).

قال أبو حيان: فهم يعقوب من رؤيا يوسف أن الله تعالى يبلغه مبلغًا من الحكمة، ويصطفيه للنبوة، وينعم عليه بشرف الدارين، فخاف عليه من حسد

---

(١) سورة الفتح: الآية: (٢٧).

(٢) فعند البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان في قصة صلح الحديبية أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال: فأتيت النبي ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقًا؟ قال: «بلى» قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى».. فذكر الحديث وفيه أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟» قال: قلت: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به».

(٣) سورة يوسف: الآية: (٥).

(٤) قصص الأنبياء (ص: ٢٦٨).

(٥) صحيح: أخرجه الطبراني (٢٠/ ٩٤)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٢٧٧)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (١٤٥٣).

إخوته فنهاه أن يقص رؤياه عليهم(١).

● الدروس المستفادة من الآية:

(١) وجود الحسد عادة بين الإخوة والأقارب:

الحسد ظاهر بين الأقارب، وهذا ظاهر فى طعن الرجل من بنى سلمة- وهم قوم كعب بن مالك- فى كعب فى تبوك، وقد أثبت القرآن الكريم هذه الحقيقة فى قصتين:

الأولى: نبأ ابنى آدم عندما تقبل من أحدهما، ولم يتقبل من الآخر، فحسد أخاه، وبغى عليه، فقتله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾(٢).

قال ابن كثير-رحمه الله-: «يقول تعالى مبينًا وخيم عاقبة البغى والحسد والظلم فى خبر ابنى آدم لصلبه فى قول الجمهور(٣)، وهما: قابيل وهابيل(٤) كيف عدا أحدهما على الآخر، فقتله بغيًا عليه وحسدًا له فيما وهبه الله من النعمة، وتقبل القربان الذى أخلص فيه لله-عز وجل- ففاز المقتول بوضع الآصار والدخول إلى الجنة، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة فى الدارين»(٥).

الثانية: خبر يوسف مع إخوته عندما سمعوا الرؤيا، فكادوه وحسدوه،

(١) البحر المحيط (٥/ ٢٨٠).

(٢) سورة المائدة: الآيات: (٢٧ - ٣١).

(٣) وهو الصواب.

(٤) لم يثبت فى السنة الصحيحة، وإنما فى الإسرائيليات.

(٥) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٣).

وهذا ما حذر منه يعقوب-عليه السلام- ابنه يوسف الصدِّيق: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١).

قال القرطبي: وفيها ما يدل على جواز ترك النعمة عند من تخشى غائلته حسداً وكيداً... وفيها دليل واضح على معرفة يعقوب-عليه السلام- بتأويل الرؤيا، فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك في نفسه، فإن الرجل يود أن يكون ولده خيراً منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه، ويدل على أن يعقوب-عليه السلام- كان قد أحس من بنيه حسد يوسف وبغضه، فنهاه عن قص الرؤيا عليهم خوف أن تغل بذلك صدورهم، فيعملوا الحيلة في هلاكه(٢).

(٢) ينبغي البعد عن أسباب الشر وما يخشى مضرته(٣).

قال السعدي: على كل والد أن يحرص على أولاده، ولا يسمح بأن ينشأ فيهم داء الحسد، وإلا دخل الشيطان بينهم، وسلط بعضهم على بعض، وإذا أصاب أحدهم خير خاص به ينبغي ألا يذكره لغيره، كي لا يثير غيرتهم وحقدهم وحسدهم وسائر المشاعر السلبية التي يمكن أن تكون مركومة في النفس البشرية(٤).

قال العلمي: إن أهل الفضل والنبل محسودون من قديم الزمان، ولذلك يجب ألا يتظاهروا بمفاخرهم، إذا خافوا من أهل الحسد شراً (٥).

قال أبو السعود في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، فلا يأل جهداً في إغواء إخوتك وإضلالهم وحملهم على ما لا خير فيه، وهو استئناف، كأن يوسف - عليه السلام - قال: كيف يصدر ذلك عن إخوتي الناشئين في بيت النبوة؟

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٥).

(٢) أحكام القرآن (٣/ ١٠٧٥) ونقله القاسمي في محاسن التأويل (٩/ ١٨٩).

(٣) تيسير الكريم المنان (ص: ٣٦٣).

(٤) دروس مستفادة من سورة يوسف (ص: ١١، ١٢).

(٥) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٢٠٢).

فقيل: إن الشيطان يحملهم على ذلك(١).

(٣) إن تعدد الزوجات ربما أثار عداءً ينتشر من الضرائر إلى أولادهن(٢).

وهذا نتيجة لسوء التربية وليس بسبب التعدد، لأن التعدد شرعه الله، ولذلك ينبغي أن يحرص الرجل على رعاية بيته وتربية أولاده، وعدم التفريق بينهم وبين أمهاتهم، فسياستهم بالعدل كفيل بإطفاء نار الحسد والغيرة بين الضرائر وأبنائهن.

* * *

س: هل يجوز التحذير من شخص بعينه؟ دلل على ذلك.

ج: نعم يجوز التحذير من شخص بعينه، فـ «الدين النصيحة»(٣) كما قال النبي ﷺ، وأيضًا قد حذر يعقوب ولده يوسف -عليهما السلام- فقال: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾(٤).

* قال أبو حيان:

وفي خطاب يعقوب ليوسف تنهية عن أن يقص على إخوته مخافة كيدهم، دلالة على تحذير المسلم أخاه المسلم ممن يخاف عليه، والتنبيه على بعض ما لا يليق، ولا يكون ذلك داخلاً في باب الغيبة(٥).

وكذلك قال النبي ﷺ لعائشة في شأن رجل مقبل عليه: «بئس أخو العشير»(٦). وكذلك ففي صلح الحديبية قال النبي ﷺ -لما أشرف عليهم رجل يقال له: مكرز بن حفص- فقال عليه الصلاة والسلام: «هذا مكرز وهو رجل فاجر...»(٧) الحديث.

---

(١) تفسير أبي السعود (٤/٢٥٣).

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/٢٠٢).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٥٥) كتاب الإيمان.

(٤) سورة يوسف: الآية: (٥).

(٥) البحر المحيط (٦/٢٣٩).

(٦) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٣١) كتاب الأدب، ومسلم(٢٥٩١) كتاب البر والصلة والآداب.

(٧) صحيح: رواه البخاري (٢٧٣٤) كتاب الشروط.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾[(١)] أى وكما أراك مثل هذه الرؤيا العظيمة كذلك يختارك ربك للنبوة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾[(٢)] أى: يعلمك تفسير الرؤيا المنامية ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾[(٣)] أى: يتمم فضله وإنعامه عليك وعلى ذرية أبيك يعقوب ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾[(٤)] أى: كما أكمل النعمة من قبل ذلك على جدك إبراهيم وجدك إسحاق بالرسالة والاصطفاء ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[(٥)] أى: عليم بمن هو أهلٌ للفضل، حكيم فى تدبيره لخلقه[(٦)].

* * *

س: ما المراد بتأويل الأحاديث؟

ج: واختلف العلماء فى المراد بتأويل الأحاديث:

فذهب جماعة من أهل العلم إلى أن المراد بذلك: تعبير الرؤيا، فالأحاديث على هذا القول هى الرؤيا.

قالوا: إنها إما حديث نفس، أو ملك، أو شيطان.

وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا، ويدل لهذا الوجه الآيات الدالة على خبرته بتأويل الرؤيا.

كقوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[(٧)].

(١)، (٢)، (٣)، (٤)، (٥) سورة يوسف: الآية: (٦).

(٦) صفوة التفاسير (٢/ ٤٢).

(٧) سورة يوسف: الآية: (٤١).

وقوله: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْصِرُونَ﴾(١).

وقال بعض العلماء: المراد بتأويل الأحاديث معرفة معانى كتب الله وسنن الأنبياء، وما غمض وما اشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها، يفسرها لهم، ويشرحها، ويدلهم على مودعات حكمها.

وسميت أحاديث، لأنها يحدث بها عن الله ورسله، فيقال: قال الله: كذا، وقال رسوله: كذا، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾(٢)، وقوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾(٣).

ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(٤).

وقوله: ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾(٥) (٦).

* * *

س: ما المراد بإتمام النعمة فى قوله تعالى: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾، وما أعظم نعمة أنعم الله بها على إبراهيم وإسحاق؟

ج: المراد بإتمام النعمة إتمامها بجعله رسولاً وبالإيحاء إليه وبإنجائه من المكروه.

أما أعظم نعمة أنعم الله بها على إبراهيم وإسحاق فنعمة النبوة والرسالة.

* قال عبد الحميد كحيل:

إن تمام النعمة لكل إنسان إنما يكون أمراً زائدًا على النعمة مناسبًا لما أنعم به ولحال المنعم عليه، فإذا أضيف إلى نبى من الأنبياء كان معناه تمكنه من

---

(١) سورة يوسف: الآيات: (٤٧-٤٩).

(٢) سورة المرسلات: الآية: (٥٠).

(٣) سورة الزمر: الآية: (٢٣).

(٤) سورة يوسف: الآية: (٢٢).

(٥) سورة يوسف: الآية: (٣٧).

(٦) أضواء البيان (٣/ ٥١، ٥٢).

أداء الرسالة، ونصره على أعدائه، واستقرار الأمر له حتى يدخل الناس فى دين الله، ولذلك لما عقد الرسول ﷺ معاهدة الحديبية مع قريش وانتهت منازعتهم له، واستراح من حروبهم، وتيسر السبيل لدخول الناس فى دين الله أفواجًا خاطبه الله بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[1].

أما إذا أضيف إتمام النعمة إلى غير نبى كان له معنى آخر مناسب لما أضيف إليه، كما قال تعالى مخاطبًا أمة محمد ﷺ فى حجة الوداع: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[2][3].

وقال ابن عاشور:

وإتمام النعمة عليه: إعطاؤه أفضل النعم: وهى نعمة النبوة أو هو الملك إلى النبوة والرسالة، فيكون المراد: إتمام نعمة الاجتباء الأخروى بنعمة المجد الدنيوى[4].

* * *

س: لماذا عبَّر عن إبراهيم وإسحاق بقوله: ﴿أَبَوَيْكَ﴾؟

ج: أولاً: يجوز إطلاق الأب على الجد، وحتى الجد البعيد قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾[5].

وقال النبى ﷺ: **«أنا ابن عبد المطلب»**[6].

ثانيًا: عُبِّر عن إبراهيم وإسحاق بالأبوين للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام.

(١) سورة الفتح: الآيات: (١-٣).
(٢) سورة المائدة: الآية: (٣).
(٣) يوسف عليه السلام (ص: ١٩، ٢٠).
(٤) التحرير والتنوير (١٢/٢١٧).
(٥) سورة الحج: الآية: (٧٨).
(٦) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٦٤) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٧٧٦) كتاب الجهاد والسير.

س: ما وجه ختام الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؟

ج: وجه ذلك: طمأنة قلوب المؤمنين والإجابة على سؤال السائلين فإن سألت لماذا اختار الله يوسف واجتباه ؟

فالجواب: إن ربك عليم أى: بمن يستحق الاجتباء والاختيار. وكما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(١).

أما قوله: ﴿حَكِيمٌ﴾ فيفعل كل شىء بحكمة، وهو حكيم أيضًا سبحانه وتعالى فى تدبيره، فيضع كل شىء فى موضعه فيكرم من هو أهلٌ للإكرام ويحرم من هو أهل للحرمان، وكثير من الآيات المتعلقة بالرزق تُختم بنحو هذا الختام، فقد قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾(٢).

فإن سألت لماذا رُزق هذا بالبنين، ورُزق هذا بالبنات ؟

فجوابك: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى: بمن خلقه، إذ رزقهم وأعطاهم(٣).

• الدروس المستفادة من الآية:

(١) أن الله سبحانه وتعالى يجتبى من يشاء من عباده ويصطفى، وهذا الاصطفاء من الله عز وجل نعمة..، فأنت مثلاً تأمَّل كيف أن الله سبحانه وتعالى اصطفاك فلم يجعلك جمادًا بل جعلك إنسانًا، تأمَّل كيف اصطفاك الله فلم يجعلك كافرًا بل جعلك مسلمًا، تأمَّل أن الله عز وجل لم يجعلك من أهل الكبائر الفسقة المجرمين أو من أهل البدعة بل جعلك من أهل السنة.

(٢) يُطلق آل الرجل على أهل بيته وأقاربه الذين يضافون إلى اسمه، ويطلق على جميع أتباع الرجل.

قال العلمى: ﴿آلِ يَعْقُوبَ﴾: يراد بهم أسباطه، والسبط: ولد الولد،

---

(١) سورة الأنعام: الآية: (١٢٤).

(٢) سورة الشورى: الآيتان: (٤٩، ٥٠).

(٣) التسهيل (ص: ٥٠).

والفريق من اليهود، ويقال للعرب: قبائل، ولليهود: أسباط.

(٣) التربية فى الصغر لها فوائدها فى الكبر.

قال أحمد نوفل: «وتأمل كيف لطف الله: أن هذا الفتى ما غادر حجر النبى الكريم يعقوب إلى بلاد الشرك إلا بعد أن تشرب عقيدة التوحيد، وهذا بحد ذاته أعظم اللطف إذ لو كان إلقاؤه فى الجب فى سن مبكرة وهجرته إلى بيئة الجاهلية قبل تفتح التمييز والإدراك، لكان محتاجًا إلى المربى وأين يجده؟»[(١)].

﴿آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾[(٢)]، أى: لقد كان فى خبر يوسف وإخوته الأحد عشر عبرٌ وعظات للسائلين عن أخبارهم.

* **قال القاسمى:**

لقد كان فى قصتهم وحديثهم دلائل على قدرته-تعالى- وحكمته فى كل شيء، وآيات معظمات لمن يسأل عن قصتهم ويعرفها تدلهم:

أولاً: على أن الاصطفاء المحض أمر مخصوص بمشيئة الله-تعالى- لا يتعلق بسعى ساعٍ، ولا إرادة مريد، فيعلمون مراتب الاستعدادات فى الأزل.

وثانيًا: على أن من أراد الله به خيرًا لم يكن لأحد دفعه، ومن عصمه الله لم يكن لأحد رميه بسوء، ولا قصده بشر، فيقوى يقينهم وتوكلهم.

وثالثًا: على أن كيد الشيطان وإغوائه أمر لا يأمن منه أحد حتى الأنبياء، فيكونون منه على حذر.

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية (ص: ١٠٩، ١١٠).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٧).

وأقوى من ذلك كله: أنها تطلعهم طريق الفهم الذى هو الانتقال الذهنى على أحوالهم فى البداية والنهاية، وما بينهما وكيفية سلوكهم إلى الله، فتثير شوقهم وإرادتهم، وتشحذ بصيرتهم، وتقوى عزيمتهم[١].

* **وقال الطاهر بن عاشور:**

ففى قصة يوسف - عليه السلام - دلائل على ما للصبر وحسن الطوية من عواقب الخير والنصر، أو على ما للحسد والإضرار بالناس من الخيبة والانحدار والهبوط.

وفيها من الدلائل على صدق النبى ﷺ وأن القرآن وحىٌ من الله.

إذ جاء فى هذه السورة ما لا يعلمه إلا أحبار أهل الكتاب دون قراءة، ولا كتاب وذلك من المعجزات[٢].

* * *

س: هل إخوة يوسف كانوا أنبياء؟

ج: ذهب بعض أهل العلم إلى أنهم أنبياء مستدلين بقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾[٣].

فقالوا إن أبناء يعقوب هم الأسباط، فلما ذكر الله أنه أوحى إليهم دلَّ ذلك على نبوتهم.

بينما ذهب آخرون من العلماء إلى أنهم ليسوا بأنبياء.

فقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - :

واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أُوحى إليهم بعد ذلك، وفى

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٣٥١٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢١٨).

(٣) سورة البقرة: الآية: (١٣٦).

هذا نظر، ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل، ... ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾(١)، وهذا فيه احتمال، لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب قبائل، وللعجم شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل، فذكرهم إجمالاً، لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم، والله أعلم.

وقال القرطبى -رحمه الله-:

وفى هذا ما يدل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أولاً ولا آخرًا، لأن الأنبياء لا يدبرون فى قتل مسلم، بل كانوا مسلمين، فارتكبوا معصية ثم تابوا. وقيل: كانوا أنبياء، ولا يستحيل فى العقل زلة نبى، فكانت هذه زلة منهم، وهذا يرده أن الأنبياء معصومون من الكبائر على ما قدمناه.

وقيل: ما كانوا فى ذلك الوقت أنبياء ثم نبأهم الله، وهذا أشبه، والله أعلم.

ها هى المحنة الأولى

* ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾(٢) هذه هى المحنة الأولى ليوسف - عليه السلام - أى حين قالوا: والله ليوسف وأخوه «بنيامين» أحب منا عند أبينا... أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه، وإنما قالوا﴿وَأَخُوهُ﴾ وهم جميعًا أخوة لأن أمهما كانت واحدة ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أى: والحال أننا نحن جماعة ذوو عدد، نقدر على النفع والضر،

(١) سورة البقرة: الآية: (١٣٦).
(٢) سورة يوسف: الآية: (٨).

بخلاف الصغيرين ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: إنه فى خطأ وخروج عن الصواب بيِّن واضح، لإيثاره يوسف وأخاه علينا بالمحبة... قال القرطبى: لم يريدوا ضلال الدين إذ لو أرادوه لكفروا، وإنما أرادوا أنه فى خطأ بيِّن فى إيثار اثنين على عشرة [1].

* * *

س: ما موقع اللام فى قولهم: ﴿لَيُوسُفُ﴾ ؟

ج: قال القرطبى-رحمه الله-:

إن اللام هنا للتأكيد، وهى التى يتلقى بها القسم، فالمعنى: والله ليوسف.

* * *

س: من أخو يوسف ؟

ج: لم يرد اسمه فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ﷺ فيما اطلعت عليه ولكن ذهب جمهور المفسرين إلى أنه «بنيامين».

* * *

س: هل يلام الشخص على محبته لبعض أبنائه دون بعض أو بعض الناس دون بعض ؟

ج: لا يُلام الشخص على ذلك، إذ المحبة من الله سبحانه وتعالى، فهو الذى يلقيها فى قلوب العباد.

أخرج البخارى من حديث أبى هريرة رضي الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: **«إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادى جبريل فى أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول فى الأرض»** [2].

(١) القرطبى (٩/ ١٣١).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٢٠٩) كتاب بدء الخلق.

هذا، وقد قال الله تبارك وتعالى لنبيه موسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (١).

وقال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في شأن أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها: «إني قد رُزقت حبها» (٢).

وفي الصحيحين من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه على جيش ذات السلاسل قال: فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك ؟

قال: «عائشة»، فقلت من الرجال؟ قال: «أبوها». قلت: ثمَّ من؟ قال: «عمر بن الخطاب» فعدَّ رجالاً (٣).

* وليحرص الوالدان على العدل بين أولادهما.. ولا بأس أن يحب الرجل بعض أولاده أكثر من بعض ما لم يصاحب ذلك أي ظلم أو جور.

فلقد كان يعقوب يحب يوسف - عليهما السلام- أكثر من بقية إخوته وذلك لأن المحبة محلها القلب.. والقلب لا يملك زمامه إلاَّ الله-عز وجل- فلا عجب أن يحب الوالد ولده الصالح الذي يحفظ القرآن ويصلي ويصوم ويطيع والديه أكثر من حبه لولده الذي يترك الصلاة ويشرب الدخان.. ولكن على الوالد أن لا يبالغ في إظهار هذه المحبة ومتبوعاتها إلا لعلة من العلل، كأن يقول لأبنائه فلان أحسن منكم لكونه يصلي ويصوم، فحينئذ قد يحملهم هذا القول وهذا الثناء على الصلاة والصيام.

وكذلك ليحرص الوالد على ألا يحمله حبه لولد من أولاده على أن يعطيه ويحرم إخوانه فهذا من الظلم الذي نهى الله عنه.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: أعطاني أبي عطية فقالت عمرة بنت

---

(١) سورة طه: الآية: (٣٩)..

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٤٣٥) كتاب فضائل الصحابة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٦٢) كتاب المناقب، ومسلم (٢٣٨٤) كتاب فضائل الصحابة.

رواحة: لا أرضى حتى تُشهد رسول الله ﷺ فأتى رسول الله ﷺ فقال: إنى أعطيت ابنى من عمرة بنت رواحة عطية فأمرتنى أن أشهدك يا رسول الله قال: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟» قال: لا، قال: «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم» قال: فرجع فرد عطيته.

وفى رواية لمسلم: «فلا تُشهدنى إذًا فإنى لا أشهد على جَور»(١).

وأخيرًا: احذر أيها الوالد الكريم أن تفرق فى المعاملة بين الذكر والأنثى فقد قال ﷺ كما فى الصحيحين: «اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم».

* * *

س: هل يحسد المؤمن؟

ج: نعم قد يحسد المؤمن، فها هم إخوة يوسف ﴿قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾(٢) فحسدوا يوسف وأخاه على محبة أبيهما لهما. وأُلفت النظر هنا إلى هذا الكلام الطيب النافع الذى ذكره القاسمى فى «محاسن التأويل» لعل متعظًا أن يتعظ ومعتبرًا أن يعتبر وحاسدًا أن يقلع عن حسده، ونفسًا أمارة بالسوء تتحول إلى نفس لوامة، بل إلى نفس مطمئنة راضية بقضاء الله وقانعة بعطاء الله.

قال القاسمى -رحمه الله-:

ثم تأمل فى قصة الإخوة وحديث القميص والجب والذئب والدم، لتعلم ما نشاهده كل يوم من معاداة الأقران لمن ظهرت مبادئ الجمال النفسى، والخلق المرضى، والجلال الظاهر على ملامحه، فيعيبونه بما يشينه فى نفسه أو عِرضه أو خُلقه، دلالة على أن هذه سنة فى الكون لا تغادر نبيًا ولا حكيمًا ولا عالمًا مهما حسنت أخلاقه، وجمل ظاهره وباطنه... !

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥٨٧) كتاب الهبة، ومسلم (١٦٢٣) كتاب الهبات.

(٢) سورة يوسف: الآية: (٨).

كل العـداوات قـد تُرجى إزالتـها

إلا عـداوة من عـاداك مـن حسـد

جرت تلك السنة فى الأناسي: فإذا صبر الصالح فاز بالولاية عليهم، وأحبوه بعد العداوة ولو بعد حين، وعادوا من آذاه، ثم انظر فى حديث قصة امرأة العزيز، وكيف عفَّ مع الشباب؟! وكيف ساس نفسه وصدق ظن مولاه فى الأمانة، وأرضى إلهه، واتسم بالفضيلة، فتوازى جماله الباطنى والظاهرى..!

* * *

س: ما مرادهم بالضلال حين قالوا: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ؟

ج: قال الشنقيطى -رحمه الله-:

الظاهر أن مراد أولاد يعقوب بهذا الضلال الذى وصفوا به أباهم -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- فى هذه الآية إنما هو الذهاب عن علم حقيقة الأمر كما ينبغى.

ويدل على هذا ورود الضلال بهذا المعنى فى القرآن وفى كلام العرب.

فمنه فى هذا المعنى قوله - تعالى - عنهم مخاطبين أباهم: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾(١).

وقوله تعالى فى نبينا محمد ﷺ: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾(٢)، أى: لست عالمًا بهذه العلوم التى لا تُعرف إلا بالوحى، فهداك إليها وعلمكها بما أوحى إليك من هذا القرآن.

وليس مراد أولاد يعقوب: الضلال فى الدين إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفارًا، وإنما مرادهم: أن أباهم -فى زعمهم- فى ذهاب عن إدراك الحقيقة،

(١) سورة يوسف: الآية: (٩٥).

(٢) سورة الضحى: الآية: (٧).

وإنزال الأمر منزلته اللائقة به حيث آثر اثنين على عشرة، مع أن العشرة أكثر نفعًا له، وأقدر على القيام بشؤونه وتدبير أموره.

*** واعلم أن الضلال أُطلق في القرآن إطلاقين آخرين:**

أحدهما: الضلال في الدين، أي: الذهاب عن طريق الحق الذي جاء به الرسل - صلوات الله عليهم وسلامه -، وهذا أشهر معانيه في القرآن.

ومنه بهذا المعنى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[1].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾[2].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾[3].

الثاني: إطلاق الضلال بمعنى الهلاك والغيبة من قول العرب: ضل السمن في الطعام، إذا غاب فيه، وهلك فيه، ولذلك تسمى العرب الدفن: إضلالاً، لأنه تغييب في الأرض يؤول إلى استهلاك عظام الميت فيها، لأنها تصير رميمًا، وتمتزج بالأرض.

ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾[4]، ومن إطلاق الضلال على الغيبة قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[5] أي: غاب واضمحل[6].

• الدروس المستفادة من الآية:

(١) أن الحسد سببٌ لكثير من البلايا والحوادث.

نعم، الحسد سببٌ لكل ذلك بل لأشد من ذلك، فالحسد سبب في الكفر، وما امتنع إبليس من السجود لآدم إذ أمره الله بذلك إلا حسدًا منه له.

(١) سورة الفاتحة: الآية: (٧).
(٢) سورة الصافات: الآية: (٧١).
(٣) سورة يس: الآية: (٦٢).
(٤) سورة السجدة: الآية: (١٠).
(٥) سورة القصص: الآية: (٧٥).
(٦) أضواء البيان (٣/ ٥٢-٥٤).

وكان من أسباب امتناع القرشيين من الإيمان والتصديق برسول الله ﷺ ما ذكره الله فى كتابه إذ قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[١].

وقال الله تبارك وتعالى عن اليهود والنصارى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[٢].

وصدر من عبد الله بن أُبى بن سلول الذى صدر بسبب حسده رسول الله ﷺ، . . . والحسد سبب للقتل كذلك، فالذى حمل ابن آدم الأول على قتل أخيه حسده له، إذ قربا قربانًا فتُقبِّل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال: لأقتلنك.

وها هم إخوة يوسف عليه السلام، حملهم حسدهم له على تقطيع الأرحام وعقوق الوالدين والكذب والافتراء، بل وحملهم على التفكير الجاد فى قتله والتخلص منه.

فجدير بكل شخص مسلم تسرب إليه هذا الداء العضال أن يبادر بالتخلص منه ولا يترك نفسه يحسد من يشاء وكيف يشاء[٣].

(٢) أن الحسود لا يسود.

قال القشيرى: لما حسدوا يوسف على تقديم أبيهم له، لم يرض سبحانه حتى أقامهم بين يدى يوسف -عليه السلام- وخروا له سجدًا، ليعلموا أن الحسود لا يسود.

ويقال: أطول الناس حزنًا من لاقى الناس عن مرارة، وأراد تأخير من قدمه الله أو تقديم من أخره الله، فإخوة يوسف أرادوا أن يجعلوه فى أسفل الجب فرفعه الله فوق سرير الملك[٤].

---

(١) سورة الزخرف: الآية: (٣١).

(٢) سورة البقرة: الآية: (١٠٩).

(٣) التسهيل(ص: ٦٥).

(٤) لطائف الإشارات (٣/ ١٧٠).

(٣) إن العدل مطلوب فى كل الأمور لا فى معاملة السلطان رعيته فقط[١].

قال محمد رشيد رضا:

«ومن وجوب عناية الوالدين بمداراة الأولاد وتربيتهم على المحبة والعدل بينهم، ومنه اجتناب تفضيل بعضهم على بعض مما يعده المفضول إهانة له ومحاباةً لأخيه فى الهوى، وقد نهى عنه النبى ﷺ مطلقًا[٢].

(٤) إن الميل القلبى أمر خارج عن نطاق تصرف الإنسان إذ لا يستطيع إنسان أن يتحكم فى الميل القلبى الذى يشعر به تجاه الآخرين»[٣].

قال ابن عطية:

وكان حب يعقوب ليوسف - عليه السلام - وبنيامين لصغرهما وموت أمهما، وهذا من حب الصغير هى فطرة البشر، وقد قيل لابنة الحسن: أى بنيك أحب إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يبرأ [٤].

(٥) من وجد من حبيبه نفرة أو جفوة عليه أن يتهم نفسه لا غيره.

القلوب المحبة تربطها وشائج المودة، فإذا تنافرت فبذنب يُحدثه أحدهما، لقوله ﷺ: **«ما تواد اثنان فى الله، فيفرق بينهما إلا بذنب يُحدثه أحدهما»**[٥].

ولذلك إذا وجد المرء من أخيه جفوة ونفرة، فليتهم نفسه قبل حبيبه، هذا هو الإنصاف، فأما إخوة يوسف، فاتهموا أباهم ولم يتهموا أنفسهم،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٣٦٣).

(٢) تفسير القرآن الحكيم (١٢/ ٢٦١).

(٣) دروس مستفادة من سورة يوسف (ص ١٤).

(٤) المحرر الوجيز (٣/ ٢٢١).

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٦٨)، قال الهيثمى (٨/ ١٨٤) : إسناده حسن، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (٦٣٧).

وافترضوا فى أبيهم أن يكون ساعيًا لرضاهم، والعكس هو الحق فى حق الوالدين أن يسعى الأبناء لنيل رضاهم والحصول على محبتهم.

(٦) أغلب الناس يسيطر عليهم الوهم:

قال ابن عاشور: «ودعواهم أن يوسف - عليه السلام- وأخاه أحب إلى يعقوب - عليه السلام - يجوز أن تكون دعوى باطلة أثار اعتقادهم فى نفوسهم شدة الغيرة من أفضلية يوسف - عليه السلام- وأخيه عليهم فى الكمالات وربما سمعوا ثناء أبيهم على يوسف-عليه السلام- وأخيه فى أعمال تصدر منهما أو شاهدوه يأخذ بإشارتهما أو رأوا منه شفقة عليهما لصغرهما ووفاة أمهما، فتوهموا من ذلك أنه أشد حبًا إياهما منهم توهمًا باطلاً»(١).

وقال أحمد نوفل: «والغريب أن الإخوة العشرة يجتمعون على قضية لا يليق بمثلهم سنًا وتربيةً أن يجتمعوا عليها:

وتأمل رجالاً أشداء أبناء نبى بل أنبياء يعقوب وإسحاق يعقدون مؤتمرًا غاضبًا صاخبًا لأجل حب أبيهم لأخيهم الصغير.

وتأمل كيف جرأ هذا المقترح على افتتاح هذا المؤتمر الحاقد لولا أنه رأى من نفوس إخوانه ومن تصريحاتهم وتلميحاتهم ما شجعه على أن تولى كبر هذه المسألة غير هياب ولا وجل أن ينقلها أحد من إخوته لأبيه لأنه رأى منهم جميعًا ما رأى من نفسه غضبًا وحنقًا وحقدًا»(٢).

(٧) التعصب يولد الشر والتآمر والكيد.

أُطلق على إخوة يوسف«عصبة» لأنهم كادوا يوسف وأخاه.

وكلمة «عصبة» وردت فى القرآن على سبيل الذم وفى معنى الشر.

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٢١).

(٢) سورة يوسف دراسة تحليلية (ص ٢٩١).

موضعان في سورة يوسف، وثالث في النور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ﴾(١) ورابع في القصص: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾(٢).

وهكذا ما دخل التعصب على قوم إلا تولدت الشرور والفتن فيهم، كالتعصب المذهبي والتعصب الحزبي، والعصبية القبلية أو العرقية أو الإقليمية(٣).

وها هم يدبرون المؤامرة لقتله

ثم يغلي الحقد ويدخل الشيطان، فيختل تقديرهم للوقائع، وتتضخم في حسهم أشياء صغيرة، وتهون أحداث ضخام، تهون الفعلة الشنعاء المتمثلة في إزهاق روح، روح غلام بريء لا يملك دفعًا عن نفسه، وهو لهم أخ. وهم أبناء نبي-وإن لم يكونوا هم أنبياء-... يهون هذا، وتتضخم في أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحب، حتى توازي القتل، أكبر جرائم الأرض قاطبةً بعد الشرك بالله: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾(٤)..

وهما قريب من قريب. فطرحه في أرض نائية مقطوعة مُفضٍ في الغالب إلى الموت.. ولماذا؟

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ فلا يحجبه يوسف. وهم يريدون قلبه كأنه حين لا يراه في وجهه يصبح قلبه خاليًا من حبه، ويتوجه بهذا الحب إلى الآخرين!

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: اقتلوا يوسف أو ألقوه في أرض

---

(١) سورة النور: الآية: (١١).

(٢) سورة القصص: الآية: (٧٦).

(٣) إتحاف الإلف بذكر الفوائد الألف والنيف/ للشيخ أبو أنس محمد بن موسى نصر، والشيخ أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي (١/١٠٩-١١٥) بتصرف شديد.

(٤) سورة يوسف: الآية: (٩).

بعيدة مجهولة ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾(١) أى: فعند ذلك يخلص ويصفو لكم حب أبيكم، فيُقبل عليكم، . . . قال الرازى: المعنى: أن يوسف شغله عنا وصرف وجهه إليه فإذا فقده أقبل علينا بالمحبة والميل(٢).

والجريمة؟ . . . الجريمة تتوبون عنها وتصلحون ما أفسدتم بارتكابها:- قال ابن كثير: أضمروا التوبة قبل الذنب-.

﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾(٣)! . .

هكذا ينزغ الشيطان، وهكذا يسول للنفوس عندما تغضب وتفقد زمامها، وتفقد صحة تقديرها للأشياء والأحداث. وهكذا لما غلا فى صدورهم الحقد برز الشيطان ليقول لهم: اقتلوا. . والتوبة بعد ذلك تُصلح ما فات! وليست التوبة هكذا. إنما تكون التوبة من الخطيئة التى يندفع إليها المرء غافلاً جاهلاً غير ذاكر، حتى إذا تذكر ندم، وجاشت نفسه بالتوبة، أما التوبة الجاهزة! التوبة التى تعد سلفًا قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة فليست بالتوبة، إنما هى تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان(٤).

جريمة... هدفها نبيل!!! . .

هذه جريمة طريفة فى هدفها وغايتها، ولو جاز التعبير لقلنا: إنها جريمة نبيلة الهدف، على الأقل فى نظر من يرتكبها، ولسنا نقول بأن هناك جريمة نبيلة الهدف، فالغاية النبيلة يجب أن تكون وسيلتها فى مثل نبلها، فلا يسرق الإنسان ليحج أو ليتصدق مثلاً.

وهذا يجعلنا ننتبه إلى المنطق الذى يسيِّر تفكيرنا، فقد يكون خاطئًا مقلوبًا ولكننا نحن لطول تعودنا عليه نعتبره سليمًا معتدلاً. فلينتبه كلٌ منا لنفسه

---

(١)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٩).

(٢) الرازى (١٨/ ٩٤).

(٤) الظلال (٤/ ١٩٧٣).

ولمنطقه ولفكره وما يجول في داخله، ولا يعيش الإنسان جاهلاً بنفسه.

فالهدف الذى زعموه: أنهم يريدون أن يزيحوا العقبة التى تقف أمام برهم لأبيهم وحبه لهم وحبهم له، والعقبة التى تحول دون صلاحهم. . .إنه منطق مخرّق أخرق، أن نرتكب جريمة لوجه الله أو فى سبيل الله أو ليكون فاعلها صالحًا مرضيًا من الله[1].

* * *

س: هل الغاية تبرر الوسيلة ؟ دلل على ما تقول.

ج: الغاية لا تبرر الوسيلة فى كل الأحوال، بل الأصل أن الغايات لا تبرر الوسائل فإخوة يوسف عليه السلام أرادوا الصلاح، إذ قالوا: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[2] ولكنهم سلكوا سبيلاً مذمومًا وأرادوا أمرًا كبيرًا محرمًا، إذ قالوا: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾[3] فأرادوا إقبال أبيهم عليهم وأرادوا الصلاح فهذه غايتهم، ولكن وسيلتهم إلى ذلك قتل أخيهم أو طرحه أرضًا، وقد اعترفوا بخطئهم إذ قالوا فيما بعد: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾[4].

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾[5].

فالغاية هنا لم تبرر الوسيلة، بل لزامًا أن تكون الغاية صالحة والوسيلة صحيحة كذلك.

فلا تسرق وتتصدق بمال مسروق، ولا تُرابِ وتتصدق بمال الربا.

ولا تأكل أموال اليتامى ظلمًا وتتصدق بهذه الأموال، وأيضًا فكما قال الشاعر:

---

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية (ص: ٢٩٧، ٢٩٨) / أحمد نوفل.

(٢)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٩).

(٤) سورة يوسف: الآية: (٩١).

(٥) سورة يوسف: الآية: (٩٨).

أَمُنفقة اليتامى من كدٍّ فرجها

لك الويل لا تزنى ولا تتصدقى

وهناك بعض المواطن التى قد تبرر فيها بعض الغايات بعض الوسائل.

كالكذب للإصلاح، وإباحة الميتة والدم والخنزير عند الاضطرار، وكالتلفظ بكلمة الكفر عند الإكراه، واختيار أخف الأضرار عند تزاحم المفاسد، ونحو ذلك والله أعلم(١).

* * *

س: ما المراد بقولهم: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾؟

ج: قال السعدى- رحمه الله تعالى - فى «تيسير الكريم الرحمن»:

﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أى: من بعد هذا الصنيع ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ أى: تتوبون إلى الله، وتستغفرون من بعد ذنبكم،

فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهيلاً لفعله، وإزالة لشناعته، وتنشيطًا من بعضهم لبعض. اهـ.

هذا وثَم وجه آخر غير الذى ذكره السعدى رحمه الله، حاصله ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أى: من بعد زوال يوسف وذهابه وابتعاده عنكم ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ لتفرغكم للعبادة والتوبة وإقبال أبيكم عليكم بوجهه، والله أعلم(٢).

• الدروس المستفادة من الآية:

(١) التنافس على الظهور يؤدى إلى إضمار الشر والتخلص من الأقران.

قال ابن كثير: هذا الذى يزاحمكم فى محبة أبيكم لكم، اعدموه من وجه أبيكم؛ ليخلوا لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو تلقوه فى أرض من الأراضى تستريحوا منه، وتخلوا أنتم بأبيكم(٣).

---

(١) التسهيل (ص: ٦٦، ٦٧).

(٢) التسهيل (ص: ٦٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٧٠).

(٢) تبييت التوبة قبل الذنب ليس مسوغًا لارتكاب الجريمة.

الأصل فى التوبة أن تقع بعد الذنب الذى يقع غفلة أو جهلاً أو ضعفًا من العبد، أما التوبة التى تُعد سلفًا، فهى نوع من المكر والكيد والاحتيال الذى يزينه الشيطان لينزغ بين الجانى والمجنى عليه.

وفيها عدة مفاسد:

الأولى: أن فيها تسويفًا بالتوبة، وما يدريه أنه يُمكَّن منها بعد وقوع الذنب.

الثانية: أنها دافع للشر وتسويغه.

الثالثة: أن فيها استصغارًا للمعصية واستخفافًا بفعلها.

(٣) إن توبة القاتل مقبولة.

قال القرطبى:

«وفى هذا دليل على أن توبة القاتل مقبولة، لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم»(١).

(٤) ارتكاب أخف الضررين قاعدة شرعية عمل بها الأولون.

قال السعدى:

«إن بعض الشر أهون من بعض، فارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمها» (٢).

(٥) ينبغى الحذر من شؤم الذنوب وأن الذنب يولد ذنوبًا متعددة.

قال السعدى:

«الحذر من شؤم الذنوب، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبًا متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعد جرائم، فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم فى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٣١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٦٤).

القميص والدم الذى فيه، وفى إتيانهم عشاء يكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها فى تلك المدة، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث، حصل من الإخبار بالكذب، والافتراء، ما حصل، وهذا شؤم الذنب، وآثاره التابعة واللاحقة»[1][2].

﴿لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾[3][4] أى أحدهم: ﴿لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ أى: لا يؤدى بكم بُغضه إلى قتله،... ولم يكن لهم سبيل إلى قتله لأن الله تعالى مقدر له أن يكون نبيًّا، وأن يكون له التمكين ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عن قتله بمقالة أحد إخوته بأن يلقوه فى غيابة الجب أى أسفله.

﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أى: المارة من المسافرين، فتستريحوا منه ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أى: إن كنتم عازمين على ذلك. قال محمد بن إسحاق: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالدين وقلة الرأفة بالصغير دونما ذنب فقد احتملوا أمرًا عظيمًا... غفر الله لهم[5].

● **الدروس المستفادة من الآية:**

(١) **بعض الشر أهون من بعض.**

قال السعدى: بعض الشر أهون من بعض، فحين اتفقوا على التفريق بين يوسف وأبيه، ورأى أكثرهم أن القتل يحصل به الإبعاد الأبدى: ﴿قَالَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٦٣).

(٢) نقلاً من (إتحاف الإلف) (١/ ١١٨-١٢٤) بتصرف شديد.

(٣) سورة يوسف: الآية: (١٠).

(٤) قال مجاهد: وهو شمعون، وقال السدى: هو يهوذا، وقال قتادة ومحمد بن إسحاق: هو أكبرهم روبيل.

(٥) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٣).

قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾[١].

فخفف به الشر عنهم، ولهذا لما وردت السيارة الماء، وأدلى واردهم دلوه تبشّر بوجوده، وقال: ﴿هَذَا غُلامٌ﴾.

وكان إخوته حوله، فقالوا: إنه غلام أبَق منا، - أى هرب منا - وتبايعوا معهم: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[٢].

وإنما قصدهم إبعاده والتأكيد على مشتريه منهم، صورة أن يحتفظ به لئلا يهرب.

ومن لطف الله أن الذى أخذه باعه فى مصر على عزيزها، فحين رآه رغب فيه جداً، وأحبه، وقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[٣].

فبقى مكرمًا عندهم معفى عن الأشغال الشاقة وغيرها متجردًا للخير.

وهذا من اللطف بيوسف، ولهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾[٤].

فكان تفرغه عند العزيز من أسباب تعلمه للعلوم النافعة، ليكون أساسًا لما بعده من الرفعة فى الدنيا والآخرة كما أن رؤياه مقدمة اللطف، وكما أن الله أوحى إليه حين ألقاه إخوته فى الجب: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[٥] وهذه بشارة له بالنجاة مما هو فيه، وأنه سيصل إلى أن ينبئهم بأمرهم وهم لا يشعرون، وقد وقع ذلك فى قوله: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾[٦][٧].

---

(١) سورة يوسف: الآية: (١٠).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٢٠).

(٣)، (٤) سورة يوسف: الآية: (٢١).

(٥) سورة يوسف: الآية: (١٥).

(٦) سورة يوسف: الآية: (٨٩).

(٧) فوائد مستنبطة من قصة يوسف - عليه السلام- (ص: ٣٣، ٣٤).

(٢)والقتل كبيرة عظيمة لا تطاق.

قال أبو بكر الجزائرى:«لا تقتلوا يوسف؛ لأن القتل جريمة لا تطاق ولا ينبغى ارتكابها بحال» (١).

قال السعدى-رحمه الله-:«فإن القتل أعظم إثمًا وأشنع، والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبعيده بأن تلقوه ﴿فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ (٢)وتتوعدوه على أنه لا يخبر بشأنكم، بل على أنه عبد مملوك آبق منكم، لأجل أن ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ (٣)الذين يريدون مكانًا بعيدًا، فيحتفوا به» (٤).

(٣) الشر والانتقام لا يكون إلا فى لحظات الغفلة والغضب وشدة الانفعال.

ولذلك أوصى رسول الله ﷺ بعدم الغضب، ومدح الحلم والأناة، وأخبر أن التؤدة من الرحمن والعجلة من الشيطان.

وهذا ما يظهر جليًّا فى هذه الآيات، فعندما كان إخوة يوسف فى شدة من الغضب والحنق والحقد، فكروا بأسوأ جريمة وهى القتل، فلما بدأ يذهب عنهم ذلك شيئًا فشيئًا قلَّ الشر حتى أجمعوا على إلقائه فى البئر، وهذا لا شك أنه أهون من القتل.

(٤) استحباب التستر على المسىء رجاء توبته.

قال الألوسى:

وإنما لم يُذكر أحد منهم باسمه سترًا على المسىء، وكل منهم لم يخل من الإساءة، وإن تفاوتت مراتبها.

قلنا: ولذلك كان رسول الله ﷺ فى حال النصح والإنكار يعمم القول فيقول: **«ما بال أقوام...»**.

---

(١) أيسر التفاسير (٢/ ٥٩٦).

(٢)، (٣) سورة يوسف: الآية: (١٠).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٥٠).

(٥) الطرق المهيأة للسفر ينبغي أن يقام عليها مستلزمات الحياة والاستمرار.

وصف الجب بأنه يغشاه السيارة والمسافرون يدل على أن الطرق المهيأة للسفر كان يقام عليها مستلزماته ليستطيع المسافر البقاء والاستمرار.

وهذا ما نراه مستمرًا ومتطورًا في زمان الناس، كمحطات الوقود، والهواتف، والاستراحات، وأماكن إصلاح وسائل السفر[١].

(٦) مشروعية التقاط اللقطة والإذن فيها.

قال أبو بكر الجزائري: في الآية دليل على مشروعية التقاط اللقطة، وقد أذن فيها رسول الله ﷺ ولم يأذن في ضالة الإبل إذ قال في اللقطة: **«اعرف عفاصها، ووعاءها ووكاءها، ثم عرفها سنة، فإن جاء صاحبها، وإلا فشأنك بها»**.

وقال في ضالة الغنم: **«هي لك أو لأخيك أو للذئب»**.

وقال في الإبل: **«مالك ولها، ومعها سقاؤها وحذاؤها، ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها»**[٢][٣].

* * *

(١) إتحاف الإلف (١/ ١٣٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٩١) كتاب العلم، ومسلم (١٧٢٢) كتاب اللقطة.

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٥٩٦).

مبحث مختصر
فى أحكام اللقطة

س: إذا وجد شخص لقطة هل الأولى أن يأخذها أم يتركها؟

ج: للشخص أن يلتقط اللقطة إذا وجدها ثم يُعرِّفها إذا كانت تحتاج إلى تعريف-أى: إذا كانت لقطة لها شأن فيسير اللقطة معفوٌ عنه.

ولكن هل الأولى أن يلتقط اللقطة أم أن يتركها أفضل؟

فهذا يختلف باختلاف نوع اللقطة ومكان العثور عليها وكذلك الشخص الملتقط، فإذا كانت اللقطة ستتلف إذا تُركت فى مكانها، أو ستقع فى يد شخص غير أمين، فالتقاطها-حينئذ ثم تعريفها أولى، ومن ثم قال النبى ﷺ فى ضالة الغنم: «هى لك أو لأخيك أو للذئب»[1].

أما إذا كانت اللقطة لن تتلف، وهى أيضًا فى مكان أمين ويغلب على الظن أن صاحبها سيأتى لأخذها فتركها فى هذه الحال أفضل.

وقد قال النبى ﷺ فى ضالَّة الإبل: «ما لك ولها؟ معها حذاؤها وسقاؤها حتى يأتيها ربها».

هذا، ومما يدل على جواز الالتقاط فى الجملة ما يلى:

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٢٧) كتاب المساقاة، ومسلم (١٧٢٢) كتاب اللقطة من حديث زيد بن خالد رضي الله عنه قال: جاء أعرابىٌ النبى ﷺ فسأله عما يلتقطه فقال: «اعرفها سنة ثم اعرف عفاصها ووكاءها، فإن جاء أحد يخبرك بها وإلا فاستنفقها» قال: يا رسول الله فَضالَّة الغنم؟ قال: «لك أو لأخيك أو للذئب» قال: ضالة الإبل؟ فتمعر وجه النبى ﷺ فقال: «ما لك ولها؟ معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء وتأكل الشجر».

والعفاص: هو الوعاء الذى تكون فيه النفقة جلدًا كان أو غيره.

والعفاص أيضًا الجلد الذى يكون على رأس القارورة، ذكر ذلك الحافظ ابن حجر فى «فتح البارى» (٥/٩٨).

والوكاء: الخيط الذى تشد به الصرة وغيرها، قاله الحافظ.

* ما ذكره أخو يوسف لإخوته إذ قال فى شأن يوسف - عليه السلام-: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[١].

* حديث زيد بن خالد رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عن اللقطة فقال: «اعرف عفاصها ووكاءها ثم عرفها سنة فإن جاء صاحبها وإلا فشأنك بها» قال فضالة الغنم؟ قال: «هى لك أو لأخيك أو للذئب...»[٢] الحديث.

* ما أخرجه البخارى ومسلم من طريق سويد بن غفلة قال لقيت أُبى بن كعب رضي الله عنه فقال: أصبت صرة فيها مائة دينار، فأتيت النبى ﷺ فقال: «عرفها حولاً» فعرفتها حولاً، فلم أجد من يعرفها، ثم أتيته فقال: «عرفها حولاً» فعرفتها فلم أجد، ثم أتيته ثلاثًا فقال: «احفظ وعاءها وعددها ووكاءها فإن جاء صاحبها وإلا فاستمتع بها» فاستمتعت. فلقيته بعد بمكة فقال: لا أدرى ثلاثة أحوال أو حولاً واحدًا[٣].

* وأيضًا فى الباب نصوصٌ عامة منها قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[٤].

أما فى باب التحذير من التقاطها وعدم تعريفها فقد ورد فيه ما أخرجه مسلم فى صحيحه: «من آوى ضالة فهو ضال ما لم يُعرِّفها»[٥].

ونصوص عامة أيضًا، منها: قوله عليه الصلاة والسلام: «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام»[٦].

* * *

(١) سورة يوسف: الآية: (١٠).

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٢٦) كتاب فى اللقطة، ومسلم (١٧٢٢) كتاب اللقطة.

(٤) سورة المائدة: الآية: (٢).

(٥) أخرجه مسلم (١٧٢٥) كتاب اللقطة.

(٦) متفق عليه: رواه البخارى (١٧٤١) كتاب العلم، ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة.

س: هل يسير اللقطة كعظيمها فى التعريف ؟

ج: يسير اللقطة ليس كعظيـمها فى التعريف، بل يسير اللقطة يُعفى عنه فمن وجد شيـئًا تافهًا فعرفه سخـر الناس منه وقد قال النبى ﷺ فى شأن تمرة وجدها: «لولا أنى أخاف أن تكون من تمر الصدقـة لأكلتها»[1]، فالشاهد أن الرسول ﷺ لم يُعرِّف هذه التمـرة ويقول: حق من هذه التمرة؟ والله أعلم؟

واستدل لذلك أيضًا بقـصة الرجل الذى وجد خشبة فى البـحر فأخذها لأهله حطبًا.

* * *

س: كيف يعرف الشخص أن هذه اللقطة يسيرة أو عظيمة ؟

ج: اللقطة يختلف الحكم عليها من ناحية يسرها أو قدرها بحسب المكان والزمان، فمن وجد عشرة جنيهات فى مدينة كـبيرة وسوق كبير فالغالب أن صاحب هـذا المبلغ لن يبحث عنه فى مـثل هذا الجمع الكـبير ومن ثـم فلا معنـى للتعـريف، أما من وجد ذلك فى قرية صغـيرة ومكان محصور وقوم فقراء، فالغالب أن صاحب هذا المبلغ سيبحث عنه، والله أعلم.

* * *

س: ما وجه الخلاف بين لقطة مكة ولقطة غيرها من البلاد ؟

ج: وجه ذلك أن لقطة مكة تحرم عـمومًا، لا تلتقط إلا للتـعريف فقط، ولا تتملك بعـد عام؛ أما سـائر أنواع اللقطة فتُـعـرَّف لمدة عـام، فإذا جـاء صاحبها وإلا تملكها الشخص.

هذا ومن العلمـاء من سوى بين لقطة الحـرم وغيـرها وقال هـى سواء، والأول أولى لتشديد النبى ﷺ فى لقطة الحرم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٣١) كتاب فى اللقطة، ومسلم (١٠٧١) كتاب اللقطة من حديث أنس رضي الله عنه قال: مرَّ النبى ﷺ بتمرة فى الطريق قال: «لولا أنى أخاف...» الحديث.

ففى حديث أبى هريرة رضي الله عنه فى الصحيحين.

لما فتح الله على رسوله ﷺ مكة، قام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، فإنها لا تحل لأحد كان قبلى، وإنها أُحلت لى ساعة من نهار، وإنها لا تحل لأحد من بعدى، فلا يُنفر صيدها، ولا يُختلى شوكها، ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد...»[1].

* * *

س: إذا لم يوجد صاحب اللقطة أو الضالة بعد سنة هل للملتقط أن يأخذها لنفسه؟

ج: نعم لمن التقطها أن يأخذها إذا عرفها لمدة سنة ولم يأت صاحبها، وذلك لما أخرجه البخارى ومسلم من حديث زيد بن خالد، وقد تقدم وفيه: «...ثم عرفها سنة فإن جاء صاحبها وإلا فشأنك بها» الحديث.

وإلى هذا ذهب البخارى حيث بوَّب بباب: إذا لم يوجد صاحب اللقطة بعد سنة فهى لمن وجدها.

* * *

س: إذا جاء صاحبها بعد سنة هل يعطاها أم لا؟

ج: ذهب جمهور العلماء إلى أنها تُرد إلى صاحبها إذا جاء ولو بعد عام، وأن ذلك واجبٌ إذا كانت العين موجودة.

أما إذا كانت استهلكت فيدفع بدلها لصاحبها أيضًا. نقل ذلك الحافظ ابن حجر عنهم.

وخالف البعض فيما إذا استهلكت وقالوا لا يضمن شيئًا، والله أعلم[2][3].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٣٤) كتاب فى اللقطة، ومسلم (١٣٥٥) كتاب الحج.

(٢) ولمزيد بحث انظر «فتح البارى» (٥/ ١٠٢- ١٠٩).

(٣) التسهيل لتأويل التنزيل (ص: ٦٨-٧٤) بتصرف.

مراودة ماكرة

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[١]المعنى: أى شىء حدث لك حتى لا تأمنا على أخينا يوسف، ونحن جميعًا أبناؤك؟ ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ أى: ونحن نشفق عليه ونريد له الخير... قال المفسرون: لما أحكموا العزم ذكروا هذا الكلام وأظهروا عند أبيهم أنهم فى غاية المحبة ليوسف وفى غاية الشفقة عليه، ليستنزلوه عن رأيه فى تخوفه منهم وكأنهم قالوا: لِمَ تخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به!! ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾أى: أرسله معنا غدًا إلى البادية، يتسع فى أكل ما لذَّ وطاب، ويلهو ويلعب بالاستباق وغيره ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أى: ونحن نحفظه من كل سوء ومكروه، أكدوا كلامهم بإن واللام وهم كاذبون ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أى: قال لهم يعقوب: إنه ليؤلمنى فراقه لقلة صبرى عنه ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ أى: وأخاف أن يفترسه الذئب فى حال غفلتكم عنه، وكأنه لقَّنهم الحجة، قال الزمخشرى: اعتذر إليهم بشيئين: أحدهما: أن ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة. والثانى: خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم[٢].

ولا بد أنهم وجدوا فيها عذرًا كانوا يبحثون عنه، أو كان الحقد الهائج أعماهم فلم يفكروا ماذا يقولون لأبيهم بعد فعلتهم المنكرة، حتى لقنهم أبوهم هذا الجواب!

واختاروا أسلوبًا من الأساليب المؤثرة لنفى هذا الخاطر عنه: ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾[٣] لئن غلبنا الذئب عليه ونحن جماعة قوية هكذا فلا خير فينا لأنفسنا وإننا لخاسرون كل شىء، فلا نصلح لشىء

---

(١) سورة يوسف: الآية: (١١).

(٢) الكشاف (٢/٤٤٨).

(٣) سورة يوسف: الآية: (١٤).

أبداً! وهكذا استسلم الوالد الحريص لهـذا التوكيد ولذلك الإحراج، ليتحقق قدر الله وتتم القصة كما تقتضي مشيته![1].

﴿ يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف ﴾

«وهكذا جاؤوا أباهم مصممين على أخذ يوسف، وسيحتالون لذلك بكل حيلة ويتذرعون بكل ذريعة. وهذا الذى جعلهم يقدمون الإغراءات؛ من زعم أنهم يريدون لأخيهم أن يتنزه وأنهم ناصحون فى الذى يقولون، وأنهم لأخيهم حافظون.

وقد بدأوا بداية غريبة فى الكلام، قد نستنتج منها السذاجة البالغة ويمكن استنتاج الذكاء الخبيث، أما السذاجة، فمن جهة أنهم بهذه الكلمة يطابقون قول القائل: يكاد المريب يقول خذونى، فهم يقدمون اتهام أنفسهم من غير أن يتهمهم أحد.

وأما الذكاء الخبيث، فلأنهم بدأوا بالهجوم إذ هو آخر وسيلة للدفاع، وحتى يضعوا أباهم فى موضع لا خيار له فيه، وإلا فإن عدم إرساله معهم يعنى - حسب رأيهم -: التمييز وتخوين الأبناء وانطواء صدر الوالد على أمور ليست صحيحة»[2].

* ﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾.

قال القاسمى: «أى: لِمَ تخافنا عليه، ونحن نريد له الخير، ونحبه، ونشفق عليه، أرادوا بذلك استنزاله عن عادته فى حفظه منهم، وفيه دليل على أنه أحسَّ منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه»[3].

---

(١) الظلال (٤/ ١٩٧٥).

(٢) سورة يوسف دراسة تحليلية (ص٣٠٦) / أحمد نوفل.

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٢٠٠)، وانظر زاد المعاد (٤/ ١٨٧).

• الدروس المستفادة من الآيات:

(١) لا تصدق الحسود في وعد أبدًا.

قال القشيري: «كلام الحسودِ لا يُسمع، ووعده لا يُقبل، وإن كانا في معرِضِ النُّصحِ؛ فإنَّهُ يُطعم الشَهْدَ ويَسْقِي الصَّابَ.

ويقال العَجَبُ من قبول يعقوب - عليه السلام - ما أبدى بنوه له من حفظ يوسف عليه السلام، وقد تفرَّسَ فيهم قلبه، فقال ليوسف: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

ويقال: من قبلَ على محبوبه حديثَ أعدائه لَقِيَ ما لَقِي يعقوبُ في يوسف - عليهما السلامُ - من بلائه»[١].

قال عز الدين بن عبد السلام:

خافهم عليه، فكنَّى عنهم بالذئب[٢].

لعل يعقوب لم يعن بالذئب سوى إضرار (شمعون) له[٣].

ولله در القائل:

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا

الذئب لا يأكل لحم أخيه ... ويأكل بعضنا بعضًا عيانًا

(٢) البلاء موكل بالمنطق:

قال الزمخشري: اعتذر إليهم بشيئين:

أحدهما: أن ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة.

---

(١) لطائف الإشارات (٣/ ١٧١).

(٢) تفسير القرآن (٢/ ١١١).

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٣٢٧).

والثاني: خوفه عليه من عدوه الذئب إذا أغفلوا عنه برعيهم ولعبهم، وأقل به اهتمامهم ولم تصدق بحفظه عنايتهم.

وقيل: رأى فى النوم أنَّ الذئب قد شدَّ على يوسف فكان يحذره، فمن ثَم قال ذلك فلقنهم العلة، وفى أمثالهم يقال: البلاء موكل بالمنطق[1].

(٣) لا تُلقن خصمك حجته:

قال السمرقندى: لا ينبغى أن يلقن الخصم بحجة، لأن إخوة يوسف كانوا لا يعلمون أن الذئب يأكل الناس، إلى أن قال ذلك يعقوب، وإنما قال ذلك يعقوب، لأنه رأى فى المنام أن ذئبًا كان يعدو على يوسف فأنجاه بنفسه[2].

قال ابن كثير: فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه[3].

(٤) قول الحق قد يراد به الباطل:

إن حكمهم على أنفسهم بالخسارة إن أكل الذئب أخاهم حق، ولكنهم قالوه استدراجًا لأبيهم، ليحققوا غرضهم الباطل.

وهكذا أهل الأهواء والبدع دائمًا يستدلون بعمومات الشرع وهى حق، وينزلونها على مقاصدهم الباطلة، كما فعل الخوارج عندما قالوا: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾[4]، فقال على رضي الله عنه: كلمة حق يراد بها باطل.

قال ابن عاشور: وفى هذا عبرة من مقدار إظهار الصلاح مع استبطان الضر والإهلاك[5].

(٥) جواز اللعب المباح الذى ليس فيه معصية:

المراد باللعب المباح لا المحظور، ولذلك لم ينكر يعقوب قولهم:

(١) الكشاف (٢/ ٢٤٥، ٢٤٤).

(٢) تفسير السمرقندى (٢/ ١٥٣).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٢).

(٤) سورة يوسف: الآية: (٤٠).

(٥) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٣٢).

﴿ويَلْعَبْ﴾، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «فهلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك»(١).

* قال ابن الجوزى:

فإن قيل: كيف لم ينكر عليهم يعقوب ذِكر اللعب؟

فالجواب: من وجهين:

أحدهما: أنهم لم يكونوا حينئذ أنبياء، قاله أبو عمرو بن العلاء.

والثانى: أنهم عَنَوْا مباح اللعب، قاله الماوردى(٢).

هذا وقد أخروا لفظ اللعب عن الرتع فى قولهم لأبيهم، لأن أحسن وقت للرياضة البدنية فى وقت الصباح بعد تناول لقيمات يسيرة، وفى المساء وقت البرد بعد أن يكون قد تناول طعام الغداء، وفى كلام الناس: تعشٍّ وتمشٍّ ولو خطوتين(٣).

* ومن المعلوم أن الماء الرقراق والهواء الطلق النقى والأماكن الفسيحة من الأجواء الصالحة لممارسة الرياضة... وأن الرحلات الترفيهية تفتح الشهية لأنها سبب فى الراحة النفسية.

* * *

س: اذكر بعض الأدلة على جواز لعب الصبيان؟

ج: ها هى بعض الأدلة التى تدل على جواز لعب الصبيان-فمن ذلك-:

* ما أخرجه البخارى ومسلم من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت كان الحبش يلعبون فسترنى رسول الله ﷺ وأنا أنظر، فما زلت أنظر حتى كنت أنا أنصرف فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو(٤).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٠٩) كتاب الوكالة، ومسلم (٧١٥) كتاب الرضاع.

(٢) زاد المسير (٤/١٨٦).

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/٣٢٢).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٥١٩٠) كتاب النكاح، ومسلم (٨٩٢) كتاب صلاة العيدين.

* وفى رواية بإسناد صحيح عند النسائى فى «السنن الكبرى» عن عائشة قالت: دخل الحبشة المسجد يلعبون فقال لى: «**يا حميراء أتحبين أن تنظرى إليهم**»، فقلت: نعم فقام بالباب وجئته فوضعت ذقنى على عاتقه فأسندت وجهى إلى خده فقالت: ومن قولهم يومئذٍ: أبا القاسم طيبًا[1]، فقال رسول الله ﷺ: «**حسبك**»[2]، فقلت: يا رسول الله لا تعجل، فقام لى ثم قال: «**حسبك**» فقلت: لا تعجل يا رسول الله، قالت: وما لى حب النظر إليهم ولكنى أحببت أن يبلغ النساء مقامه لى ومكانى منه[3][4].

* وفى رواية بإسناد حسن عن عائشة ﵂ عند النسائى فى «السنن الكبرى» قالت: لعبت الحبشة فجئت من ورائه ﷺ فجعل يطأطئ ظهره حتى أنظر[5].

* وأخرج الإمام أحمد فى «المسند»[6]، والنسائى فى «السنن الكبرى» وغيرهما بسند صحيح، عن أم المؤمنين عائشة ﵂ قالت: خرجت مع النبى ﷺ فى بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبدن فقال للناس: «**تقدموا**». فتقدموا ثم قال لى: «**تعالى حتى أسابقك**». فسابقته فسبقته فسكت عنى حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت خرجت معه فى بعض أسفاره فقال للناس: «**تقدموا**». فتقدموا ثم قال: «**تعالى حتى أسابقك**». فسابقته فسبقنى فجعل يضحك وهو يقول: «**هذه بتلك**».

---

(١) أى: من الأغانى التى يغنون بها.

(٢) حسبك أى: هل يكفيك.

(٣) أى: يعرف النساء (تعنى أزواجه) منزلتى عند رسول الله ﷺ.

(٤) صحيح: رواه النسائى فى الكبرى (١/ ٨٩٥١)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (٣٢٧٧)، وقال الحافظ فى «الفتح» (٢/ ٤٤٤): لم أر فى حديث صحيح ذكر الحميراء إلا فى هذا.

(٥) النسائى «السنن الكبرى» (٥/ ٣٠٨).

(٦) صحيح: رواه أحمد فى «المسند» (٦/ ٢٦٤)، والنسائى فى «السنن الكبرى» (٥/ ٣٠٤)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (١٣١).

* وأخرج البخارى ومسلم (١) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كنت ألعب بالبنات (٢) عند النبى ﷺ وكان لى صواحب يلعبن معى، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمعن (٣) منه فيسربهن (٤) إلىَّ فيلعبن معى.

* وقد استدل جمهور العلماء بهذا الحديث على جواز لعب البنات الصغيرات بالبنات (أى: باللعب الصغيرة التى على شكل العرائس ونحوها).

وانظر ما قاله الحافظ ابن حجر فى «فتح البارى» فى ذلك.

* وقد قال إخوة يوسف - عليه السلام - لأبيهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ (٥)، فما أنكر أبوهم لعب يوسف ﷺ، وإنما أبدى مخاوفه بقوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (٦).

وأخرج البخارى ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن كان

---

(١) البخارى «مع الفتح» (١٠/٥٢٦)، ومسلم مع النووى (٥/٣٩٥).

(٢) البنات هى اللعب التى يلعب بها الفتيات الصغيرات وتكون هذه البنات على شكل عرائس ونحوها، قال النووى: قال القاضى: فيه جواز اللعب بهن، قال: وهن مخصوصات من الصور المنهى عنها لهذا الحديث، ولما فيه من تدريب النساء فى صغرهن لأمر أنفسهن وبيوتهن وأولادهن، وقد أجاز العلماء بيعهن وشراءهن، ثم قال: ومذهب جمهور العلماء جواز اللعب بهن.

وقال الحافظ ابن حجر «فتح البارى» (١٠/٥٢٧): واستدل بهذا الحديث على جواز اتخاذ صور البنات واللعب من أجل لعب البنات بهن، وخصَّ ذلك من عموم النهى عن اتخاذ الصور، وبه جزم عياض ونقله عن الجمهور.

ونقل الحافظ ابن حجر -رحمه الله- جملة أقوال فى ذلك.

(٣) ينقمعن: أى: يختفين.

(٤) يُسربهن: أى: يرسلهن.

وفى رواية للنسائى فى «السنن الكبرى» (٥/٣٠٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: كنت ألعب بالبنات فربما دخل علىّ رسول الله ﷺ وصواحباتى عندى فإذا رأين رسول الله ﷺ فررن فيقول رسول الله ﷺ: «كما أنت، وكما أنتن».

(٥) سورة يوسف: الآية: (١٢).

(٦) سورة يوسف: الآية: (١٣).

النبى ليخالطنا حتى يقول لأخٍ لى صغير: «يا أبا عمير! ما فعل النغير؟»(١)(٢).

(٦) كثرة الانغماس فى اللعب قد يوقع فى الغفلة:

﴿ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾(٣).

* قال البقاعى: غريقون فى الغفلة لإقبالكم على ما يهمكم من مصالح الرعى(٤).

قلنا: ولقد أدرك أعداء الإسلام هذه الحقيقة فأغرقوا المسلمين فى الألعاب الملهية المتلاحقة، فلا يكاد المرء يفيق أو يقصد سواء الطريق.

ومما يؤكد هذا ما جاء فى البروتوكول الثالث عشر من «بروتوكولات حكماء صهيون»:

ولكى تبقى الجماهير فى ضلال، لا تدرى ما وراءها وما أمامها، ولا ما يراد منها، فإننا سنعمل على زيادة صرف أذهانها، بإنشاء وسائل المباهج، والمسليات والألعاب الفُكاهية، وضروب أشكال الرياضة واللهو، وما به الغذاء لملذاتها وشهواتها، والإكثار من القصور المزوقة، والمبانى المزركشة، ثم نجعل الصحف تدعو إلى مباريات فنية ورياضية.

ومن أبرز هذه المباريات الرياضية (كرة القدم) التى أصبحت فى هذا الزمان وسيلة لهدر طاقة الأمة، وتبديد أموالها، وإضاعة أوقاتها، ومعولاً يهدم سياج وحدتها(٥).

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦١٢٩) كتاب الأدب، ومسلم (٢١٥٠) كتاب الآداب.

(٢) النغير: طائر صغير.

(٣) سورة يوسف: الآية: (١٣).

(٤) نظم الدرر (٤/ ١٥).

(٥) كرة القدم بين المصالح والمفاسد/ للشيخ مشهور حسن (ص: ٢٠، ٢١).

يوسف عليه السلام ... ومحنة الجب

والآن قد ذهبوا به، وها هم أولاء ينفذون المؤامرة النكراء... والله سبحانه يُلقى فى روع الغلام أنها محنة وتنتهى، وأنه سيعيش وسيذكِّر إخوته بموقفهم هذا منه وهم لا يشعرون أنه هو:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾(١).

* قال ابن كثير -رحمه الله-: فلما ذهب إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له فى ذلك ﴿وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ أى: إنهم اتفقوا كلهم على إلقائه فى أسفل البئر وقد أخذوه من عند أبيه وهم يُظهرون له الإكرام شرحًا لصدره، وإدخال السرور عليه، فلما بعثه يعقوب معهم ضمه إليه وقبَّله ودعا له، فما أن توارى عن أعين أبيه إلا وشرعوا يؤذونه شتمًا وضربًا، ثم ربطوه بحبل ودلوه فى الجُبِّ، فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافة البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط فى الماء فغمره، فصعد إلى صخرة فى وسطه فقام فوقها.

* وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالى ذاكرًا لطفه ورحمته، وإنزاله اليسر حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف فى ذلك الحال الضيق، تطييبًا لقلبه وتثبيتًا له، إنك لا تحزن مما أنت فيه فإن لك من ذلك فرجًا ومخرجًا حسنًا، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع

---

(١) سورة يوسف: الآية: (١٥).

درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع... قال تعالى: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أى: وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك(١).

وندع يوسف فى محنته فى غيابت الجُبِّ، ويؤنسه ولا شك ما ألقى الله فى روعه ويطمئنه، حتى يأذن الله بالفرج، ندعه لنشهد إخوته بعد الجريمة يواجهون الوالد الذى لا يعلم ماذا صنعوا بولده الحبيب.

• الفوائد المستفادة من الآية:

(١) الله لطيف بعباده.

فى هذه الآية يتجلى لطف الله بعباده حيث تتحول المحنة إلى منحة، فقد أنزله إخوته إلى الدرك الأسفل من غيابت الجب ولسان حالهم يقول: خذها يا صاحب الأحلام؛ لأننا سنقضى على آمالك وأنت غلام، ونغرز فى قلب أبيك السهام.. إنها فعلة قوم لئام.

وعند ذلك أوحى الله إليه ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ حينما تكون فى مصر قد رفعك الله فتربعت على عرشها وملكت خزائنها وأطاعك أهلها وإخوانك ماثلون أمامك ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ انك يوسف لعلو شأنك، وذلك قول يوسف - عليه السلام - لهم: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾(٢)، فلما أوحى الله إليه ذلك اطمأن قلبه، وسكن روعه، وهدأ باله، وعلم أنه يُصنع على عين مولاه.. ولسان حاله يقول:

دع الأمور تجرى فى مجاريها
ولا تبيتن إلا خالى البال
فبين طرفة عين وانقباضها
يغير الله من حال إلى حال

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٤، ٤٧٥).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٨٩).

قال أحمد نوفل: وتأمل فى هذه الآية لطف الله -عز وجل- كيف يبتلى عباده ولكنه لطيف بهم.

وقد يقال: أليس كمال اللطف عدم الابتلاء؟

والجواب الإيمانى والعقلى معًا: لا لأن الخلق مخلوقون لحكمة الابتلاء، ولولا البلاء والابتلاء لتأسنت الحياة، ولما عُرف المتقدم من المتأخر والسابق من المبطئ، والمجاهد الصابر من القاعد المتخلف المتخوف، فالحياة والابتلاء قرينان: ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾[1]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾[2]، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾[3].

لكن الله الذى يبتلى عباده يلطف بهم حتى فى الابتلاء، انظر كيف يطمئن هذا الولد المسكين حتى لا يتقطع قلبه كمدًا وحزنًا وخوفًا.

ثم لطف آخر هو أنه ما جعل الإخوة يعملون هذا العمل مع يوسف إلا وقد بلغ سن الإدراك والفهم، وبعد أن غُرست فى قلبه بذرة التوحيد.

ثم لطف ثالث أنه أراه الرؤيا التى طمأنته وطمأنت أباه، ثم لطف آخر أكبر كيف أن الله حول البلاء إلى نعماء والضراء إلى سراء والشر إلى خير على غير توقع من أحد وبلا تدبير من أحد. وصدق الله: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾[4][5].

(٢) قد يوحى للصغير لحكمة إلهية:

قال القرطبى: ومن قال: كان صغيرًا، فلا يبعد فى العقل أن يتنبأ الصغير، ويوحى إليه، وقيل: كان وحى إلهام، كقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى

---

(١) سورة الملك: الآية: (٢).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٧).

(٣) سورة الإنسان: الآية: (٢).

(٤) سورة الشورى: الآية: (١٩).

(٥) سورة يوسف دراسة تحليلية (ص: ٣١٢، ٣١٣).

النَّحْلِ﴾[١]، وقيل: كان منامًا، والأول أظهر-والله أعلم- وأن جبريل جاءه بالوحى[٢].

* وقال الزمخشرى:

إنما أوحى إليه، ليؤنَس فى الظلمة والوحشة، ويُبشَّر بما يؤول إليه أمره، ومعناه: لتتخلص مما أنت فيه، ولتحدثن إخوتك بما فعلوا بك[٣].

* وقال الشوكانى:

وفى هذا دليل على أنه يجوز أن يوحى الله إلى من كان صغيرًا، ويعطيه النبوة، كما وقع فى عيسى ويحيى بن زكريا[٤].

* * *

س: هل أعطى يوسف النبوة وهو فى البئر؟

ج: قال ذلك بعض أهل العلم، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[٥] قالوا: فأوحى إليه وهو فى البئر، فدلَّ ذلك على نبوته.

وقال آخرون: إن هذا الوحى كان إلهامًا كالوحى فى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾، وكقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[٦]، وكقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[٧].

فقال هذا الفريق من أهل العلم: إنه أوحى إليه لما بلغ أشده فعند ذلك ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[٨] وفسر بعضهم ذلك بالنبوة.

---

(١) سورة النحل: الآية: (٦٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٤٢).

(٣) الكشاف (٢/ ١٤٥).

(٤) فتح القدير (٣/ ١٠).

(٥) سورة يوسف: الآية: (١٥).

(٦) سورة القصص: الآية: (١٧).

(٧) سورة الزلزلة: الآية: (٧).

(٨) سورة يوسف: الآية: (٢٢).

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾[1]

فلما ألقوا يوسف -عليه السلام- فى الجب أخذوا قميصه فلطخوه بشىء من دم، ورجعوا إلى أبيهم عشاءً وهم يبكون (أى: على أخيهم) ولهذا قال بعض السلف: لا يغرنك بكاء المتظلم فرُبَّ ظالم وهو باكٍ ! وذكر بكاء إخوة يوسف وقد جاءوا أباهم عشاءً يبكون، أى: فى ظلمة الليل، ليكون أمشى لغدرهم لا لعذرهم.

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾[2] أى: رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء ليلاً وهم يبكون، روى أنه لما سمع يعقوب بكاءهم فزع، وقال ما لكم يا بنىَّ! وأين يوسف ؟ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾[3] أى: نتسابق فى العدو، أو فى الرمى ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾[4] أى: تركنا يوسف عند ثيابنا وحوائجنا ليحفظها فجاء الذئب فافترسه ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[5] أى: ما أنت بمصدق بنا فى الذى أخبرناك من أكل الذئب له، ولو كنا غير متهمين عندك. فكيف وأنت تتهمنا فى هذا؟ فإنك خشيت أن يأكله الذئب، وضمنا لك ألا يأكله لكثرتنا حوله، فصرنا غير مصدَّقين عندك، فمعذور أنت فى عدم تصديقك لنا [6].

* وهذا القول منهم يدل على الارتياب، وكما قيل: يكاد المريب يقول خذونى ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[7] أى: جاؤوا على ثوبه بدم كذب،

---

(١) روى أن امرأة تحاكمت إلى شريح فبكت، فقال الشعبى: يا أبا امية! أما تراها تبكى؟ فقال شريح: لقد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة كذبة، لا ينبغى للإنسان أن يقضى إلا بالحق.

(٢)، (٣)، (٤)، (٥) سورة يوسف: الآية: (١٧).

(٦) قصص الأنبياء (ص: ٢٧٢).

(٧) سورة يوسف: الآية: (١٨).

(وصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه) قال ابن عباس: ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص فلما جاؤوا يعقوب قال: كذبتم لو أكله الذئب لخرق القميص[1]. ورُوى أنه قال: «ما أحلم هذا الذئب أكل ابنى ولم يشق قميصه».

* لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك الكذبة، فلو كانوا أهدأ أعصابًا ما فعلوها منذ المرة الأولى التى يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم! ولكنهم كانوا معجلين لا يصبرون، يخشون ألا تواتيهم الفرصة مرة أخرى.

كذلك كان التقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليلاً على التسرع، وقد كان أبوهم يحذرهم منها أمس، وأدرك يعقوب من دلائل الحال، ومن نداء قلبه، أن يوسف لم يأكله الذئب، وأنهم دبروا له مكيدة ما، وأنهم يلفقون له قصة لم تقع، ويصفون له حالاً لم تكن، فواجههم بأن نفوسهم قد حسنت لهم أمرًا منكرًا وذللته ويسرت لهم ارتكابه، وأنه سيصبر متحملاً متجملاً لا يجزع ولا يفزع ولا يشكو، مستعينًا بالله على ما يلفقونه من حيل وأكاذيب.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[2][3].

أي: فاصبر صبرًا جميلاً على هذا الأمر الذى اتفقتم عليه ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أى: على ما تذكرونه من الكذب والمحال.

والصبر الجميل هو الصبر الذى لا شكوى فيه.

• الدروس المستفادة من الآيات:

(١) الحياء في العينين:

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾[4].

---

(١) الطبرى (١٢/ ١٦٤).

(٢) سورة يوسف: الآية: (١٨).

(٣) الظلال (٤/ ١٩٧٥، ١٩٧٦) بتصرف.

(٤) سورة يوسف: الآية: (١٦).

قال البقاعي: «فى ظلمة الليل، لئلا يتفرس أبوهم فى وجوههم إذا رآها فى ضياء النهار ضد ما جاءوا به من الاعتذار، وقد قيل: لا تطلب الحاجة بالليل فإن الحياء فى العينين، ولا تعتذر بالنهار من ذنب، فتتلجلج فى الاعتذار»[١].

وقال أبو بكر الجزائرى: اختيار الليل للاعتذار دون النهار لأن العين تستحى من العين[٢].

* **قال القرطبى:** هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله، لاحتمال أن يكون تصنعًا، فمن الخلق من يقدر على ذلك، ومنهم من لا يقدر، وقد قيل: إن الدمع المصنوع لا يخفى، كما قال حكيم:

إذا اشتبكت دموعٌ فى خدود
تبيَّن من بكى ممن تباكى[٣]

(٢) مشروعية السباق على الأقدام:

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾[٤].

قال أبو بكر الجزائرى: «هو: المسابقة، وقيل ننتضل، وهو: نوع من المسابقة، وهو فى السهام لا فى الأقدام، وفى الآية دليل على مشروعية السباق، وقد سابق النبى ﷺ بين الخيل التى أُضمرت من الحفياء وكان أمدها ثنية الوداع، وسابق بين الخيل التى لم تضمر من الثنية إلى مسجد بنى زريق - والحفياء تبعد من ثنية الوداع ستة أميال أو سبعة.

أجمع المسلمون أنه لا يجوز الرهان فى السباق إلا فى الخيل والإبل والنصل، وهى: الرماية بالسهام، لإصابة الهدف»[٥].

---

(١) نظم الدرر (٤/ ١٧).
(٢) أيسر التفاسير (٢/ ٦٠٠).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٤٥).
(٤) سورة يوسف: الآية: (١٧).
(٥) أيسر التفاسير (٢/ ٦٠٠).

* **قال القرطبي:** والغرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العَدْو؛ لأنه الآلة في قتال العدوّ، ودفع الذئب عن الأغنام...

* **وقال ابن العربي:** المسابقة شرعة في الشريعة، وخصلة بديعة، وعون على الحرب، وقد فعلها النبي ﷺ بنفسه وبخيله، وسابق عائشة ؓ على قدميه فسبقها، فلما كَبُرَ رسول الله ﷺ سابقها فسبقته، فقال لها: «هذه بتلك»[1]. وسابق سلمة بن الأكوع رجلاً لما رجعوا من ذي قَرد إلى المدينة، فسبقه سلمة[2].

الثانية: روى مالك عن نافع عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل التي قد أضمرت (من الحفياء) موضع بالمدينة، وكان أمدها ثنية الوداع[3]، وسابق بين الخيل التي لم تضمر من الثنية إلى مسجد بني زريق[4]، وأن عبد الله بن عمر كان ممن سابق بها، وهذا الحديث مع صحته في هذا تضمن ثلاثة شروط، فلا يجوز المسابقة بدونها، وهي:

الأولى: أن المسافة لابد أن تكون معلومة.

الثاني: أن تكون الخيل متساوية الأحوال.

الثالثة: ألا يسابق المضمر مع غير المضمر في أمد واحد وغاية واحدة، والخيل التي يجب أن تضمر ويسابق عليها وتقام هذه السُّنة فيها هي الخيل المعدة لجهاد العدوّ لا لقتال المسلمين في الفتن»[5].

* * *

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٠٧) كتاب الجهاد والسير.

(٣) بين الحفياء وثنية الوداع ستة أميال أو سبعة، انظر «معجم البلدان» (٢/ ٣٧٦)، وفتح الباري (٧١٦).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٤٢١) كتاب الصلاة، ومسلم (١٨٧٠) كتاب الإمارة.

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٤٥، ١٤٦).

س: ما هى أنواع المسابقات وحكمها ؟

ج: المسابقات على ثلاثة أنواع:

أ - جائز بعوض.

ب- جائز بغير عوض.

ج- محرم.

أ- جائز بعوض: مثل مسابقة سهام الرمى بالبندقية على الخيل، مسابقة الرمى بالطائرات، بالدبابات، بأى وسيلة بالرمى؛ لأنه مُعين على الجهاد يجوز أن يُجعل فيها جوائز، فابن تيمية -رحمه الله- أدخل فيها المسابقات المعينة على نشر الدين، فلو عملنا مسابقة فى حفظ القرآن وحفظ السنة وحفظ العلم يجوز أن تكون بجُعلٍ أى: بمقابل بجائزة.

ب- القسم الذى بغير عوض مثل المسابقة على الأقدام. . . واختلفوا فى الغطس قال بعضهم يلحق بالأول لأنه يعين على الجهاد فمسابقة الأقدام تجوز بدون جائزة. . . . . . بغير مقابل. . . . . هذا مثال.

ج- المحرم: مثل نقر الديكة، مناطحة الكباش، مصارعة الثيران، لا تجوز لا بجائزة ولا بغير جائزة.

(٣) تناقض المجرم فى دعواه:

حيث زعموا تركه وهم أخذوه ليلعب(١).

قال العلمى: وها هنا لنا عليهم ملاحظة، كما لا بد أن يكون لاحظها عليهم أبوهم -عليه السلام- وهى: أنهم كانوا قالوا: ﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ۝١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾(٢).

---

(١) المنار (١٢/ ٢٦٦).

(٢) سورة يوسف: الآيتان: (١١، ١٢) .

فإنهم الآن لم يفوا بهذا الوعد، ولم يقوموا بما قالوا، فإنهم بدلوا يوسف عن الرتع واللعب بالحراسة، فقد جعلوه كحارس لأمتعتهم، وتركوه وحده، ولم يكونوا له من الحافظين، وبهذا يكونون قد تناقضوا، ولم يتجاوب أول كلامهم وآخره(1).

(٤) النفس تسوّل لصاحبها فعل الجرائم:

لفظة ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾ لطيفة لينة، ولكن المعنى الذى فيها جارح، فهو كما يقول بعض المعاصرين فى نظيره «الكلام أنثى، والمعنى ذكر» يقال: سولت له نفسه كذا: زينت وسهلت، وسول له الشيطان - أغواه- من «السَّوَل» محركة، وهو الاسترخاء. . . . وسَوَّل له: سهَّل له ركوب العظائم، ومن غرائب الاتفاق أن هذه المادة لم تُسند فى كتاب الله إلا لثلاثة:

١- للسامرى الوثنى، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾(2).

٢- لأخوة يوسف العشرة، وذلك فى قول يعقوب لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾(3).

٣- للشيطان، فى قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾(4)(5).

(٥) الدواعى النفسية تدعو إلى إظهار الجزع وهى قوية:

قال القاسمى: «قال الرازى: لأن الدواعى النفسانية تدعو إلى إظهار الجزع، وهى قوية، والدواعى الروحانية تدعو إلى الصبر والرضا، فكأنهما فى تحارب وتجادل فما لم تحصل إعانته -تعالى- لم تحصل الغلبة، فقوله:

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٣٧٣).

(٢) سورة طه: الآية: (٩٦).

(٣) سورة يوسف: الآية: (١٨).

(٤) سورة محمد: الآية: (٢٥).

(٥) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٤٠٧-٤٠٩).

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[١] يجرى مجرى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[٢] وقوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾[٣] يجرى مجرى قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٤][٥].

(٦) التفويض يكون بعد نفاد الأسباب:

قال ابن عاشور: وإنما فوض يعقوب - عليه السلام - الأمر إلى اللهو ولم يسع للكشف عن مصير يوسف - عليه السلام - لأنه تعذر ذلك عليه، لكبر سنّه، ولأنه لا عضد له يستعين به على أبنائه أولئك.

وقد صاروا هم الساعين فى البعد بينه وبين يوسف - عليه السلام - فأيس من استطاعته الكشف عن يوسف - عليه السلام - بدونهم، ألا ترى أنه لما وجد منهم فرصة قال: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾[٦][٧].

(٧) من استعجل شيئًا قبل أوانه عوقب بحرمانه:

«الآن يواجه الإخوة اختبار الذى كانوا رسموه وأمّلوه، ومقدار نجاح خطتهم التى خططوا ومكرهم الذى مكروه.. هل يصلون إلى بغيته، ويبلغون... أى: طلبتهم من خلو وجه أبيهم، لقد ظنوا أن يوسف إن غاب عن العين سيغيب عن القلب، وما دروا أنه بهذا التغييب عن العين هيجوا كل ذرة فى القلب ليتضاعف فيها حب يوسف.

وكانوا يريدون خلو وجه أبيهم، فما خلا لهم منه إلا الاستياء والبغض.. فلم يستفد الإخوة شيئًا، وليتهم حافظوا على منزلتهم الأولى، إنهم لم يستفيدوا سوى أنهم ظلموا أخاهم وباءوا بإثمه وعقوا أباهم وأدخلوا عليه الهم والقلق.

وهذه نتيجة كل فعل يدلى فيه الشيطان الإنسان بغرور، حتى إذا صار فى

---

(١)، (٣) سورة يوسف: الآية: (١٨).

(٢)، (٤) سورة الفاتحة: الآية: (٥).

(٥) محاسن التأويل (٦/ ٢٠٥، ٢٠٦).

(٦) سورة يوسف: الآية: (٧٨).

(٧) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٤٠).

قرارة البئر قطع به الحبل.

إن الذى سقط فى تجربة البئر هم الإخوة، وإن الذى ارتفع حين سقط فى البئر هو يوسف»[١].

* * *

س: اذكر المواطن التى جاء فيها ذكر القميص؟

ج: هذه المواطن هى:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[٢] فكانت سلامة القميص دلالة على كذبهم.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾[٣]، وقول الشاهد: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ﴾[٤] فكان قطع القميص من الخلف دليلاً على براءة يوسف - عليه السلام - وصدقه.

ثالثًا: قوله: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾[٥]، وقوله: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾[٦].

قال العلمى: لم يذكر لفظ القميص فى كتاب الله - تعالى- إلا فى هذه السورة والغريب أنه ذُكر فيها فى ستة مواضع، من مواضع القصة المهمة، الذى يخيل إلينا أن القميص ركن من أركان هذه القصة[٧].

* * *

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية (ص: ٣١٦)/ احمد نوفل.

(٢) سورة يوسف: الآية: (١٨).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٢٥).

(٤) سورة يوسف: الآيات: (٢٦- ٢٨).

(٥) سورة يوسف: الآية: (٩٣).

(٦) سورة يوسف: الآية: (٩٦).

(٧) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٣٩٨).

س: ما هي القرائن التي اعتمد عليها يعقوب -عليه السلام- إذ قال لبنيه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾؟

ج: من هذه القرائن ما يلي:

* رؤيا يوسف التي رآها (فلم تكن قد تحققت) ويعقوب -عليه السلام- يدرك أنها ستتحقق.
* سلامة قميص يوسف، فكيف يأكله الذئب دون إصابة القميص بشيء؟!
* قولهم: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[1].

* * *

س: قول: (الله المستعان) قول طيب قالته بعض أزواج النبي ﷺ في موطن من المواطن، من القائلة؟ وما مناسبة ذلك؟

ج: القائلة هي أم المؤمنين عائشة[2] رضي الله عنها، قالته في حديث الإفك حين أتاها النبي ﷺ فقال لها: **«أما بعد يا عائشة، إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرِّؤك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه»**. قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ عني فيما قال، فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال، قالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

فقلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً -: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة -لا تصدقونني- ولئن اعترفت لكم بأمر- والله يعلم أني منه بريئة- لتصدقنّي، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال:

---

(١) سورة يوسف: الآية: (١٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٦١) كتاب الشهادات، ومسلم (٢٧٧٠) كتاب التوبة.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾(١).

هكذا خرج يوسف -عليه السلام- من الجب

وتعالوا بنا لنرجع مرة أخرى إلى يوسف-عليه السلام- لنرى ما حدث له فى ذلك الجب.

لقد كان الجب على طريق القوافل، التى تبحث عن الماء فى مظانه، فى الآبار وفى مثل هذا الجب الذى ينزل فيه ماء المطر ويبقى فترة، ويكون فى بعض الأحيان جافًا كذلك.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾(٢) أى: قوم مسافرون مروا بذلك الطريق... قال ابن عباس: جاء قوم يسيرون من مدين إلى مصر فأخطئوا الطريق فانطلقوا يهيمون حتى هبطوا على الأرض التى فيها جُب يوسف، وكان الجب فى قفرة بعيدة عن العمران ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾(٣) أى: بعثوا من يستسقى لهم الماء ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾(٤) أى أرسل دلوه فى البئر... قال المفسرون: لما أدلى الوارد دلوه وكان يوسف فى ناحية من قعر البئر تعلق بالحبل فخرج فلما رأى حسنه وجماله نادى ﴿قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾(٥) قاله على سبيل السرور والفرح لتبشير نفسه وجماعته ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾(٦) أى: أخفوا أمره عن الناس ليبيعوه فى أرض مصر متاعًا كالبضاعة... والضمير يعود على الوارد وجماعته(٧).

* ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾(٨) أى: هو عالم بما تمالأ عليه إخوته، وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم، ومع هذا لا يغيره تعالى، لما له فى ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر، بما يُجرى الله على يدى هذا الغلام الذى يدخلها فى صورة أسير رقيق، ثم بعد هذا يُملكه أزمة

(١) سورة يوسف: الآية: (١٨).

(٢)، (٣)، (٤)، (٥)، (٦)، (٨) سورة يوسف: الآية: (١٩).

(٧) صفوة التفاسير (٢/ ٤٤).

الأمور وينفعهم الله به فى دنياهم وأخراهم، بما لا يحد ولا يوصف.

ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم، وقالوا: هذا غلامنا أبق منا (١) فاشتروه منهم بثمن بخس، أى قليل نزر، وقيل هو الزيف: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾(٢)(٣).

* وهكذا باعه إخوته بثمن قليل ناقص، أى: اعتاض عنه إخوته بثمن أقل من القليل ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ أى: ليس لهم رغبة فيه حتى لو سألوه بلا شىء لأجابوا... قال ابن عباس ومجاهد والضحاك إن الضمير عائد فى قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ على إخوة يوسف لا على السيارة. وهذا أقوى لأن قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة؛ لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فترجح هذا القول على غيره، وهكذا فقد باعته السيارة بمصر فاشتراه العزيز(٤).

• الدروس المستفادة من الآيتين:

(١) فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ، فالمعنى: أن الله لا يخفى عليه أمر يوسف عليه السلام وما يُصنع به، وهو سبحانه قادر على دفعه ولكنه يملى للظالمين ويرفع درجات المتقين، ووجه التسلية لرسول الله ﷺ: أن الله يعلم ما يُفعل بنبيه محمد ﷺ، وهو قادر على دفعه، ولكنه يبتلى رسله وأولياءه ثم تكون العاقبة للتقوى.

(٢) الملتقط للشىء متهاون به:

قال العلمى: «﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ ممن يرغب عما فى يده، فيبيعه

---

(١) أى: هرب منا.

(٢) سورة يوسف: الآية: (٢٠).

(٣) قال ابن مسعود وابن عباس ونوف البكالى والسدى وقتادة وعطية العوفى: باعوه بعشرين درهمًا. اقتسموها درهمين. وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهمًا، وقال عكرمة ومحمد بن إسحاق: أربعون درهمًا. والله أعلم.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٦).

بما طفَّ من الثمن، لأنهم التقطوه، والملتقط للشىء متهاون به، لا يبالى بِمَ باعه، ولأنه يخاف أن يعرف له مستحق ينتزعه من يده، فيبيعه من أول مساوم بأوكس الثمن»[١].

(٣) من زهد فى شىء باعه بأبخس الأثمان:

قال محمد رشيد رضا: «وكان هؤلاء الذين باعوه من الراغبين عنه، الذين يبغون الخلاص منه، لئلا يظهر من يطالبهم به؛ لأنه حر، والثمن لم يكن مقصودًا لهم ولهذا قنعوا بالبخس منه»[٢].

(٤) أسواق الرقيق سُنة قديمة عند جميع الأمم قبل الإسلام:

قال العلمى: «وما فعلته السيارة من أخذ يوسف معهم كرقيق سُنة قديمة عند جميع الأمم، فقد كان التجار وغيرهم من الروم والقوط يسطون على قبائل البربر، فيخطفون الأطفال والغلمان، ويحملونهم إلى الآفاق، يتجرون ببيعهم، كما كانوا يتجرون ببيع الغلمان البيض من أهل أسبانيا وغيرها»[٣].

وها هو يُباع لعزيز مصر

* وهنا تبدأ الحلقة الثانية من حلقات القصة، وقد وصل يوسف إلى مصر، وبِيع بَيع الرقيق، ولكن الذى اشتراه توسم فيه الخير -والخير يُتوسم فى الوجوه الصباح، وبخاصة حين تصاحبها السجايا الملاح- فإذا هو يوصى به امرأته خيرًا، وهنا يبدأ أول خيط فى تحقيق الرؤيا.

* ﴿**وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ**﴾[٤] أى: أحسنى إليه ﴿**عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا**﴾[٥] وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه، بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيرى الدنيا والآخرة.

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٤٢١).

(٢) تفسير القرآن الحكيم (١٢/ ٢٧١).

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٤١٨).

(٤)، (٥) سورة يوسف: الآية: (٢١).

قالوا: وكان الذى اشتراه من أهل مصر عزيزها وهو الوزير بها، الذى بيده خزائن البلاد... قال ابن إسحاق: واسمه إطفير بن روحيب، قال: وكان ملك مصر يومئذ الريان بن الوليد، رجل من العماليق، قال: واسم امرأة العزيز «راعيل» بنت رمايل، وقال غيره: كان اسمها «زليخا» والظاهر أنه لقبها.

* عن ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾[1] والمرأة التى قالت لأبيها عن موسى: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[2] وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾[3] أى: وكما قيضنا هذا العزيز وامرأته يحسنان إليه، ويعتنيان به، مكنَّا له فى أرض مصر ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾[4] أى: فهمها وتعبير الرؤيا من ذلك ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾[5] أى: إذا أراد شيئًا فإنه يقيض له أسبابًا وأمورًا لا يهتدى إليها العباد. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[6][7].

* ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: لا يدرون حكمته وفعله لما يريد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾[8] أى: يوسف-عليه السلام- ﴿أَشُدَّهُ﴾[9][10] أى: استكمل عقله وخلقه، وبلغ الحُلم، وكان ذلك فى سن الثمانى عشر ﴿آتَيْنَاهُ

(١)، (٣)، (٤)، (٥)، (٦) سورة يوسف: الآية: (٢١).

(٢) سورة القصص: الآية: (٢٦).

(٧) قصص الأنبياء (ص: ٢٧٤، ٢٧٥).

(٨)، (٩) سورة يوسف: الآية: (٢٢).

(١٠) وقد اختلفوا فى مدة العمر الذى هو بلوغ الأشد: فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبى: هو الحلم. وقال سعيد بن جبير: ثمانى عشرة سنة. وقال الضحاك: عشرون سنة، وقال عكرمة: خمس =

حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[1] يعنى النبوة، أنه حباه بهـا بين أولئك الأقوام ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[2][3] أى: أنه كان محسنًا فى عمله، عاملاً بطاعة الله تعالى[4].

• الدروس المستفادة من الآيتين:

(١) العبرة فى القصص القرآنى فى الأحداث ومواعظها لا فى الأسماء والأماكن:

قال محمد رشيد رضا:

لم يبين القرآن اسم الذى اشتـراه من السيارة فى مصر، ولا منصبه، ولا اسم امرأته لأن القرآن ليس كتاب حوادث وتاريخ وإنما قصصه حِكم ومواعظ وعبر وتهذيب[5].

(٢) بيان جواز التبني فى شريعة من قبلنا وقد نُسخ فى الإسلام:

عبارة ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ ظاهرة فى أن التبنى كان مشروعًا عند المصريين، كما

= وعشرون سنة، وقال السدى: ثلاثون سنة. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون سنة، وقال الحسن: أربعون سنة، ويشهد له قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾] تاريخ الطبرى(١/ ٣٣٦)].

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (٢٢)

(٣) إن الذى يستلفت النظر كثرة تكرار صفة الإحسان، فكان محسنًا مع ربه وأيضًا مع الناس-وهما متلازمان- فقد سمى الله قصته ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣] أى: من أحسنه، ورتب على الإحسان إيتاءه الحكم والعلم مع الشباب ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢]، ووصفه السجناء بذلك ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦]، وبه مكنه الله تعالى فى الأرض ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٦]، وقال له إخوته وهم لا يعرفونه ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٧٨]، وقال عن نفسه وأخيه ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠]، ثم أثنى على ربه بإحسانه إليه، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف:١٠٠].

والجزاء من جنس العمل.

يقول الإمام ابن القيم-رحمه الله-: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان لأن الجزاء من جنس العمل فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته، وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة بعدًا ببعد وقربًا بقرب فمن تقرب بالإحسان تقرب الله إليه برحمته ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته. [التفسير القيم ص: ٢٥٨]

(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٧).

(٥) تفسير القرآن الحكيم (١٢/ ٢٧٢).

كان عند العرب قبل الإسلام، وفى صدر منه، ثم نهى عنه الإسلام وحرمه.

(٣) التمكين فى الأرض يسبقه التمكين فى القلوب:

قال ابن عاشور: «والتمكين فى الأرض هنا مراد به ابتداؤه وتقدير أول أجزائه، فيوسف - عليه السلام - بحلوله محل العناية من عزيز مصر قد خط له مستقبل تمكينه من الأرض بالوجه الأتم الذى أشير له بقوله تعالى بعد: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾[١][٢].

قال العلمى: وقعت جملة ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ فى هذه السورة مرتين:

فقيلت فيه أولاً: باعتبار وجوده فى بيت العزيز وكيلاً عنه فى أشغاله ومحبوبًا منه جدًّ الحب.

وقيلت ثانيًا: باعتبار وجوده فى البلاط ناظر مالية، ومحبوبًا جدًّ الحب من الملك؛ لأن نفس العبد من نفس سيده، فكان يوسف يتجول فى مستعمرات سيده، ويأمر الزراع وينهاهم، ويحل ويربط، على حساب سيده (العزيز) وبهمته ونفوذه.

وأما هذا التمكين، فقد كان عامًا فى المملكة الهكسوسية، وبطريق الأصالة، لذلك أتبعه بقوله تعالى: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ لأنه هو بذاته صار «العزيز فى مصر» مع «وزارة المالية» ومع الوكالة المطلقة عن الريان، وها هنا نكتة يجب الانتباه إليها، هى: أن التمكين الأول كان ناشئًا عن إلقاء الله محبة يوسف فى قلب «عزيز مصر»، وأما التمكين الثانى، فكان ناجمًا عن إلقاء الله محبة يوسف فى قلب «مليك مصر»، فالأول تمهيد للثانى، والثانى أقوى وأمتن من الأول، وواسع جدًّا وأطلق حرية، وإن شئت قلت: إن التمكين الأول نواة لشجرة التمكين الثانى، وأول الغيث قطر ثم ينهمل[٣].

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٤٧).

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٤٥٦، ٤٥٧).

(٤) وجود يوسف -عليه السلام- فى بيت العزيز هيأه لملك مصر:

قال أحمد نوفل: «وأما وجه الخير فى هذا المقام، فأن يكون فى ذى البيت الذى تتوفر له فيه كل أسباب الراحة والرغد وهناءة العيش والنعيم، ثم كل أسباب التعليم، وأن يكون قريبًا من مراكز صناعة القرار فى مصر، فيتعلم الشيء الكثير من أحوال البلد وعقلية الإدارة والتركيبة السياسية والاجتماعية والإمكانات الاقتصادية، ويكون بالجملة فى موقف مشرف يطلع منه على كل ما يجرى فى المجتمع المصرى... أو فى صعيده أو ريفه[١].

(٥) البيئة الطاهرة تكمل الفطرة السليمة:

قال محمد رشيد رضا: «وأما العزيز، فكان ذكيًّا صادق الفراسة، فاستدل من كمال خَلْق يوسف وخُلقه، وذكائه وحسن خلاله، على أن حسن عشرته وكرم وفادته وشرف تربيته، خير متمم لحسن استعداده الفطرى، إذ لا يفسد أخلاق الأذكياء إلا البيئة الفاسدة وسوء القدوة[٢].

(٦) الجزاء عام فى كل مؤمن أحسن، فبقدر إحسان العبد يكون جزاء الرب له:

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٣] يقول تعالى ذكره: وكما جزيت يوسف فآتيته بطاعته إياى الحكم والعلم، ومكنته فى الأرض، واستنقذته من أيدى إخوته الذين أرادوا قتله، كذلك نجزى من أحسن فى عمله، فأطاعنى فى أمرى، وانتهى عما نهيته عنه من معاصٍ.

وهذا، وإن كان مخرج ظاهره على كل محسن، فإن المراد به محمد نبى الله ﷺ يقول له عز وجل: كما فعلت هذا بيوسف من بعد ما لقى من إخوته ما لقى، وقاسى من البلاء ما قاسى، فمكنته فى الأرض، ووطأت له فى البلاد، فكذلك أفعل بك فأنجيك من مشركى قومك الذين يقصدونك

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية (ص: ٣٢٧).

(٢) تفسير القرآن الحكيم (١٢/ ٢٧٢).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٢٢).

بالعداوة، وأمكن لك فى الأرض، وأوتيك الحُكم والعلم؛ لأن ذلك جزائى أهل الإحسان فى أمرى ونهيى[(١)].

* **قال أبو بكر الجزائرى:** «هذا الجزاء عامٌّ فى كل مؤمن أحسن، فبقدر إحسان العبد يكون جزاء الرب له، فالخطاب يتناول يوسف ومحمد عليهما الصلاة والسلام ويتناول غيرهما، لأن القرآن كتاب هداية، فعمومه لا يخصص بالواحد والاثنين»[(٢)].

(٧) الجزاء على السبب لا على النسب:

قال العلمى: «. . . لم يقل: وكذلك نجزى أولاد الأنبياء، أو يقل: وكذلك نجزى ذوى البيوتات العريقة فى المجد، بل جعل هذه المجازاة أثرًا من آثار إحسان يوسف فى أعماله وأقواله وأفكاره وسيره وسيرته، لأن الله- تعالى- لا ينظر للأنساب والأحساب ولكنه ينظر إلى الأعمال والنوايا، فالمرء بأعماله لا بآماله، وبسببه، لا بنسبه، وبطى لسانه لا بطيلسانه، وبأصغريه قلبه ولسانه وبحنانه، لا بجنانه[(٣)].

امرأة العزيز.... والمحنة الثالثة

ولكن محنة أخرى من نوع آخر كانت تنتظر يوسف حين يبلغ أشده، وقد أُوتى حكمًا وعلمًا يستقبل بهما هذه المحنة الجارفة التى لا يقف لها إلا من رحم الله. إنها محنة التعرض للغواية فى جو القصور، وفى جو ما يسمونه«الطبقة الراقية» وما يغشاها من استهتار وفجور. . . ويخرج يوسف منها سليمًا معافى فى خلقه وفى دينه، ولكن بعد أن يخالط المحنة ويصلاها[(٤)].

يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف - عليه السلام - عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهى فى غاية الجمال والمال،

---

(١) التسهيل (ص: ١٠٢، ١٠٣).

(٢) ايسر التفاسير (٢/ ٦٠٣).

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٤٧٤، ٤٧٥).

(٤) الظلال (٤/ ١٩٧٨).

والمنصب والشباب، وكيف غلَّقت الأبواب عليها وعليه، وتهيأت له وتصنعت، ولبست أحسن ثيابها، وأفخر لباسها، وهى مع هذا كله امرأة الوزير.

قال ابن إسحاق: وبنت أخت الملك الريان بن الوليد صاحب مصر.

وهذا كله مع أن يوسف - عليه السلام - شاب بديع الجمال والبهاء، إلا أنه نبى من سلالة الأنبياء، فعصمه ربه عن الفحشاء، وحماه عن مكر النساء، فهو سيد السادة النجباء، السبعة الأتقياء المذكورين فى الصحيحين عن خاتم الأنبياء، فى قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء: **«سبعة يظلهم الله فى ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه -وذكر منهم- ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله»**[1][2].

* قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ هذه المحنة هى المحنة

---

(١) أخرجه البخارى (١/ ١٦٨)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) قال ابن القيم-رحمه الله- فى المفاسد العاجلة والآجلة لعشق الصور: والله سبحانه وتعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس وهم قوم لوط والنساء فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحال التى صار إليها يوسف بصبره، وعفته وتقواه مع إن الذى ابْتُلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبَّره الله عليه فإن موافقة الفعل بحسب قوة الداعى وزوال المانع وكان الداعى ها هنا فى غاية القوة وذلك لوجوه:

أحدها: ما ركَّب الله سبحانه فى طبع الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان إلى الماء والجائع إلى الطعام حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء وهذا لا يُذم إذا صادف حلالاً. الثانى: أن يوسف-عليه السلام- كان شابًا وشهوة الشباب وحدته أقوى.

الثالث: أنه كان عزبًا لا زوجة له ولا سرية تكسر حدة الشهوة.

الرابع: أنه كان فى بلاد غربة لا يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى لغيره فى وطنه وأهله ومعارفه. الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى موافقتها. السادس: أنها غير آبية ولا ممتنعة فإن كثيراً من الناس يزيل رغبته فى المرأة إباؤها وامتناعها لما يجد فى نفسه من ذل النفس والخضوع والسؤال لها.

السابع: أنها طلبت وأرادت وبذلت الجُهد، فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها، بل كانت هى الراغبة الذليلة وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: إنه فى دارها وتحت سلطانها وقهرها بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له فاجتمع داعى الرغبة والرهبة.

الثالثة بعد محنة الجب والاسترقاق... والمراودة: الطلب برفق ولين كما يفعل المخادع بكلامه المعسول... المعنى: طلبت امرأة العزيز التى كان يوسف فى بيتها منه أن يضاجعها، ودعته برفق ولين أن يوافقها، وتوسلت إليه بكل وسيلة ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾ أى: غلقت أبواب البيت عليها وعلى يوسف وأحكمت إغلاقها، قال القرطبى: كانت سبعة أبواب غلقتها ثم دعته إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أى: هلمَّ وأسرع إلى الفراش فليس ثمة ما يُخشى ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أى: عياذًا بالله من فعل السوء... قال أبوالسعود: وهذا إشارة إلى أنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه، لما أراه الله من البرهان النير على ما فيه من غاية القبح ونهاية السوء[1] ﴿إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ أى: إن زوجك هو سيدى العزيز الذى أكرمنى وأحسن تعهدى فكيف أسىء إليه بالخيانة فى حرمه؟ ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: لا يظفر الظالمون بمطالبهم، ومنهم الخائنون المجازون الإحسان بالسوء[2].

= التاسع: إنه لا يخشى أن تنم عليه هى ولا أحد من جهتها فإنها هى الطالبة والراغبة وقد غلقت الأبواب وغيَّبت الرقباء.

العاشر: أنه كان مملوكًا لها فى الدار بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه وكان الأمن سابقًا على الطلب وهو من أقوى الدواعى.

الحادى عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، فأرته إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه، فاستعان هو بالله عليهن فقال: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]. الثانى عشر: أنها تواعدته بالسجن والصغار وهذا أنواع إكراه إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به، فيجتمع داعى الشهوة وداعى حب السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر منه الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ويبعد كلاً منهما عن صاحبه.

ومع هذه الدواعى كلها فقد آثر مرضات الله وخوفه وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنا فقال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣]، وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن؛ صبا إليهن بطبعه وكان من الجاهلين وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه. [بتصرف من الداء والدواء (٢١٩-٢٢١)].

(١) أبو السعود (٢/ ٦٢).

(٢) صفوة التفاسير (٢/ ٤٦، ٤٧).

• وقفات فى ظلال هذه الآية:

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾(١) .

* وإليكم هذه الباقة من الوقفات فى ظلال هذه الآية :

(١) ذوو البيوتات يسلمون قيادة البيت للمرأة، فتحدث المصائب المشؤومة الخطيرة:

قال العلمى: إن تسليم سياسة الخدم والعبيد لسيدة البيت هو أساس التعب والبلاء . . . وهكذا يخطئ ذوو البيوتات الكبيرة فى إباحتهم اختلاط خدمهم وعبيدهم لاسيما البيض بنسائهم، إذ هو أمر مخالف للدين والشرف والمروءة، رضوا بهذا التعبير أم غضبوا، فرضاؤهم شرف، وغضبهم شرف !(٢)

(٢) الخلوة والجمال والعزوبة والمنصب من أكثر الدواعى للفتنة(٣):

قال العلمى: نعلم حق العلم أن الذى سهل على زليخا (امرأة العزيز) مراودة عبدها العبرانى (يوسف) إنما هو المخالطة والخلوة، ولولا ذلك لما حصل شىء مما ذُكر.

قيل لأعرابية: لِمَ زنيت بعبدك، ولم تزن بحرٍّ، وما أغراك به ؟

قالت: طول السواد، وقرب الوساد.

وكما كان الاختلاط والخلوة من أسباب سهولة المراودة فى العصور القديمة، فهو من سموم العصور الحاضرة الحمقاء، ومن دواعى السفور والخلاعة والاستهتار.

وقد أثبت كُتَّاب أوربا وكاتباتها: أن سبب سقوط أكثر النساء عندهم هو اختلاط المرأة بالرجل فى البيوت والمعامل والمخازن والأسواق وغيرها من أبواب الحياة.

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٢٣).

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٤٥٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣٥١).

(٣) ابتذال المرأة وعرضها نفسها يورثها المهانة والذلة والصغار:

قال محمد رشيد رضا: إن المرأة إذا ابتذلت نفسها، فبذلتها للرجل بذلاً تحول ذلها عليه مهانة وذلاً، فإنه يحتقرها وتتحول رغبته فيها رغبة عنها، وكلما تمنّعت عليه ازداد لها حبًّا وشوقًا إليها، كما قال الشاعر:

منعت شيئًا فأكثرت الولوع به

أحب شيء إلى الإنسان ما منعا[1]

(٤) المرأة هي التي تبدأ بالتحرش بالرجل:

لقد بدأت امرأة العزيز بالتحرش وتطاولت بالمراودة، فغلقت الأبواب، مما يدل أن المرأة هي الباعث على الزنا المحرك للشهوة.

ومما يؤكد هذا - أيضًا - تقديم ذكر الزانية على الزاني في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾[2].

قال ابن عاشور: وتقدم ذكر (الزانية) على (الزاني) للاهتمام بالحكم؛ لأن المرأة هي الباعث على زنى الرجل وبمساعفتها يحصل الزنا، ولو منعت المرأة نفسها ما وجد الرجل إلى الزنا تمكينًا، فتقديم المرأة في الذكر؛ لأنه أشد في تحذيرها[3].

(٥) الجماع لا يكون إلا في خلوة وستر.

إن عملية الجماع تُرخَى على مثلها الستور وتُسدُّ النوافذ وتقام من حولها الدعائم والجدران، ولذلك قامت امرأة العزيز بإرخاء الستور وتغليق الأبواب، خوفًا أن يدخل عليهما أحد أو أن يبغتهما زوجها على حين غرة.

(٦) تكميل يوسف - عليه السلام- لمراتب الصبر:

قال السعدي: ومنها تكميل يوسف-عليه السلام- لمراتب الصبر.

---

(١) المنار (١٢/٢٩٨،٢٩٩).

(٢) سورة النور: الآية: (٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/١٤٦).

الصبر الاضطرارى: وهو صبره على أذية إخوته، وما ترتب عليها من بعده عن أبويه، وصبره فى السجن بضع سنين.

والصبر الاختيارى: صبره على مراودة سيدته امرأة العزيز مع وجود الدواعى القوية من جمالها، وعلو منصبها، وكونها هى التى راودته عن نفسه، وغلقت الأبواب وهو فى غاية الشباب، وليس عنده من قرابته ومعارفه الأصليين أحد.

ومع هذه الأمور، ومع قوة الشهوة، منعه الإيمان الصادق والإخلاص الكامل من مواقعة المحذور.

وهذا هو المراد بقوله: ﴿لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾(١).

فهو برهان الإيمان الذى يغلب جميع القوى النفسية، فكان هو مقدم السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله، وهو رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله، ثم بعد ذلك راودته المرأة، واستعانت عليه بالنسوة اللاتى قطعن أيديهن فلم تحدثه نفسه، ولم يزل الإيمان ملازمًا له فى أحواله، حتى قال بعدما توعدته بقولها: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾(٢).

فاختار السجن على مواقعة المحذور، ومع ذلك فلم يتكل على نفسه، بل استغاث بربه أن يصرف عنه شرهن، فاستجاب له ربه، فصرف عنه كيدهن، إنه هو السميع العليم.

وكما أنه كمَّل مراتب الصبر، فقد كمل مراتب العدل والإحسان للرعية حين تولى خزائن البلاد المصرية، وكمل مراتب العفو والكرم، حين قال له إخوته: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ

(١) سورة يوسف: الآية: (٢٤).

(٢) سورة يوسف: الآيتان: (٣٢، ٣٣).

يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾[١].

فارتقى عليه السلام إلى أعلى مقامات الفضل والخير، والصدق والكمال، ونشر الله له الثناء بين العالمين[٢].

(٧) العفاف والتنزه عن الفحشاء من الأسباب الموجبة للظلال:

قال ابن كثير: يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف - عليه السلام - عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهى فى غاية الجمال والمال والمنصب والشباب، وكيف غلَّقت الأبواب عليها وعليه وتهيأت له، وتصنعت، ولبست أحسن ثيابها، وأفخر لباسها، وهى مع هذا كله امرأة العزيز.

وهذا كله مع أن يوسف -عليه السلام- شاب بديع الجمال والبهاء، إلا أنه نبى من سلالة الأنبياء، فعصمه ربه عن الفحشاء، وحماه عن مكر النساء، فهو سيد السادة النجباء السبعة الأتقياء المذكورين فى «الصحيحين» عن خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم فى قوله: **«سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.. ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله[٣]»[٤].**

* * *

س: بم علل يوسف -عليه السلام- الامتناع من فعل الفاحشة ؟

ج: علل ذلك بعلل ثلاث:

أولها: قوله: ﴿معاذ الله إنه ربى﴾[٥] أى: إنه سيدى فكيف أخون سيدى فى أهله؟!

ثانيها: قوله: ﴿أحسن مثواى﴾[٦] فكيف أقابل الإحسان بالإساءة، فقد

---

(١) سورة يوسف: الآيتان: (٩١، ٩٢).

(٢) فوائد مستنبطة من قصة يوسف - عليه السلام - (ص: ٣٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٠) كتاب الأذان، ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٤) البداية والنهاية (٢/ ٢٠٣).

(٥)، (٦) سورة يوسف: الآية: (٢٣).

أوصى بى خيرًا وأكرم منزلى ومطعمى ومشربى ومسكنى، فكيف أقابل ذلك بخيانته فى أهله.

ثالثها: قوله: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[1] وفعل الفاحشة من الظلم، فلا يُفلح الزناة، ولا يسعد الخاطئون الظالمون.

* * *

س: ارتكاب الفاحشة مع المرأة المتزوجة يمنع لأمرين كل منهما مستقل بالتحريم، وقد راعى يوسف هذين الأمرين، وضح ذلك.

ج: أما المانع الأول الذى بسببه يحظر الزنا فهو: نهى الله تبارك وتعالى عنه أشد النهى.

أما المانع الثانى: فهو حق الزوج.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[2]-رحمه الله- فى «مجموع الفتاوى»:

فالفاحشة حرام لحق الله ولو رضى الزوج، وظلم الزوج فى امرأته حرام لحقه، بحيث لو سقط حق الله بالتوبة منه فحق هذا فى امرأته لا يسقط، كما لو ظلمه وأخذ ماله وتاب من حق الله، لم يسقط حق المظلوم بذلك؛ ولهذا جاز للرجل إذا زنت امرأته أن يقذفها ويلاعنها، ويسعى فى عقوبتها بالرجم، بخلاف الأجنبى، فإنه لا يجوز له قذفها ولا يلاعن، بل يُحَدُّ إذا لم يأت بأربعة شهداء، فإفساد المرأة على زوجها من أعظم الظلم لزوجها، وهو عنده أعظم من أخذ ماله.

ولهذا يجوز له قتله دفعًا عنها باتفاق العلماء، إذا لم يندفع إلا بالقتل بالاتفاق، ويجوز فى أظهر القولين قتله وإن اندفع بدونه، كما فى قصة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لما أتاه رجل بيده سيف فيه دم.

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٢٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٢١).

وذكر أنه وجد رجلا تفخَّذ امرأته فضربه بالسيف، فأقره عمر على ذلك وشكره، وقَبِلَ قوله أنه قتله لذلك إذ ظهرت دلائل ذلك.

وهذا كما لو اطلع رجل فى بيته، فإنه يجوز له أن يَفْقأ عينه ابتداء، وليس عليه أن ينذره، هذا أصح القولين، كما ثبت فى «الصحيحين» عن النبى ﷺ أنه قال: «**لو اطلع رجل فى بيتك ففقأت عينه ما كان عليك شيء**»، وكذلك قال فى الذى عض يد غيره فنزع يده فانقلعت أسنان العاض.

وهذا مذهب فقهاء الحديث، وأكثر السلف، وفى المسألتين نزاع ليس هذا موضعه، إذ المقصود أن الزانى بامرأة غيره ظالم للزوج، وللزوج حق عنده؛ ولهذا ذكر النبى ﷺ أن من زنى بامرأة المجاهد؛ فإنه يُمكَّن يوم القيامة من حسناته يأخذ منها ما شاء.

وفى «الصحيحين» عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم ؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»، قلت: ثم أى؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يُطْعَمَ معك**»، قلت: ثم أى ؟ قال: «**أن تزانى بحَليلَة جَارِكَ**»[1] فذكر الزنا بحليلة الجار، فعلم أن للزوج حقًّا فى ذلك، وكان ظلم الجار أعظم؛ للحاجة إلى المجاورة.

* فلو علل يوسف -عليه السلام- بأن هذا زنا محرم ربما طمعت فى أن تفارق الزوج وتتزوجه، فإن كيدهن عظيم، وقد جرى مثل هذا، فلما علل بحق سيده وقال: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾[2] يئست من ذلك، وعلمت أنه يراعى حق الزوج، فلا يزاحمه فى امرأته ألبتة.

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤٧٧) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٨٦) كتاب الإيمان.

(٢) سورة يوسف: الآية: (٢٣).

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾(١). .

هو نهايـة موقف طويل من الإغـراء، بعد ما أبى يوسـف فى أول الأمر واستعـصم. . وهو تصوير واقعى صـادق لحالة النفس البشرية الصـالحة فى المقاومـة والضعف؛ ثم الاعتصـام بالله فى النهاية والنجاة. . ولكن السـياق القرآنى لم يُفصِّل فى تلك المشاعر البشرية المتـداخلة المتعارضة المتغالبة؛ لأن المنهج القرآنى لا يريد أن يجـعل من هذه اللحظة معرضًـا يستغرق أكـثر من مسـاحته المناسـبة فى مـحيط القصـة، وفى محيط الحـياة البشـرية المتكاملة كذلك، فذكر طرفى الموقف بين الاعتصام فى أوله والاعتصام فى نهايته(٢).

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾(٣).

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ... ﴾ الآية.

ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن يوسف-عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- همَّ بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همت هى به منه، ولكن القرآن العظيم بيَّن براءته ﷺ من الوقوع فيما لا ينبغى، حيث بيَّن شهادة كل من له تعلق بالمسألة ببراءته، وشهادة الله له بذلك واعتراف إبليس به.

* أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم: يوسف، والمرأة وزوجها والنسوة والشهود.

أما جزم يوسف بأنه برىء من تلك المعصية، فذكره تعالى فى قوله: ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾(٤)، وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾(٥).

---

(١)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٢٤).

(٢) الظلال (٤/ ١٩٨١).

(٤) سورة يوسف: الآية: (٢٦).

(٥) سورة يوسف: الآية: (٣٣).

وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾(١).

وأما اعتراف زوج المرأة ففي قوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾(٢).

وأما اعتراف الشهود بذلك ففي قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (٣).

وأما شهادة الله عز وجل ببراءته ففي قوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾(٤).

* وقد شهد الله على طهارته أربع مرات:

أولها: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة.

والثاني: قوله: ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي: وكذلك لنصرف عنه الفحشاء.

والثالث: قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ وقد قال الله في صفة عباد الرحمن: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾(٥).

والرابع: قوله: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ وفيه قراءتان: قراءة باسم الفاعل، وأخرى باسم المفعول، فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتيًا بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص، ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه، واصطفاه لحضرته. وعلى كلا الوجهين، فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهًا عما أضافوه إليه. اهـ. من تفسير الرازي.

* وأما إقرار إبليس بطهارة يوسف ونزاهته ففي قوله تعالى: ﴿قَالَ

(١) سورة يوسف: الآية: (٣٢).
(٢) سورة يوسف: الآية: (٢٩).
(٣) سورة يوسف: الآيات: (٢٦-٢٨).
(٤) سورة يوسف: الآية: (٢٤).
(٥) سورة الفرقان: الآية: (٦٨).

﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(١)فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين . . ويوسف من سادات المخلصين بنص القرآن الكريم.

* **أما شهادة النسوة فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾**(٢).

قال الفخر الرازي(٣):هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف-عليه السلام- هذه الفضيحة إن كانوا من أتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته ولعل منهم من يقول: كنا في أول الأمر تلامذة إبليس إلى أن تخرجنا عليه فزدنا عليه في السفاهة كما قال الخوارزمي:

وكنت امرأ من جند إبليس فارتقى
بي الدهر حتى صار إبليس من جندي
فلو مات قبلي كنت أحسن بعده
طرائق فسق ليس يحسنها بعدي

* ولكن ماذا نقول في قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾(٤).

الجواب من وجهين:

الأول: أن المراد بهمٍّ يوسف بها خاطر قلبي صرفه عنه وازع التقوى، وقال بعضهم: هو الميل الطبيعي، والشهوة الغريزية المزمومة بالتقوى، وهذا لا معصية فيه، لأنه أمر جِبلِّي لا يتعلق به التكليف، كما في الحديث عنه ﷺ أنه كان يَقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك**»(٥) يعني ميل القلب الطبيعي.

---

(١) سورة ص: الآيتان: (٨٢، ٨٣).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٥١).

(٣) كلامه بتصرف من تفسيره مفاتيح الغيب.

(٤) سورة يوسف: الآية: (٢٤).

(٥) وهذا الحديث ضعيف مع أنه مشهور بين الناس.

ومثال هذا ميل الصائم بطبعه إلى الماء البارد، مع أن تقواه تمنعه من الشرب وهو صائم.

وقد قال ﷺ: «**من هم بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة كاملة**»؛ لأنه ترك ما تميل إليه نفسه بالطبع خوفًا من الله وامتثالاً لأمره، كما قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ**﴾ [(١)]، وهم بنى حارثة وبنى سلمة بالفرار يوم أُحد، كهمٍّ يوسف هذا، بدليل: ﴿**إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا**﴾ [(٢)]، لأن قوله: ﴿**وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا**﴾ يدل على أن ذلك الهم ليس بمعصية؛ لأن اتباع المعصية بولاية الله للعاصى -لو كان هذا الهم معصية- إغراء على المعصية.

بخلاف هَم امرأة العزيز، فإنه هم عزم وتصميم، بدليل أنها شقَّت قميصه من دبر. ومثل هذا التصميم على المعصية معصية يؤاخذ بها صاحبها، بدليل الحديث الثابت عن رسول الله ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار**». قالوا: يا رسول الله، قد عرفنا القاتل فما بال المقتول؟.

قال: «**إنه كان حريصًا على قتل أخيه**» فصرح ﷺ بأن تصميمه وعزمه على قتل صاحبه معصية أدخله الله بسببها النار.

* وأما تأويلهم هم يوسف بأنه قارب الهم ولم يهم بالفعل، وتأويل الهم بأنه هم بضربها، أو همَّ بدفعها عن نفسه، فكل ذلك غير ظاهر، بل هو بعيد عن الظاهر، ولا دليل عليه.

الثانى: وهو اختيار الشيخ أبى حيان: أن يوسف لم يقع منه هَمٌّ أصلاً.

قال الشنقيطى: هذا الوجه الذى اختاره أبو حيان وغيره هو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية، لأن الغالب فى القرآن وفى كلام العرب: أن

---

(١) سورة النازعات: الآيتان: (٤٠، ٤١).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٢٢).

الجواب المحذوف يُذكر قبله ما يدل عليه، كقوله: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾(١) أي: إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه.

وكقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٢) أي: إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم، وعلى هذا القول: فمعنى الآية، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، أي: لولا أن رآه هم بها.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾(٣) أي: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدى به(٤).

• وقفة لطيفة:

الهم همان: هم خطرات، وهم إصرار.

قال ابن القيم الجوزية:

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عن يوسف الصديق ﷺ من العفاف أعظم ما يكون، فإن الداعى الذى اجتمع فى حقه لم يجتمع فى حق غيره:

فإنه كان شابًّا والشباب مركب الشهوة.

وكان عزبًا ليس عنده ما يعوضه.

وكان غريبًا عن أهله ووطنه والمقيم بين أهله وأصحابه يستحى منهم أن يعلموا به فيسقط من عيونهم فإذا تغرب زال هذا المانع.

وكان فى صورة المملوك والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر.

وكانت المرأة ذات منصب وجمال والداعى مع ذلك أقوى من داعى من ليس كذلك.

وكانت هى المطالبة فيزول بذلك كلفة تعرض الرجل وطلبه وخوفه من

---

(١) سورة يونس: الآية: (٨٤).

(٢) سورة البقرة: الآية: (١١١).

(٣) سورة القصص: الآية: (١٠).

(٤) أضواء البيان/ للشنقيطى (٢/٢٠٨، ٢٠٩) بتصرف.

عدم الإجابة وزادت مع الطلب الرغبة التامة والمراودة التى يزول معها ظن الامتحان والاختبار، لتعلم عفافه من فجوره.

وكانت فى محل سلطانها وبيتها بحيث تعرف وقت الإمكان ومكانه الذى لا تناله العيون، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب لتأمن هجوم الداخل على بغتة وأتته بالرغبة والرهبة.

ومع هذا كله عفَّه الله ولم يطعها وقدم حق الله وحق سيدها على ذلك كله وهذا أمر لو ابتلى به سواه لم يعلم كيف كانت تكون حاله؟! فإن قيل فقد هم بها:

قيل عنه جوابان:

أحدهما: أنه لم يهم بها، بل لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ،... هذا قول بعضهم فى تقديرِ الآية.

والثانى: وهو الصواب أن همه كان هم خطرات، فتركه لله فأثابه الله عليه، وهمها كان هم إصرار بذلت معه جهدها، فلم تصل إليه فلم يستو الهمان.

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: الهمُّ همان: هم خطرات وهم إصرار، فهم الخطرات لا يؤاخذ به، وهم الإصرار يؤاخذ به[1].

قال شيخ الإسلام:

فإن الله تعالى قال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾[2] فقد أخبر أنه صرف عنه السوء والفحشاء، فلم يفعل سوءًا ولا فحشاءً، فإن ما صرف الله عنه انصرف عنه.

ولو كان يوسف قد أذنب، لتاب؛ فإن الله لم يذكر ذنب نبى إلا مع التوبة، ولم يذكر عن يوسف توبة، فعُلم أنه لم يذنب فى هذه القضية

---

(١) بدائع التفسير (٢/ ٤٤٥، ٤٤٦).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٢٤).

أصلاً، والله أعلم[١].

إنما أخبر عنه بأنه هم، وقد ترك لله، فهو مما أثابه الله عليه.

وفي «الصحيحين» عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه -تبارك وتعالى- قال: **«إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن هم بها فعملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة»**[٢].

فقد أخبر ﷺ في الحديث الصحيح: أن من هم بسيئة، فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة.

وفي الحديث الآخر قال: **«يقول الله: اكتبوها له حسنة إنما تركها من جرائي»**[٣] أي: من أجلي.

فالعبد إذا هم بالسيئة وتركها لله كان تركها لله حسنة كاملة، ولم يكن عليه إثم بذلك الهم.

فيوسف الصديق لم يفعل قط سيئة، بل هَمَّ وترك ما هم به، لما رأى برهان ربه، فكتب الله له حسنة كاملة.

وبرهان ربه ما تبين له به ما يوجب الترك، . . . قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ**﴾[٤].

فالشيطان إذا زين المعصية يجعل في القلب ظلمة، ويُضعف نور الإيمان ولهذا سماه: طائفًا، أي: يطيف بالقلب مثل ما يطيف الخيال بالنائم، ويغيب

---

(١) قارن بـ«الفتوى»: (١٥/ ١٤٩)، (١٧/ ٣٠، ٣١)، «منهاج السنة» (١٢/ ٤١١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٩١) كتاب الرقاق، ومسلم (١٣١).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٢٩) كتاب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) سورة الأعراف: الآيتان: (٢٠١، ٢٠٢).

عن القلب حينئذٍ من أمر الله ونهيه، ووعده ووعيده ما يناقض ذلك، فإذا كان العبد متقيًا لله أمده الله تعالى بنور الإيمان، فذكر ما فى الذنب من عذاب الله وسخطه، وما يفوته به من كرامة الله وثوابه.

والبرهان ببصيرة القلب، فيوسف الصديق أبصر برهان ربه بقلبه، فترك ما هَمَّ به.

وأما ما يُذكر أنه تمثَّل له جبريل فى صورة يعقوب، وأنه عض يده، أو أن جبريل أو يعقوب مسح على ظهره أو...، فكل هذا لا يجوز لأحد أن يصدق بشىء منه، بل هذا مما يُعلَم كذبه من وجوه متعددة، فإن من لم ينتبه إلا بهذا يكون من أفجر الناس، فكيف يقال لمن وصفه الله بالعفة والتقوى ما لا يوصف به من هو أفجر الناس.

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[١].

* * *

س: ما هذا البرهان الذى رآه يوسف -عليه السلام- فانكف بسببه عن المعصية وترك من أجله مواقعة الخطيئة ؟

ج: ابتداءً: لم يصح فى تفسير هذا البرهان خبر عن رسول الله ﷺ وإنما هى أقوال غير مرفوعة إليه صلوات الله وسلامه عليه، نذكر منها ما يلى:

١- إنه نداء نودى به يوسف ﷺ.

فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما عند الطبرى[٢] أنه قال: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾[٣] قال نودى يوسف، أتزنى فتكون كالطير وقع ريشه فذهب يطير فلا ريش له؟!!

---

(١)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٢٤).

(٢) الطبرى (١٩٠٣٢).

٢ـ إن البرهان هو صورة يعقوب - عليه السلام- تراءت ليوسف - عليه السلام-:

فقد صح عن ابن عباس من طرق عند الطبرى أنه تمثلت له صورة أبيه يعقوب عاضًا على أصابعه -وفى رواية: أنامله- فخرجت شهوته من أنامله.

٣ـ إن البرهان هو آية من آيات ربه حجزه الله بها عن معصيته.

ومن العلماء من قال: إن هذه الآية هى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾(١).

روى ذلك الطبرى بإسناده إلى محمد بن كعب.

ومنهم من قال: إنه رأى ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل، وهى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾(٢)، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾(٤).

٤ـ وذكر آخرون أن البرهان هو تمثال الملك، وقال آخرون: هو خياله.

وثمَّ أقوال أُخر.

وهذه الأقوال كما قدمت لا يصح فيها شيء عن رسول الله ﷺ، ومن ثم قال أبو جعفر الطبرى: وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبرهم عن همِّ يوسف وامرأة العزيز كل واحد منهما بصاحبه، لولا أن رأى يوسف برهان ربه، وذلك آية من الله زجرته عن ركوب ما همّ به يوسف من الفاحشة.

* * *

(١) سورة الإسراء: الآية: (٣٢).

(٢) سورة الانفطار: الآية: (١٠).

(٣) سورة يونس: الآية: (٦١).

(٤) سورة الرعد: الآية: (٣٣).

فتنة النساء

لقد أشار القرآن الكريم إلى خطر الفتنة بالمرأة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾(١).

فقدم سبحانه النساء لعراقتهن في هذا الباب، ولأن أكثر الرجال إنما دخل عليهم الخلل من قِبل هذه الشهوة، ولعله لأجل ذلك أيضًا قدم سبحانه وتعالى المرأة على الرجل في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾(٢)الآية، وقال سبحانه وتعالى حاكيًا عن عزيز مصر: ﴿ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾(٣).

وبيَّن النبي ﷺ خطر فتنة النساء قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان، فقال ﷺ: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**» (٤).

وقال ﷺ: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**»(٥).

وقال ﷺ: «**المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان**»(٦).

قال الطيبي: «والمعنى المتبادر أنها ما دامت في خِدرها لم يطمع الشيطان فيها وفي إغواء الناس، فإذا خرجت طمع وأطمع، لأنها حبائله وأعظم فخوخه».

قال المنذري: «أي ينتصب ويرفع بصره إليها ويهم بها؛ لأنها قد تعاطت

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٤).

(٢) سورة النور: الآية: (٢).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٢٨).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٩٦) كتاب النكاح، ومسلم (٢٧٤٠) كتاب الرقاق.

(٦) صحيح: رواه الترمذي (١١٧٣)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٦٦٩٠).

سببًا من أسباب تسلطه عليها، وهو خروجها من بيتها».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إنما النساء عورة، وإن المرأة لتخرج من بيتها وما بها بأس، فيستشرفها الشيطان، فيقول: إنك لا تمرين بأحد إلا أعجبتيه، وإن المرأة لتلبس ثيابها فيقال: أين تريدين؟ فتقول: أعود مريضًا، أو أشهد جنازة، أو أصلى فى مسجد، . . . وما عبدت امرأة ربها مثل أن تعبده فى بيتها[1].

الترهيب من الزنا

ولقد جاءت النصوص الكثيرة من القرآن والسنة لترهب الناس من الوقوع فى الزنا.

* قال الله سبحانه: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[2].

* وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾[3].

*ولعظيم جُرم هذه الفاحشة وشدة نكارتها جُعلت عقوبتها من أشد العقوبات وأمر أن يشهد عباده المؤمنون تعذيب فاعله.

فجُعلت عقوبة هذه الجريمة النكراء الرجم بالحجارة حتى الممات لمن زنى وهو مُحصن، والجلد والإبعاد عن البلاد عامًا لمن زنى ولم يكن قد أُحصن.

والدليل على ذلك ما أخرجه مسلم من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خذوا عنى، خذوا عنى، قد جعل الله لهن**

---

(١) صحيح موقوف: رواه الطبرانى فى الكبير (٩/ ١٨٥)، وقال الهيثمى فى المجمع (٢/ ١٥٦): رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله ثقات، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٨٤).

(٢) سورة الإسراء: الآية: (٣٢).

(٣) سورة الفرقان: الآية: (٦٨-٧٠).

سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»(١)(٢).

* بل وجاءت الأحاديث الكثيرة عن رسول الله ﷺ لتحمل الوعيد الشديد للزناة، قال ﷺ : «إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان على رأسه كالظلة - السحابة - فإذا أقلع رجع إليه»(٣).

* قال ﷺ : «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن»(٤).

* وقال ﷺ فى صلاة الخسوف: «يا أمة محمد، ما من أحد أغير من الله من أن يزنى عبده أو تزنى أمته»(٥).

- وأخبر النبى ﷺ أن انتشار الفاحشة من أسباب كثرة الأمراض فقال ﷺ : «يا معشر المهاجرين ! خصال خمس إذا ابتُليتم بهن - وأعوذ بالله أن

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٩٠) كتاب الحدود.

(٢) بعد الاتفاق على وجوب الرجم للزانى المحصن، اختلف العلماء فى حكم الجمع بين الجلد والرجم على ثلاثة أقوال:

الأول: يُجلد قبل الرجم، وهو رواية عن أحمد وبه قال الظاهرية لما يأتى:

١- حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «... والثيب بالثيب جلد مائة والرجم» [رواه عبد الرزاق (٧ / ٣٢٦) بسند صحيح].

٢- قضاء علىٍّ بن أبى طالب رضي الله عنه فى شراحة الهمدانية فإنه: «جلدها يوم الخميس مائة جلدة، ورجمها يوم الجمعة...» وقال: «جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ».

قالوا: فتوارد على الجمع بين الجلد والرجم قولُ النبى ﷺ وقضاءُ علىٍّ فوجب العمل بذلك.

الثانى: يُرجم فقط، ولا جلد عليه: وهو مذهب الجمهور: أبى حنيفة ومالك والشافعى وإحدى الروايتين عن أحمد، واستدلوا بما يلى:

١- أن الذين رجمهم النبى ﷺ كماعز والغامدية واليهوديين، لم يأت فى رواية أنه جلد واحدًا منهم، وإقامة الحد أمر يشتهر بين الناس، فلو كان شىء من ذلك لنُقل إلينا كما نقل الرجم.

*والأظهر قول الجمهور بأن الزانى المحصن يُرجم حتى الموت ولا يُجلد.

(٣) صحيح: رواه أبو داود (٤٦٩٠)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى السلسلة الصحيحة (٥٠٩).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٧٥) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٥٧) كتاب الإيمان.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٢١) كتاب النكاح، ومسلم (٩٠١) كتاب الكسوف.

تدركوهن - لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا...»[١].

- بل وأخبر النبى ﷺ عن عذاب الزناة فى قبورهم فقال ﷺ: **«إنه أتانى الليلة آتيان، وإنهما ابتعثانى، وإنهما قالا لى: انطلق وإنى انطلقت معهما...»** فذكر الحديث، وفيه: **«فانطلقنا فأتينا على مثل التنور»**، قال: وأحسب أنه كان يقول: **«فإذا فيه لغط وأصوات»**، قال: **«فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا»**، قال: **«قلت لهما: ما هؤلاء؟..»** فذكر الحديث وفيه: **«وأما الرجال والنساء العراة الذين فى مثل بناء التنور فهم الزناة والزوانى»**[٢].

* ولما كانت معصية هؤلاء بأجزائهم السفلى كانت النار تأتيهم من أسفل منهم، ولما كانت نيران الشهوات تثور عليهم فى الدنيا بين حين وآخر فيقارفون المعصية كانت النار تثور عليهم بين حين وآخر، وكانوا كلما أرادوا الخروج من المعصية والتوبة إلى الله عز وجل والانطلاق فى فضاء الطاعة قصرت بهم هممهم، وغلبت عليهم شهواتهم فعادوا إليها مرة ثانية، فهم كذلك فى تنور فى البرزخ كلما هموا بالخروج عادوا إليه مرة ثانية[٣].

• الزنا يجمع خلال الشر كلها:

قال ابن القيم رحمه الله: «ويكفى فى قبح الزنا أن الله سبحانه وتعالى - مع كمال رحمته - شرع فيه أفحش القتلات وأصعبها وأفضحها، وأمر أن يشهد عباده المؤمنون تعذيب فاعله، ومن قبحه أن الله سبحانه فطر عليه بعض الحيوان البهيم الذى لا عقل له كما ذكر البخارى فى صحيحه عن

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٤٠١٩) كتاب الفتن، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٧٩٧٨).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٧٠٤٧) كتاب التعبير.

(٣) «مواقف إيمانية» الشيخ أحمد فريد (ص ٢٨٣).

عمرو بن ميمون قال: رأيت في الجاهلية قردًا زنى بقردة فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا وكنت فيمن رجمهما»(١).

ثم قال رحمه الله ما ملخصه: والزنا يجمع خلال الشر كلها: من قلة الدين، وذهاب الورع، وفساد المروءة، وقلة الغيرة، فلا تجد زانيًا معه ورع ولا وفاء بعهد، ولا صدق في حديث، ولا محافظة على صديق، ولا غيرة تامة على أهله، ومن موجباته غضب الرب بإفساد حرمه وعياله.

ومنها سواد الوجه، وظلمته، وما يعلوه من الكآبة والمقت، الذي يبدو عليه للناظرين، ومنها ظلمة الوجه وطمس نوره.

ومنها الفقر اللازم.

ومنها أنه يُذهب حُرمة فاعله، ويُسقطه من عين ربه، ومن أعين عباده.

ومنها أنه يسلبه أحسن الأسماء، وهو اسم العفة والبر والعدالة، ويعطيه أضدادها كاسم الفاجر، والفاسق، والزاني، والخائن.

ومنها أنه يسلبه اسم المؤمن كما في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»(٢).

ومنها أنه يعرض نفسه لسكنى التنور الذي رأى النبي ﷺ فيه الزناة والزواني.

ومنها أنه يفارقه الطيب الذي وصف الله به أهل العفاف ويستبدل به الخبيث الذي وصف الله به الزناة كما قال تعالى: ﴿**الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ**﴾(٣).

وقد حرم الله الجنة على كل خبيث، بل جعلها مأوى الطيبين، ولا يدخلها إلا طيب.

---

(١) «روضة المحبين» (ص: ٣٥٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٧٥) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٥٧) كتاب الإيمان.

(٣) سورة النور: الآية: (٢٦).

ومنها الوحشة التى يجعلها الله ـ عز وجل ـ فى قلب الزانى، وهى نظير الوحشة التى تعلو وجهه، فالعفيف على وجهه حلاوة، وفى قلبه أنس، ومن جالسه استأنس به، والزانى تعلو وجهه الوحشة، ومن جالسه استوحش به.

ومنها قلة الهيبة التى تُنزع من صدور أهله وأصحابه وغيرهم، وهو أحقر شىء فى نفوسهم وعيونهم، بخلاف العفيف فإنه يُرزق الحلاوة والمهابة.

ومنها أن الناس ينظرونه بعين الخيانة، ولا يأمنه أحدٌ على حرمته ولا على ولده.

ومنها الرائحة التى تفوح عليه، يشمها كل ذى قلب سليم.

ومنها ضيق الصدر وحرجه، فإن الزناة يعامَلون بضد قصودهم، فإن من طلب لذة العيش وطيبه بما حرمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده، فإن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته، ولم يجعل الله معصيته سببًا إلى خير قط.

ولو علم الفاجر ما فى العفاف من اللذة والسرور وانشراح الصدر وطيب العيش، لرأى أن الذى فاته من اللذة أضعاف ما حصلَ له مع ربح العاقبة والفوز بثواب الله وكرامته.

ومنها أنه يعرض نفسه لفوات الاستمتاع بالحور العين فى المساكن الطيبة فى جنات عدن.

ومنها أن الزنا يجرئه على قطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، وكسب الحرام، وظلم الخلق، وإضاعة أهله وعياله، وربما قاده قسراً إلى سفك الدم الحرام، وربما استعان عليه بالسحر وأشرك وهو يدرى أو لا يدرى، فهذه المعصية لا تتم إلا بأنواع من المعاصى قبلها، ومعها، ويتولد عنها أنواع أُخر من المعاصى بعدها، فهى محفوفة بجند من المعاصى قبلها وجند بعدها وهى

أجلب شيء لشر الدنيا والآخرة، وأمنع شيء لخير الدنيا والآخرة، وإذا علقت بالعبد فوقع في حبائلها وأشراكها عزَّ على الناصحين استنقاذه، وأعيا الأطباء دواؤه، فأسيرها لا يُفدى، وقتيلها لا يودى - أي: ليس له دية - وقد وكلها الله سبحانه بزوال النعم، فإذا ابتلى بها عبد فليودع نعم الله، فإنها ضيف سريع الانتقال، وشيك الزوال، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ (٢)(٣).

• كان النبي ﷺ يبايع الرجال والنساء على ترك الزنا:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

وقال النبي ﷺ كذلك للرجال: «**بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا..**»(٥).

* فأخذ النبي ﷺ البيعة من النساء والرجال على ترك الزنا.. فيا من وقعت في تلك الجريمة تخيل أن النبي ﷺ أخذ منك البيعة على ترك الزنا فهل تستطيع أن تنقض مبايعتك للنبي ﷺ؟

• كما تدين تدان:

* عن أبي أمامة أن فتى من الأنصار أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه! فقال: «**ادنه**» فدنا منه قريبًا قال: فجلس، قال: «**أتحبه لأمك؟**» قال: لا! والله ـ جعلني الله

---

(١) سورة الأنفال: الآية: (٥٣).

(٢) سورة الرعد: الآية: (١١).

(٣) «روضة المحبين» (ص: ٣٦٠ - ٣٦٣) بتصرف.

(٤) سورة الممتحنة: الآية: (١٢).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (١٨) كتاب الإيمان، ومسلم (١٧٠٩) كتاب الحدود.

فداك ـ، قال: «**ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**».

قال: «**أفتحبه لابنتك؟**» قال لا! والله يا رسول الله، ـ جعلنى الله فداك ـ قال: «**ولا الناس يحبونه لبناتهم**». قال: «**أفتحبه لأختك؟**» قال: لا! والله ـ جعلنى الله فداك ـ قال: «**ولا الناس يحبونه لأخواتهم**» قال: «**أفتحبه لعمتك؟**» قال: لا! والله ـ جعلنى الله فداك ـ قال: «**ولا الناس يحبونه لعماتهم**». قال: «**أفتحبه لخالتك؟**» قال: لا! والله ـ جعلنى الله فداك ـ قال: «**ولا الناس يحبونه لخالاتهم**». قال: فوضع يده عليه وقال: «**اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وأحصن فرجه**» فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء[١].

* وفى قصص بنى إسرائيل أن رجلاً تاجرًا ذهب يومًا إلى متجره فجاءته امرأة جميلة لتشترى منه شيئًا فلما أرادت أن تعطيه الثمن أمسك بيديها ثم تذكر فجأة أن هذا لا يحل له، وأنه سوف يُسأل أمام ربه ـ جل وعلا ـ عما فعله فعاد إلى بيته مسرعًا فاستقبلته زوجته وهى تبكى وتقول له: لقد حدث اليوم شىء عجيب. فقال لها: ما هو؟ قالت: لقد جاء السقا ليضع الماء فى الحوض كعادته فلما وضع الماء فتح الباب فجأة على غير عادته وأمسك بيدى ثم تركها وانصرف. فابتسم زوجها وقال: دقة بدقة ولو زدت لزاد السقا.

* نعم أيها الأخ الحبيب... كما تدين تدان، وكما تزرع تحصد.

يا هاتكًا حرم الرجال وتابعًا
طرق الفساد فأنت غير مكرمِ

من يزن فى قوم بألفى درهم
فى أهله يُزنى بربع الدرهمِ

إن الزنا دَين إذا استقرضته
كان الوفا من أهل بيتك فاعلم[٢]

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٨/٢١٧٠)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى السلسلة الصحيحة (٣٧٠).

(٢) موسوعة الزواج الإسلامى السعيد/للمصنف (٥٢-٦٠).

• الدوافع التي تدفع إلى العفة والاستعفاف:

قال ابن القيم رحمه الله: وهذه الطائفة لعفتهم أسباب أقواها:

ـ إجلال الجبار، ثم الرغبة في الحور الحسان في دار القرار، فإن من صرف استمتاعه في هذه الدار على ما حرم الله عليه منعه من الاستمتاع بالحور الحسان هناك، . . . قال ﷺ: **«من يلبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»**[1]، **«ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة ..»**[2].

فلا يجمع الله للعبد لذة شرب الخمر ولبس الحرير والتمتع بما حرم الله عليه من النساء والصبيان ولذة التمتع بذلك في الآخرة، فليختر العبد لنفسه إحدى اللذتين، وليطب نفسًا عن إحداهما بالأخرى، فلن يجعل الله من أذهب طيباته في حياته الدنيا واستمتع بها كمن صام عنها ليوم فطره من الدنيا إذا لقي الله.

ودون ذلك مرتبة أن يتركها لمجرد خوف العقوبة.

ثم أدنى من ذلك أن يحمله عليها خوف العار والشنار.

ـ ومنهم من يحمله على العفة الإبقاء على محبته خشية ذهابها بالوصال.

ـ ومنهم من يحمله عليها عفة محبوبه ونزاهته.

ـ ومنهم من يحمله عليها الحياء منه والاحتشام له وعظمته في صدره.

ـ ومنهم من يحمله عليها الرغبة في جميل الذكر وحسن الأحدوثة.

ـ ومنهم من يحمله عليها الإبقاء على جاهه ومروءته وقدره عند محبوبه وعند الناس.

ـ ومنهم من يحمله عليها كرم طبعه وشرف نفسه وعلو همته.

ـ ومنهم من يحمله عليها لذة الظفر بالعفة، فإن للعفة لذة أعظم من لذة

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٨٣٢) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٧٣) كتاب اللباس والزينة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٥٧٥) كتاب الأشربة، ومسلم (٢٠٠٣) كتاب الأشربة.

قضاء الوطر، لكنها لذة يتقدمها ألم حبس النفس، ثم تعقبها اللذة، وأما قضاء الوطر فبالضد من ذلك.

ـ ومنهم من يحمله عليها علمه بما تعقبه اللذة المحرمة من المضار والمفاسد، وجمع الفجور خلال الشر كلها[١] .

● عبد الله بن حذافة .. شامة فى جبين التاريخ:

جاء فى السير أن عمر بن الخطاب وجَّه جيشًا لحرب الروم على مشارف قيساريه، وقد علم قيصر الروم من أخبار جند المسلمين وما يتحلون به من صدق إيمان ورسوخ عقيدة واسترخاص للنفوس فى سبيل الله ما علم، فأمر رجالاته أن إذا ظفروا برجل من المسلمين أن يُبقوا عليه حيًّا ويأتوه به. وشاء الله أن يقع فى الأسر عدد من المسلمين من بينهم «عبد الله بن حذافة» الذى أدرك معنى العبودية لله عز وجل فتخلص من رق المخلوقين فلا نراه إلا وهو يصوم النهار ويتلو القرآن ويقوم فى جنح الليل ويستغفر بالأسحار فقليلاً ما يهجع، وراقبوه فرأوا منه ما أدهشهم، ورأوا إن كسبوه لدينهم أنهم حققوا نصرًا وكسبًا عظيمًا. فذكروه لقيصرهم فقال: ائتونى به، فجاؤوا به فنظر إليه فوجد فيه عزة المؤمن ونجابة الأبطال فبادره قائلاً: إنى أعرض عليك أمرًا.

قال: ما هو؟ قال: أن تتنصر فإن فعلت خليت سبيلك، وأكرمت مثواك. فقال فى حزم وعزة: هيهات هيهات، إن الموت أحبّ إلىّ مما تدعونى إليه!!

فقال قيصرهم: ائتونى بملكة جمال البلاد، فجاؤوا بها -ولك أن تتصور يا أخى الحبيب حال هذا الصحابى فهو شاب فى كامل رجولته وشبابه، وفوق ذلك فهو غائب عن أهله منذ شهور- فأدخلوها عليه فتجردت من ملابسها بعد تجردها من الإيمان، ولا ذنب بعد كفر!!

---

(١) روضة المحبين (ص:٣٤٣، ٣٤٤).

فقامت ترتمي في أحضانه فيهربُ منها قائلاً: معاذ الله!! ويقرأ القرآن ولسان حاله ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾(١) حتى يئست منه تلك المرأة . . . ونقلة الأخبار يقفون على الباب يريدون أن يشمتوا بهذا الصحابي.

- وإذا بها تصرخ وتقول: أخرجوني أخرجوني. ففتحوا لها وسألوها ما الخبر؟ يريدون أن ينقلوا خبر فتنة هذا الصحابي.

قالت: والله ما يدري أأنثى أنا أم ذكر، ووالله ما أدري أأدخلتموني على بشر أم على حجر!

الله أكبر . . الإغراء بالشهوة يسقط أمام عبودية الله جل وعلا، نعم فكيف به يرضى بمتعة زائلة وهو يحلم بالحور العين.

فتأمل يا أخي كيف أنه ثبت أمام تلك الفتن والشدائد وأمام تلك الشهوة، ليكون من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: **«ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله رب العالمين»**(٢).

• عثمان بن طلحة .. وعفة تفوق الخيال:

تروي أم سلمة رضي الله عنها قصة هجرتها فتقول: ففرقوا بيني وبين زوجي، إذ واصل هو سيره إلى المدينة . . . وبيني وبين ولدي، إذ أخذه رهط زوجي، فكنت أخرج كل غداة إلى الأبطح فأجلس أبكي، حتى مر بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة فرأى ما بي فرحمني. فقال لبني المغيرة: ألا تُخرجون هذه المسكينة! فرقتم بينها وبين زوجها، وبين ولدها.

قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت. قالت: وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني. فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله.

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٣٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٢٣) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة.

فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجى، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن أبى طلحة أخا بنى عبد الدار. فقال لى: إلى أين يا بنت أبى أمية؟ قلت: أريد زوجى بالمدينة، قال: أوما معك أحد؟ قلت: لا والله إلا الله وبُنى هذا. قال: والله ما لك من مَترك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معى يهوى بى، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بى، ثم استأخر عنى حتى إذا نزلت استأخر ببعيرى فحط، ثم قيده فى الشجرة، ثم تنحًّى عنى إلى شجرة أخرى فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه فرحله، ثم استأخر عنى، وقال: اركبى، فإذا ركبت واستويت على بعيرى أتى وأخذ بخطامه فقاده، حتى ينزل بى، فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك فى هذه القرية ـ وكان أبو سلمة نازلاً بها ـ فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلى مكة، وهو يومئذ على الشرك، وما أسلم إلا فى هدنة الحديبية، والله ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة، وما رأيت صاحبًا قط أكرم من عثمان بن طلحة.

قال الجزائرى حفظه الله: حقًّا ما قالته: ما أعلم أهل بيت أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة، هذه واحدة، وأخرى فى كمال عثمان بن طلحة الذى يضرب الرقم القياسى فى الكرم النفسى، إنه يجد امرأة على بعيرها تريد السفر مسافة عشرة أيام فى صحراء لا خضراء بها ولا ماء، فيقول وقد سألها عن حالها: والله ما لك من مترك، ويقود بعيرها، ويحسن إليها فى ركوبها ونزولها، ويريها من العفة والكرم ما لم تره امرأة مثلها قط.

آه!! أين هؤلاء الرجال الأعفاء الكرماء ذوو النجدة؟! لقد أقفرت منهم الحياة، وأجدبت منهم ساحة الوجود، ولا خير فى دنيا يُفقد فيها أمثال هؤلاء[1].

---

(١) هذا الحبيب يا محب (ص: ١٥١، ١٥٢).

• الربيع بن خثيم ـ رحمه الله ـ:

أراد جماعة من المفسدين إغـواء العابد الزاهد «الربيع بن خثيم» ـ رحمه الله ـ فذهبوا إلى امـرأة من البغايا وأعطوها ألف دينار، فـسألت عن سبب ذلك! فقالوا لها: هذا ثمن قُبلة واحدة تأخذينها من الربيع بن خثيم.

ففرحت هذه المرأة البغي وقالت: ولكم فوق ذلك أن يزني.

ذهبت المرأة إلى هذا العـابد الزاهد، وتعـرضت له بعـد أن تجـردت من ملابسـها وحيائهـا المترتب على تجردها من الإيمـان . . فقام إليـها «الربيع» مسرعًـا وقال لها: كيف بك يا أمـة الله إذا نزل بك ملك الموت فقطع منك حبل الوتين؟ أم كيف بك يوم يسألك منكر ونكيـر؟ أم كيف بك يوم تقفين بين يدى العزيز الجليل؟ أم كيف بك إن لم تتوبى يوم تُرمين فى الجحيم!!

ففزعت المرأة وخرجت من عنده تائبة عابدة قائمة صائمة حتى لُقبت بعد ذلك بعابدة الكوفـة، فقال هؤلاء الفـجار الذين أرسلوها لإفـساد الربيع بن خثيم: أردنا منها أن تفسد الربيع بن الخثيم، فأفسدها الربيع علينا.

• إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم:

عن إبراهيم النخـعى قال: كان بالكوفـة فتى جميـل الوجه شديد التعـبد والاجتـهاد. فنزل فى جوار قـوم من النخع، فنظر إلى جارية منهم جـميلة فهويها وهام بها عقله، ونزل بالجـارية ما نزل بالفتى . . فأرسل يخطبها من أبيها، فأخبره أبوها أنها مُسماة لابن عم لهـا، فلما اشتد عليهما ما يقاسيانه من ألم الهوى أرسلت إليه الجارية: «قد بلغنى شدة مـحبتك لى، وقد اشتد بلائى بك. فإن شـئت زرتك، وإن شئت سهلت لك أن تـأتينى إلى بيتى. فقال للرسول: ولا واحدة من هاتين الخلتين ﴿إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1]؛ أخاف نارًا لا يخبو سعيرها، ولا يخمد لهيبها، فلما أبلغها

(١) سورة الأنعام: الآية: (١٥).

الرسول قالت: وأراه مع هذا يخاف الله!! والله ما أحد أحق بهذا من أحد، وأن العباد فيه لمشتركون ثم انخلعت من الدنيا، وألقت علائقها خلف ظهرها، وجعلت تتعبد.

* أيها الأخ الحبيب: إذا حدثتك نفسك بأى معصية فياليتك ترفع شعار ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1] إنه شعار لا يرفعه إلا من وصل إلى مرتبة الإحسان وهى: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

● عطاء بن يسار .. والمرأة البدوية:

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: خرج عطاء بن يسار وسليمان بن يسار حاجين من المدينة، ومعهما أصحاب لهما، حتى إذا كانوا بالأبواء نزلوا منزلاً، فانطلق سليمان وأصحابه لبعض حاجتهم، وبقى عطاء بن يسار قائمًا فى المنزل يصلى.

قال: فدخلت عليه امرأة من الأعراب جميلة، فلما رآها عطاء ظن أن لها حاجة، فأوجز فى صلاته ثم قال: ألك حاجة؟ قالت: نعم. قال: ما هى؟ قالت: قُم فأصب منى فإنى قد ودقت ولا بعل لى[2]. فقال: إليك عنى لا تحرقينى ونفسك بالنار.

ونظر فإذا هى امرأة جميلة، فجعلت تراوده عن نفسه، ويأبى أن يجيبها إلى ما تريد، قال: فجعل عطاء يبكى ويقول: ويحك! إليك عنى.

فاشتد بكاؤه، فلما نظرت المرأة إليه وما داخله من البكاء والجزع بكت المرأة لبكائه. قال: فجعل يبكى، والمرأة بين يديه تبكى، فبينما هو كذلك إذ جاء سليمان من حاجته، فلما نظر إلى عطاء يبكى والمرأة بين يديه تبكى فى ناحية الدرس بكى لبكائهما، لا يدرى ما أبكاهما، وجعل أصحابهما

(١) سورة الأنعام: الآية: (١٥).

(٢) ودقت: أى اشتدت عليها الشهوة، وليس لها زوج يعفها.

يأتون رجلاً رجلاً كلما أتى رجل فرآهم يبكون جلس يبكى لبكائهم، لا يسألهم عن أمرهم، حتى كثر البكاء، وعلا الصوت فلما رأت الأعرابية ذلك قامت فخرجت.

قال: فقام القوم فدخلوا. فلبث سليمان بعد ذلك وهو لا يسأل أخاه عن قصة المرأة إجلالاً له وهيبة. قال: وكان أسنّ منه.

قال: ثم إنهما قدما مصر لبعض حاجتهما، فلبثا بها ما شاء الله، فبينا عطاء ذات ليلة نائم إذ استيقظ وهو يبكى. فقال سليمان: ما يبكيك يا أخى؟ قال: فاشتد بكاؤه. قال: ما يبكيك يا أخى؟ قال: فاشتد بكاؤه. قال: ما يبكيك يا أخى؟ قال: رؤيا رأيتها الليلة. قال: وما هى؟ قال: لا تخبر بها أحدًا ما دمتُ حيًا: رأيت يوسف النبى ﷺ فى النوم، فجئت أنظر إليه فيمن ينظر إليه، فلما رأيت حُسنه بكيت، فنظر فى الناس فقال: ما يبكيك أيها الرجل؟ فقلت: بأبى أنت وأمى يا نبى الله ذكرتك وامرأة العزيز، وما ابتليت به من أمرها وما لقيت من السجن، وفرقة يعقوب، فبكيت من ذلك، وجعلت أتعجب منه، قال: فهلا تعجبت من صاحب المرأة البدوية بالأبواء؟ فعرفت الذى أراد فبكيت، واستيقظت باكيًا.

قال سليمان: أى أخى، ما كان من حال تلك المرأة؟ فقص عليه عطاء القصة، فما أخبر بها سليمان أحدًا حتى مات عطاء، فحدث بها بعده امرأة من أهله. قال: وما شاع هذا الحديث بالمدينة إلا بعد موت سليمان بن يسار رحمهما الله[١].

• عبيد بن عمير .. قمة فى المراقبة:

ذكر أبو الفرج ابن الجوزى أن امرأة جميلة كانت بمكة، وكان لها زوج، فنظرت يومًا إلى وجهها فى المرآة فقالت لزوجها: أترى أحدًا يرى هذا الوجه

---

(١) صفة الصفوة (٢/ ٨٣، ٨٤).

ولا يُفتن به؟ قال: نعم قالت: من؟ قال: عبيد بن عمير، قالت: فائذن لى فيه فلأفتننه، قال: قد أذنت لك. فأتته كالمستفتية، فخلا معها فى ناحية فى المسجد الحرام، فأسفرت عن وجه مثل فلقة القمر، فقال لها: يا أَمَةَ الله استترى، فقالت: إنى قد فُتنت بك. قال: إنى سائلك عن شىء، فإن أنت صدقتينى نظرت فى أمرك. قالت: لا تسألنى عن شىء إلا صدقتك. قال: أخبرينى لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك أكان يسرك أن أقضى لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا. قال: صدقت. قال: فلو دخلت قبرك، وأُجلست للمسألة أكان يسرك أنى قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا. قال: صدقت.

قال: فلو أردت الممر على الصراط، ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين، أكان يسرك أنى قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا. قال: صدقت.

قال: فلو جىء بالميزان، وجىء بك، فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل أكان يسرك أنى قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا. قال: صدقت.

قال: اتقى الله، فقد أنعم عليك وأحسن إليك.

قال: فرجعت إلى زوجها. فقال: ما صنعت؟ قالت: أنت بطال ونحن بطالون. فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة، فكان زوجها يقول: ما لى ولعبيد بن عمير أفسد علىَّ امرأتى، كانت فى كل ليلة عروسًا فصيَّرها راهبة[١][٢].

* * *

---

(١) روضة المحبين (ص: ٣٤٠).

(٢) موسوعة الزواج الإسلامى السعيد/ للمصنف (ص: ١٠١-١٠٨).

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾

ثم أخبر تعالى بما حصل من المفاجأة العجيبة بقدوم زوجها وهما يتسابقان نحو الباب، ولا تزال هي في هياجها الحيواني ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾(١) أي: تسابقا نحو باب القصر، . . هو للهرب، وهي للطلب ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾(٢) أي: شقت ثوبه من خلف لأنها كانت تلحقه فجذبته فشقت قميصه ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾(٣) أي: وجدا العزيز عند باب القصر فجأة وقد حضر في غير أوان حضوره، وبمهارة فائقة تُشبه مهارة إبليس انقلب الوضع فأصبح الظالم مظلومًا، والبريء متهمًا ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٤) أي: ما جزاؤه إلا السجن أو الضرب ضربًا مؤلمًا وجيعًا ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾(٥) أي: قال يوسف مكذبًا لها: هي التي دعتني إلى مقارفة الفاحشة لا أني أردت بها السوء ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾(٦) قال ابن عباس: كان طفلاً في المهد أنطقه الله(٧)، وكان ابن خالها(٨). . . . والراجح أنه كان رجلاً كبيرًا.

قال في البحر: وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة (٩) ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾(١٠) أي: إن كان ثوبه شُقَّ من أمام فهي صادقة وهو كاذب ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(١١) أي: إن كان ثوبه شُقَّ من

(١)، (٢)، (٣)، (٤) سورة يوسف: الآية: (٢٥).

(٥)، (٦)، (١٠) سورة يوسف: الآية: (٢٦).

(٧) وقيل: إنه رجل ذو عقل كان الوزير يستشيره في أموره . . وقال السدي: كان ابن عمها. قال القرطبي: وهو الصحيح في الباب، والله أعلم.

(٨) الطبري (١٢/ ١٩٣).

(٩) البحر (٥/ ٢٩٧).

(١١) سورة يوسف: الآية: (٢٧).

الوراء فهى كـاذبة وهو صادق، لأن الأمر المنطقى أن يُشـق الثوب من خلف إن كانت هى الطالبـة له وهو الهارب ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾(١) أى: فلما رأى زوجها أن قد شُق من الوراء ﴿قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ﴾(٢) أى: إن هذا الأمر من جملة مكركن واحتيالكن أيتها النسوة ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾(٣) تأكيد لما سبق ذكره. . . أى: مكركن معشر النسـوة واحتيالكن للتخلص مما دبرتن شيئًا عظيمًا ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾(٤) أى: يا يوسف اكتم هذا الأمر ولا تذكره لأحد(٥).

* قال صاحب الظلال-رحمه الله-:

وهنا تبدو لنا صـورة من«الطبقة الراقـية» فى الجاهليـة قبل آلاف السنين وكأنها هى هى اليوم شاخصة.

رخاوة فى مواجهـة الفضائح الجنسية؛ وميل إلى كتمـانها عن المجتمع، وهذا هو المهم كله :

﴿قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾(٦).

هكذا. إنه من كيـدكن إن كيـدكن عظيم . . فهى اللبـاقة فى مواجـهة الحادث الذى يثير الدم فى العروق. والتلطف فى مجابهة السيدة بنسبة الأمر إلى الجنس كله، فيما يشبه الثناء. فإنه لا يسوء المرأة أن يقال لها: إن كيدكن عظيم! فهو دلالة فى حسها على أنها أنثى كـاملة مستوفية لمقدرة الأنثى على الكيد العظيم!

---

(١)، (٢)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٢٨).

(٤) سورة يوسف: الآية: (٢٩).

(٥) صفوة التفاسير (٤٨/٢).

(٦) سورة يوسف: الآيتان: (٢٨، ٢٩).

والتفاتة إلى يوسف البرىء: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾[١]. .

فأهمله ولا تُعِره اهتمامًا ولا تتحدث به. . وهذا هو المهم . . محافظة على الظواهر!

وعظة إلى المرأة التى راودت فتاها عن نفسه، وضُبطت متلبسة بمساورته وتمزيق قميصه: ﴿وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[٢].

إنها الطبقة الأرستقراطية، من رجال الحاشية، فى كل جاهلية[٣].

وفى هذا إشارة إلى أن العزيز كان قليل الغيرة حيث لم ينتقم ممن أرادت خيانته، وتدنيس فراشه بالإثم والفجور. . . قال ابن كثير: كان زوجها لين العريكة سهلاً، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه[٤].

● الدروس المستفادة من الآيات:

(١) الحق والباطل دائمًا فى صراع وسباق.

إن قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ إشارة إلى تكلفهما السبق، فكل واحد منهما يحاول أن يكون هو السابق إلى الباب، فالمتسابقان اثنان والمسار واحد ولكن الهدف مختلف.

قال العلمى:

«فولى وجهه شطر الباب، فرَّ هاربًا وللنجاة طالبًا، فلطمت يدًا بيد وضربت صدرها، وما عتمت أن لحقته، فذهبا يتسابقان نحو الباب، وهما بين هارب وطالب، طريد هارب، وصائد طالب، تسابقا تسابقا يتمنى المصور أن يراه، فيرسمه، لكى يرسم صورة الطهارة والعفة فى ذلك الشاب الشريف، ويرسم صورة الخيانة والدناءة فى تلك المرأة الساقطة.

---

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (٢٩).

(٣) الظلال (٤/١٩٨٣).

(٤) مختصر ابن كثير (٢/٢٤٧).

هو يستبق لباب الجنة، وهى تستبق لباب جهنم.

هو يستبق لباب الطهارة، وهى تستبق لباب الدنس.

هو يستبق لباب الشرف والعلو، وهى تستبق لباب الدناءة والانحطاط.

كل منهما يريد الباب، ولكن لأمرين مختلفين، كل منهما يريد الباب، وهو عمل فى ظاهره واحد، ولكنه فى باطنه مختلف أيما اختلاف، صورة هذا العمل واحدة، ولكن الروح مختلفة: هو استبق الباب، ليخرج منه، وهى استبقت الباب لتمنعه من الخروج.

هو استبق الباب ليفتحه، وهى استبقت الباب لتسده فى وجهه.

هو استبق الباب ليفر بدينه ومروءته، وهى استبقت الباب لتهدم دينها ومروءتها»[1].

(٢) أن الماكر يضرب ويشتكى!!!

إن امرأة العزيز وهى تطارد يوسف الصديق الفار بدينه الخارج من باب الدار خوفًا من العار والنار، ثم وهى تشكيه لزوجها (فوطفيار) يصدق عليها مثل معروف فى بلاد الشام-حرسها الله- «ضربنى وبكى وسبقنى واشتكى».

وإلى هذا المعنى يشير العلمى حيث قال:

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أى: تسابق يوسف وزليخا الباب البرانى الذى هو المخرج من الدار والمخلص من العار، لأنها ضايقته وضغطت على حريته، وشددت عليه وأحرجته، ولما كانت شدة الضغط تولد الانفجار ولما كان الإحراج يؤدى إلى الإخراج، نفر منها، فأسرع يريد الباب ليخرج، وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج، ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾ اجتذبته من خلفه، فانقدَّ أى: انشق قميصه حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه، وما كان منه إلا أن نزعه عن جسمه ليسهل عليه التخلص منها، فأخذته ملفوفًا فى يدها ﴿وَأَلْفَيَا

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٥٦، ٢٥٧).

سَيِّدَهَا﴾ وصادفا بعلها فوطيفار ﴿لَدَا الْبَابِ﴾ مقبلاً يريد أن يدخل. وقيل: كان جالسًا مع ابن عم المرأة فما تصورت إلا كأنها أفاقت من سُبات، وقد رجعت إليها حواسها، فراعها ذلك، والتمست مخرجًا أرادت أن تُلهب به عليه سيدها ﴿قَالَتْ﴾ بلسان المشتكى المظلوم جئنا بالعبيد لكى يحرسونا فإذا هم الخائنون»[١].

(٣) إذا كان غريمك القاضى فلمن تشتكى:

لقد ضربت امرأة العزيز وبكت واستبقت الباب فلما وجدت زوجها اشتكت ثم تحولت بحركة بهلوانية من متظلم إلى قاض.

لأن السامع يسأل: ماذا حدث عند مفاجأة سيدها وهم فى تلك الحالة؟

وابتدرته بالكلام إمعانًا فى البهتان بحيث لم تتلعثم، تُخيل له أنها على الحق، وأفرغت الكلام فى قالب كلى ليأخذ صيغة القانون، وليكون قاعدة لا يعرف المقصود منها، فلا يسع المخاطب إلا الإقرار لها.

ولعلها كانت تخشى أن تكون محبة العزيز ليوسف - عليه السلام - مانعة له من عقابه، فأفرغت كلامها فى قالب كلى، وكانت تريد بذلك أن لا يشعر زوجها بأنها تهوى غير سيدها، وأن تخيف يوسف - عليه السلام - من كيدها لئلا يمتنع منها مرة أخرى.

ورددت يوسف - عليه السلام- بين صنفين من العقاب، وهما: السجن، أى: الحبس، وكان الحبس عقابًا قديمًا فى ذلك العصر، واستمر إلى زمن موسى- عليه السلام- فقد قال فرعون لموسى - عليه السلام -: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[٢] وأما العذاب، فهو أنواع.

(٤) يجب على المسلم أن يهرب من الفتن حفاظًا على دينه.

قال ابن الجوزى: «يوسف والمرأة، تبادرا إلى الباب يجتهد كل واحد

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٥١٩).

(٢) سورة الشعراء: الآية: (٢٩).

منهما أن يسبق صاحبه، وأراد يوسف أن يسبق ليفتح الباب ويخرج، وأرادت هى - إن سبقت - إمساك الباب لئلا يخرج، فأدركته فتعلقت بقميصه من خلفه، فجذبته إليها، فقدَّت قميصه من دبر، أى: قطعته من خلفه، لأنه كان هو الهارب وهى الطالبة له»[1].

(٥) أن الزوج سيدٌ فى بيته وليس جلادًا.

قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾.

وفى هذا بيان منزلة الزوج من المرأة، ليست المرأة أمة ولا عبدة حتى لا يسىء الفهم بعضهم، وهل وجود سيد يأمر فيطاع، وينهى فينزجر الناس، هل وجوده استعباد أم تنظيم لحياة العباد؟

هذه منزلة الزوج، فلا يسيئن استخدام صلاحياته، ولا يتعسفن، ويظن نفسه إلهًا جبارًا فى الأرض، وظالمًا جلادًا لهذه المرأة، ولا يكون إمعة لا يحرك ساكنًا، ينقاد لأهواء وشهوات زوجته ومطالبها ومطامحها التى لا تنتهى، حتى لو قطعت صلته بالله أو بأرحامه، ولو جرته إلى حافة الإفلاس. . .

إن الحياة الزوجية شركة بين عاقلين متزنين ملتزمين بأحكام الدين، ومدير هذه المؤسسة الرجل، والمنفذ الفعلى المرأة، وليست الحياة الزوجية حلبة صراع، ومناكفة بين ندَّين متربص كل منهما بالآخر، إنها ساعتئذ الجحيم بعينه[2].

(٦) امرأة العزيز كانت على يقين من أن زوجها سيلبى كل رغباتها.

قال عبد الحميد كحيل: «رفعت لزوجها الشكوى وأصدرت الحكم على يوسف، وفى هذا دليل على وثوقها بأن زوجها لا يخالف لها أمرًا، ولا يعارض لها رغبة، فاتهمت يوسف بأنه أراد بها سوءًا، أى: فاحشة، وطلبت معاقبته بالسجن، أو تعذيبه عذابًا يؤلمه، وكأنها خافت أن يبيعه سيده أو

---

(١) زاد المسير (٤/ ٢١٠، ٢١١).

(٢) سورة يوسف دراسة تحليلية (ص: ٣٦٨، ٣٦٩).

يقتله، فحددت نوع الجـزاء حرصًا على الإبقاء علـى حياته، ودليلاً تقـدمه لنفسـها عن غير وعى على أنها ما زالت تحبه وما زالت تطمع فيه، وسجنه أو تعذيبه قد يخضعه لها» [١].

(٧) مشروعية الدفاع عن النفس ولو بما يسيئ إلى الخصم [٢].

قال عبد الحميد كحيل:«لم يسبقها يوسف بالكلام، لأن الكريم لا يسرع بكشف أستار الناس، ولكنه لما اتهـمته زورًا وبهـتانًا اضطر إلى الـدفاع عن نفسه إظهارًا للحقيقة» [٣].

(٨) من شأن المحب إيثار المحبوب.

قال القرطبى:«قال العلماء: لما برأت نفـسها، لم تكن صادقة فى حبه، لأن من شأن المحب إيثار المحبوب» [٤].

(٩) عدم جـواز الدفاع عن الخـائن والمجرم، وتحريم المحـاماة عن المجـرمين والدفاع عن الخائنين.

قـال العلمي:«نحن لا يسـعنا إلا أن نقدم لهـذا الشـاهد كل شكر وثناء يليقان بعدالته وإنصافه، حيث تكلم بما أوجبه عليه ضميره، ولم يراع قرابته لزليخا، ولم يدلس، لأنه صهر العزيز، بل نطق بما أوحاه إليه الإنصاف.

قال تعالى: ﴿ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [٥] فلا يجوز للمحامى أو للحاكم أن يخـاصـم البرءاء لأجل الخـائنين... قال تعـالى: ﴿ وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ [٦][٧].

---

(١)نظرات فى التفسير (ص٥٧).

(٢)أيسر التفاسير (٢/ ٦٠٧).

(٣)نظرات فى التفسير (ص ٥٨).

(٤)الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٧٢).

(٥)سورة النساء: الآية: (١٠٥).

(٦)سورة النساء: الآية: (١٠٧).

(٧)مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٥٤٢، ٥٤٣).

(١٠) تعليم للملوك ومن دونهم أن ينزلوا على حكم القضاة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[1].

قال العلمي: «وفي هذه الآية تعليم للملوك ومن دونهم أن ينزلوا على حكم القضاة ويعملوا بقضائهم، كما فعل العزيز إذ نزل على حكم ذلك الحاكم (الشاهد)[2].

(١١) من المحن تأتي المنح.

قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[3].

قال العلمي: «إن في مصيبة يوسف بقدّ قميصه فائدة كبرى، وهي براءته مما نُسب إليه، ورُبَّ محنة وسطها منحة:

من عـــرف اللـه أزال التـــهـــمـــة

وقـــال كل فـــعلـه لحكمــــه[4]

* * *

س: لماذا قدَّم الشاهد قول: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ وهو يرى أن القميص قد من دبر؟

ج: ذلك والله أعلم: لنفي التهمة عن نفسه حتى لا يُظن أنه متحامل على امرأة العزيز، وهذا كقول مؤمن آل فرعون في شأن موسى عليه السلام: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾[5] وكذلك كما في آية أخرى: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[6].

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٢٨).

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٥٥٣).

(٣) سورة النور: الآية: (١١).

(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٥٥٦).

(٥) سورة غافر: الآية: (٢٨).

(٦) سورة سبأ: الآية: (٢٥).

ووجه آخر في الجواب: أن يقال: لعله أدلى بهذه الشهادة قبل أن يرى القميص، والله أعلم.

(١٢) المرأة ضعيفة.. ولذا تلجأ إلى الكيد والمكر أحيانًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [١].

يريد بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ إنه من كيدك، ولكنه عبر بصيغة الجماعة، ليشير إلى أن الكيد طبيعة مدفونة فى قلب جميع النساء، فجُل النساء فى الخدعة والمحال كزليخا، وزليخا فى الختل والحيلة صورة صادقة لجل النساء.

هذا وإن سبب اتصاف المرأة بالكيد أكثر من الرجل، هو أنها لما أضلت حريتها فى ظلمات الأجيال الماضية، وفقدت استقلالها وعزها، وأدركها العجز عن تناول ما ترغب إليه بالطرق المسنونة، بسبب ظلم الرجل لها، اضطرت إلى استعمال الحيلة، وأخذت تعامل الرجل -وهو سيدها وولى أمرها- كما يعامل المسجون حارس سجنه والحفيظ عليه، ونمت فيها ملكة المكر إلى غاية ليس وراءها منازع، فأصبحت ممثلة ماهرة ومشخصة قادرة، تظهر فى المظاهر المتضادة، والألوان المختلفة، فى كل حال بحسبها، وذلك لا عن عقل وحكمة، وإنما هى حيل الثعالب، وعذرها فى ذلك أنها ليست حرة مع ولى أمرها، من أب أو زوج مثلاً.

الكيد موجود فى الرجال والنساء، إلا أن النساء ألطف كيدًا، وأنفذ حيلة، وبذلك يغلبن الرجال [٢].

(١٣) فساد أخلاق الرجل مدعاة لفساد أهل بيته.

قال العلمى -رحمه الله-: «حقًّا إن العوامل التى تفسد المرأة، وتحول أخلاقها هذا التحول المشئوم ترجع كلها إلى تحول أخلاق الرجل، فإذا صار

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٢٨).

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/٥٥٨، ٥٥٩).

هـو فاسقًا، فلا ينتظر أن تكون هى العفيفة، وإذا هو هدم المسجد، فلا يعقل أن تبنى هى المأذنة، وإذا كان هـو متهـتكًا، فـلا يمكن أن تبـقى هى حيـة مصونة، هذه هى القاعدة الاجتماعية (الغالبة) وما خرج عنها فهو شاذ وقليل ما هم[1].

(١٤) بيان ضعف الغيرة فى أصحاب القصور والطبقات المترفة.

قال القرطبى:

وقيل إن القائل ليوسف: أعرض، ولها: استغـفرى هو زوجها الملك، وفيه قولان:

أحدهما: أنه لم يكن غيورًا، فلذلك، كان ساكنًا.

الثانى: أن الله تعالى سـلبه الغيـرة وكان فيـه لطف بيوسف حـتى كفى بادرته وعفا عنها[2].

(١٥) المعاصى أنواع:

قال العلمى: المعاصى ثلاثة أنواع: نوع فيه الحـد: كالزنا والسرقة وشرب الخمر، ونوع فيـه الكفارة: وذلك كالجمـاع فى الإحرام، وفى نهار رمضان والحنث فى اليـمين، ونوع لا حد فـيه ولا كـفارة، بل فيه الـتعزير: وذلك كسـرقة ما لا قطع فـيه، واليميـن الغموس، والنظر إلى الأجنبيـة بشهوة، ومحاولة ارتكاب الـفاحشة وأخذه فى أسـبابها وإقامة الدعـوى الباطلة على أهل الفضل والدين كما وقع من امرأة العزيز لما راودت يوسف، ثم لما افترت عليه، فهذا النوع الثالث فيه التعزير فقط والتعزير أنواع:

منها التشـهير وتغيير الهـيئة، ومنها: الضرب، ومنها: الحبس، ومنها: الربط، ومنها: النفى[3].

(١) مؤتمر تفسـير سورة يوسف (١/ ٥٧٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٧٥).

(٣) مؤتمر تفسـير سورة يوسف (١/ ٥٧٦).

(١٦) **الاستغفار أمان في أن لا تقع عقوبة من الناس ولا عذاب من الله.**

قال البقاعي: «﴿وَاسْتَغْفِرِي﴾ أي: اطلبي الغفران ﴿لِذَنْبِكِ﴾ في أن لا يحصل لك عقوبة مني ولا من الله؛ واستأنف بيان ما أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّكِ كُنتِ﴾ أي: كونًا جبليًّا ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ أي: العريقين في الخطإ بغاية القوة ، يقال: خطئ يخطأ - إذا أذنب متعمدًا»[1].

* * *

س: هل كانت امرأة العزيز مؤمنة حتى يقال لها ﴿اسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾؟

ج: لا يظهر أنها كانت مسلمة، وذلك لقول يوسف - عليه السلام- وهو في السجن ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[2].

وعليه: فقوله لها: ﴿اسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ أي: اطلبي مغفرة زوجك وعدم مؤاخذته لك على ما بدر منك، والله أعلم.

* * *

س: لماذا قال ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ ولم يقل من «الخاطئات» ؟

ج: قال الطبري-رحمه الله-:

وقيل إنك: ﴿كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ ولم يقل: من الخاطئات، لأنه لم يقصد بذلك قصد الخبر عن النساء ، وإنما قصد به الخبر عمَّن يفعل ذلك فيخطئ.

وقال القرطبي-رحمه الله-: «ولم يقل من الخاطئات لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث، فغلَّب المذكر، والمعنى: من الناس الخاطئين، أو من القوم الخاطئين، مثل: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾[3] ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٣٣).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٣٧).

(٣) سورة النمل: الآية: (٤٣).

(٤) سورة التحريم: الآية: (١٢).

(١٧) قد يكون كتمان بعض الأمور هو الأليق.

قال ابن كثير: **﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾**(١) أى: هذا الذى جرى من مكرك أنت راودته عن نفسه ثم اتهمته بالباطل ثم ضرب بعلها عن هذا صفحًا فقال: **﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾**(٢) أى: لا تذكره لأحد؛ لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن، وأمرها بالاستغفار لذنبها الذى صدر منها والتوبة إلى ربها فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه(٣)(٤).

وشاع الخبر فى المدينة

ومضت الأمور فى طريقها. فهكذا تمضى الأمور فى القصور!

ولكن للقصور جدرانًا، وفيها خدم وحشم. وما يجرى فى القصور لا يمكن أن يظل مستورًا. وبخاصة فى الوسط الأرستقراطى، الذى ليس لنسائه من همٍّ إلا الحديث عما يجرى فى محيطهن. وإلا تداول هذه الفضائح ولوكها على الألسن فى المجالس والسهرات والزيارات(٥).

قال تعالى: **﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾**(٦)(٧).

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٢٨).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٢٩).

(٣) البداية والنهاية (٢/ ٢٠٤).

(٤) بتصرف من إتحاف الإلف.

(٥) الظلال (٤/ ١٩٨٣).

(٦) سورة يوسف: الآية: (٣٠).

(٧) قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف:٣٠].

إن من يهتك الستر الذى بينه وبين الله يهتك الله الستر الذى بينه وبين الناس، قد بلغت السرية =

يذكر تعالى ما كان من قِبَل نساء المدينة، من نساء الأمراء وبنات الكبراء في الطعن على امرأة العزيز وعيبها، والتشنيع عليها في مراودتها فتاها، وحبها الشديد له، وهو لا يساوي هذا، لأنه مولى من الموالي وليس مثله أهلا لهذا.

ولهذا قلن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في وضعها الشيء في غير محله[1].

• وقفات هامة مع هذه الآية:

(١) السر إذا جاوز اثنين شاع بين الناس.

فقد يسأل سائل ويقول: من الذى أشاع الخبر حتى قال نسوة فى المدينة: ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾؟

والجواب: فى الغالب أن بيوت الأمراء والوزراء والملوك والكبراء تكون مراقبة، ثم إن الخدم الذين بها يتحدثون عما يدور فيها فى كثير من الأحيان، فلعل أحد الخدم قد تحدث بذلك أو الشاهد قد تحدث بذلك، أو امرأة العزيز أو العزيز نفسه، فالله أعلم.

* * *

س: لماذا قيل: ﴿تُرَاوِدُ﴾ ولم يقل راودت؟

ج: ذلك والله أعلم: كما قال بعض العلماء: للتنبيه على أن المراودة صارت مهنةً لها وديدنًا.

* * *

س: كيف قيل: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ وانما هو عبدٌ لزوجها؟

ج: قال بعض أهل العلم.. إنه وهبه لها.

= كمالها عند إغلاق الأبواب، والتى كانت سبعة أبواب، حيث الإرادة أن يتم المنكر معها وحدها، لكن شاء الله أن يطلع على ذلك الشهود وزوجها ونساء المدينة بصورة علنية وعامة.

(١) قصص الأنبياء/للحافظ ابن كثير (ص:٢٧٨).

وقال آخرون: بل نسب إليها لكونه يخدمها، وإن كانت خدمته لها بأمر زوجها.

وقال آخرون: إن هذا الأدب الذى كان يمشى عليه المصريون الأقدمون فى تسمية العبد «فتى» هو نِعم الأدب، ففى الحديث الشريف: **«لا يقل أحدكم عبدى وأمتى، وليقل: فتاى وفتاتى»**[1].

والفتى من الناس: الشاب، ويستعار للمملوك أو التابع أو الخادم أو المستخدم للحكومة، قال تعالى: ﴿**وإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ**﴾[2] لأن يوشع بن نون كان تابعًا لموسى -عليهما السلام- وقال تعالى: ﴿**وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ**﴾[3] لأن رئيس السقاة المسمى «نبو» ورئيس الخبازين المدعو «مجلث»، كانا مستخدمين فى حكومة الهكسوس، وقال تعالى: ﴿**وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ**﴾[4] لأن هؤلاء - أيضًا - مستخدمين عند يوسف أيام عمالته بمصر[5].

(٢) وصف النسوة لامرأة العزيز بالضلال ليس معناه أنهن على الهدى.

فهذا الذى يقلنه لا يدل على أخلاقية وشرف، فقد يروى الناس مثل هذه الأخبار مع تمنيها أن يتاح لهم مثلها، وقد يكون كلامهن من حب الغيرة أو حب الانتقام.

ووصفهن للمرأة بأنها فى ضلال مبين لا يدل - أيضًا - على أنهن على هدى، فمفهومهن للضلال غير المفهوم الذى نعرف، وحتى لو كان الذى نعرف، فإن التغنى بالشعارات والمبادئ والفضائل والمُثل شىء والتطبيق شىء آخر[6].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥٥٢) كتاب العتق، ومسلم (٢٢٤٩) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة الكهف: الآية: (٦٠).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٣٦).

(٤) سورة يوسف: الآية: (٦٢).

(٥) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٥٨٧).

(٦) سورة يوسف دراسة تحليلية (٣٧٧) / أحمد نوفل.

(٣) مقدمات الخيانة الزوجية جزاء لكل زوج يتساهل فى حفظ زوجته.

إن التهاون الذى يبدو من الزوج فى شأن زوجته، قد يكون له سوء مغبة، ليس فى جانب الزوجة فقط، أو فى جانبها وأهلها فحسب، بل إن سوء المغبة قد يلحق الزوج، لاسيما إذا كان هو المتسبب.

انظر يا رعاك الله إلى هؤلاء النسوة المصريات عندما أردن ذكر زليخا بالإقذاع لم يسمينها باسمها الشخصى بأن يقلن: زليخا تراود فتاها عن نفسه، بل نسبنها إلى زوجها قائلات: ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾[1] وتناسين اسم أبيها وأسرتها، كأنها حواء ثانية، خُلقت من ضلع من أضلاع زوجها اليسرى، فهو لها وهو عصبتها.

فلماذا يا تُرى هذه النسبة؟

قلنا: إنها للإشارة لنسبة العار والعيب للعزيز نفسه بنسبة هذه الساقطة إليه.

ولماذا هذا يا تُرى؟

قلنا: لأنه هو الذى تسبب فهذا جزاء كل زوج يتساهل فى حفظ زوجته مما يخاف منها العار.

نحن لا نلوم عزيز مصر فى إطلاق يد فتاه فى سائر أموره الاقتصادية ورؤيته الصادر منها والوارد إليها ورؤيته سائر أحوال البيت ولكن ما هو عذره فى السماح لزوجته زليخا أن تدخل على فتاه فى غرفته الخاصة به وبأشغاله؟ وما هو عذره فى أمره ليوسف أن يدخل القصر فى أى وقت شاء لرؤية بعض اللوازم سواء أكانت العزيزة زليخا فى القصر أم لا؟ لا فرق فى ذلك حتى ولو كان هناك خلوة فلا منع ولا حظر أصلاً وهل يجمع بين النار والحطب[2].

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٣٠).

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٥٨٦، ٥٨٧) / العلمى.

س: قول النسوة في المدينة: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ متضمن للمكر من وجوه، اذكر بعض هذه الوجوه.

ج: ذكر ذلك الإمام ابن القيم[1]-رحمه الله- فقال:

قول الله تعالى ذكره: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[2].

وهذا الكلام متضمن لوجوه من المكر.

أحدها: قولهن: ﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا ﴾ ولم يسموها باسمها بل ذكروها بالوصف الذى ينادى عليها بقبيح فعلها بكونها ذات بعل فصدور الفاحشة منها أقبح من صدورها ممن لا زوج لها.

الثاني: أن زوجها عزيز مصر ورئيسها وكبيرها وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها.

الثالث: أن الذى تراوده مملوك لا حر، وذلك أبلغ فى القبح.

الرابع: أنه فتاها الذى هو فى بيتها وتحت كنفها فحكمه حكم أهل البيت بخلاف من تطلب ذلك من الأجنبى البعيد.

الخامس: أنها هى المراودة الطالبة.

السادس: أنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ حتى وصل حبها له إلى شغاف قلبها.

السابع: أن فى ضمن هذا: أنه أعف منها وأبر وأوفى حيث كانت هى المراودة الطالبة وهو الممتنع عفافًا وكرمًا وحياء وهذا غاية الذم لها.

الثامن: أنهن أتين بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالة على الاستمرار والوقوع حالاً واستقبالاً وأن هذا شأنها ولم يقلن راودت فتاها وفرق بين

---

(١) انظر «التفسير القيم» (ص: ٣١٤، ٣١٥)، وإغاثة اللهفان (ص: ٣٨٣).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٣٠).

قولك فلان أضاف ضيفًا وفلان يقرى الضيف ويطعم الطعام ويحمل الكَل فإن هذا يدل على أن هذا شأنه وعادته.

التاسع: قولهن إنا لنراها فى ضلال مبين أى: إنا لنستقبح منها ذلك غاية الاستقباح فنسبن الاستقباح إليهن ومن شأنهن مساعدة بعضهن بعضًا على الهوى ولا يكدن يرين ذلك قبيحًا كما يساعد الرجال بعضهم بعضًا على ذلك فحيث استقبحن منها ذلك كان هذا دليلاً على أنه من أقبح الأمور وأنه مما لا ينبغى أن تساعد عليه ولا يحسن معاونتها عليه.

العاشر: أنهن جمعن لها فى هذا الكلام واللوم بين العشق المفرط والطلب المفرط فلم تقتصد فى حبها ولا فى طلبها.

أما العشق فقولهن: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أى: وصل حبه إلى شغاف قلبها.

وأما الطلب المفرط فقولهن: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ والمراودة: الطلب مرة بعد مرة فنسبوها إلى شدة العشق وشدة الحرص على الفاحشة.

فلما سمعت بهذا المكر منهن هيأت لهن مكرًا أبلغ منه فهيأت لهن متكئًا ثم أرسلت إليهن فجمعتهن وخبأت يوسف - عليه السلام - عنهن.

وقيل: إنها جمَّلته وألبسته أحسن ما تقدر عليه، وأخرجته عليهن فجأة، فلم يرعهن إلا وأحسن خلق الله وأجملهم قد طلع عليهن بغتة، فراعهن ذلك المنظر البهى، وفى أيديهن مُدى - سكاكين - يقطعن بها ما يأكلنه فدهشن حتى قطعن أيديهن وهن لا يشعرن.

* * *

نساء الأمراء والكبراء يقطعن أيديهن من جمال (يوسف) .

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾[١] أى: بتشنيعهن عليها والتنقص لها، والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها وعشق فتاها، فأظهرن ذمًّا وهى معذورة فى نفس الأمر، فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن، وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن، ولا من قبيل ما لديهن، فأرسلت إليهن فجمعتهن فى منزلها[٢].

وأقامت لهن مأدبة فى قصرها .... وندرك من هذا أنهن كن من نساء الطبقة الراقية، فهن اللواتى يُدعَين إلى المآدب فى القصور، وهن اللواتى يؤخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر. ويبدو أنهن كن يأكلن وهن متكئات على الوسائد والحشايا على عادة الشرق فى ذلك الزمان، فأعدت لهن هذا المتكأ. وآتت كل واحدة منهن سكينًا تستعملها فى الطعام... ويؤخذ من هذا أن الحضارة المادية فى مصر كانت قد بلغت شأوًا بعيدًا، وأن الترف فى القصور كان عظيمًا، فإن استعمال السكاكين فى الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته فى تصوير الترف والحضارة المادية. وبينما هن منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة ، فاجأتهن بيوسف[٣].

* وكانت قد هيَّأت يوسف - عليه السلام - وألبسته أحسن الثياب وهو فى غاية طراوة الشباب... وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة.

(١) سورة يوسف: الآية: (٣١).

(٢) قصص الأنبياء (ص: ٢٧٨).

(٣) الظلال (٤/ ١٩٨٤).

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[١] أى: أعظمنه وأجللنه وهبنه، وما ظنن أن يكون مثل هذا فى بنى آدم، وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن، وجعلن يحززن فى أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح.

فلما أحسسن جعلن يولولن، فقالت امرأة العزيز: أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا... فكيف ألام أنا؟.... ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[٢] ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد ما رأينا.

* وقد جاء فى حديث الإسراء: «فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن».

قال السهيلى وغيره من الأئمة: معناه: أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام؛ لأن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، فكان فى غاية نهايات الحسن البشرى. ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه، ويوسف كان على النصف من حسن آدم. ولم يكن بينهما أحسن منهما، كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام[٣].

﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾[٤]

ورأت المرأة أنها انتصرت على نساء طبقتها، وأنهن لقين من طلعة يوسف الدهش والإعجاب والذهول . فقالت قولة المرأة المنتصرة، التى لا

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (٣١).

(٣) قصص الأنبياء (ص: ٢٧٨).

(٤) ليس المقصود بكلمة ﴿أَحَبُّ﴾ أن الفاحشة كانت محبة إلى قلبه وأن السجن احب . . كلا فافعل التفضيل هنا ليس على بابه . . فيوسف - عليه السلام- نبى كريم معصوم من الوقوع فى أى كبيرة فهل من الممكن ان تكون الفاحشة محبية إلى قلبه؟! كلا وألف كلا، ولكنه قصد من وراء كلمة ﴿أَحَبُّ﴾ انه لو كانت هناك مفاضلة بين الوقوع فى الفاحشة وبين دخول السجن فالفاحشة فى هذا الوقت هى أبغض شيء إلى قلبه . والسجن فى هذا الوقت أحب شيء إلى قلبه.

تستحى أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها، والتى تفخر عليهن بأن هذا فى متناول يدها؛ وإن كان قد استُعصى قياده مرة فهى تملك هذا القياد مرة أخرى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾(١).

فانظرن ماذا لقيتن منه من البهر والدهش والإعجاب!(٢)

ثم مدحته بالعفة التامة فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾(٣) أى: امتنع ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾(٤).

وكان بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيدته، فأبى أشد الإباء، ونأى لأنه من سلالة الأنبياء، ودعا فقال فى دعائه لرب العالمين: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾(٥) يعنى: إن وكلتنى إلى نفسى، فليس لى من نفسى إلا العجز والضعف، ولا أملك لنفسى نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله. فأنا ضعيف إلا ما قويتنى وعصمتنى وحفظتنى، وحُطنى بحولك وقوتك. ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٦)(٧).

* قال العلامة السعدى وهو يذكر الفوائد التى فى تلك السورة:

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية، فهكذا ينبغى للعبد إذا ابتُلى بين أمرين - إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية- أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة فى الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان، أن يكره العبد أن يعود فى الكفر، بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُلقَى فى النار(٨).

(١)، (٣)، (٤) سورة يوسف: الآية: (٣٢).

(٢) الظلال (٤/ ١٩٨٥).

(٥) سورة يوسف: الآية: (٣٣).

(٦) سورة يوسف: الآية: (٣٤).

(٧) قصص الأنبياء (ص: ٢٧٩).

(٨) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان (ص: ٥٦١).

• الدروس المستفادة من تلك الآيات:

(١) تسمية غِيبة النسوة لامرأة العزيز مكرًا.

«وقد سُميت الغِيبة مكرًا، باعتبار أساسها ومنشأها؛ لأن الغيبة التى هى من هذا القبيل المذكور هنا، إنما تنشأ عن اختلاس أسرار الناس، واستطلاع ما يدور فى البيوت من الحوادث بواسطة البحث والتنقيب مع الجوارى والعجائز، ونحوهن، وهذا مكر بمن يبحث عنه، وينقب عن أحوالهم وخفاياهم، ولا ريب أن هذا أمر منكر، لما فيه من عدم احترام تلك الأسرار.

ووجه ثان فى تسمية هذه الغِيبة مكرًا: وهو أنهن كن يتمنين يوسف ويشتهينه لأنفسهن؛ لأنَّ المرأة كالسياسى سواء بسواء، تقول بلسانها ما ليس فى قلبها، والله أعلم بما تكنه، ولذلك لم يسمه غِيبة بل مكرًا، فهن بقولهن: ﴿**تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ**﴾[١] يتمنين أن تكون الأسباب قد سهلت لهن مثل هذه المراودة، وبقولهن: ﴿**قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا**﴾[٢] يشتهين أن يكون هذا الشغف لقلوبهن، ولما قلن: ﴿**إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾[٣] أردن أنها فى هداية ظاهرة حيث اهتدت لمحبة هذا الشاب الوحيد فى صباحته، عديم النظر فى ملاحته، فملاحظتهن على امرأة العزيز ملاحظة غبطة وغيرة، ملاحظة لا يقصد منها معنًى آخر، يعرفنه وتعرفه امرأة العزيز ويعلمه الله الخبير، الذى سمى هذه الغِيبة مكرًا.

ووجه ثالث: كن قلن ما قلن تحت تأثير عاطفة المكر بدليل أنهن لمنها وهن غائبات عنها، ولم ينصحنها وجهًا لوجه، وإلا فهن لو أردن النصح لاجتمعن بها وقدمن لها ما يعود عليها بالنفع فسماه مكرًا؛ لأنه من قبيل التحكك بشخصية المرأة وتنقصها، وليس من قبيل العظة والنصيحة التى تكون بالمواجهة.

ووجه رابع: سُمِّيت هذه الغيبة مكرًا؛ لأنها طعن لم يركز على مستندات

---

(١)، (٢)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٣٠).

قوية؛ لأن هذا الذى وقع منهن، وإن استند على إخبار الوصائف أو القهرمانات أو العجائز، إلا أنه غير جائز، إذ يجب أولاً التثبيت والتبين؛ لأنه يغلب على هؤلاء المخبرات الفسق والفساد والكذب، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (١)، ويجب على العاقل أن يظن بإخوانه وأخواته ظنًا حسنًا، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (٢)؛ لأنه ليس من دليل يصدقه، والأصل فى الرجال والنساء العدالة، والسلامة من الطعون، وحيث لم يقم عند هؤلاء النسوة - على تلويث تلك المرأة - دليل مقنع، كان الواجب عليهن حسن الظن بها، وردّ ذلك الإخبار السيئ، . . . قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (٣)، ويقول النبى ﷺ : «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» (٤)، والإنسان ينهى عن تلقّى مثل هذا، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ (٥)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (٦).

وكان يجب على هؤلاء النسوة المصريات: أن يسكتن حين سمعن هذا الخبر السيئ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ (٧)، وهو ذمٌ لمن يتكلم بالفاحشة، أو يخبر

---

(١) سورة الحجرات: الآية: (٦).

(٢) سورة النور: الآية: (١٢).

(٣) سورة الحجرات: الآية: (١٢).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٥١٤٤) كتاب النكاح، ومسلم (٢٥٦٣) كتاب البر والصلة والآداب.

(٥) سورة النور: الآيتان: (١٥، ١٦).

(٦) سورة الإسراء: الآية: (٣٦).

(٧) سورة النور: الآية: (١٩).

لها حسدًا أو بغضًا، وكأن الذى هوّن على هؤلاء النسوة القبطيات أن يصدقن خبر هؤلاء المخبرات، أن امرأة العزيز كانت من المشركات، وأن مراودة أهل التوثن الناس عن أنفسهم، أمر معهود وقريب جدًا، بل قد عُهد مرارًا من أهل الشرك والوقوع فى الفاحشة، وذلك لأن الزنا والشرك أخوان، قلَّما يوجد إلا ومعه زنا، وقلما يوجد زنا إلا ومعه شرك كما يُعلم ذلك من الاطلاع على تواريخ الأمم العتيقة[(١)].

(٢) الجهل بالله سبب كل معصية:

قال أبو بكر الجزائرى: «الجهل بالله تعالى وبأسمائه وصفاته ووعده ووعيده وشرعه هو سبب كل الجرائم فى الأرض»[(٢)].

(٣) كيد النساء لبعضهن.

قال ابن القيم الجوزية: «فلما سمعت بهذا المكر منهن هيأت لهن مكرًا أبلغ منه، فهيأت لهن متكأ، ثم أرسلت إليهن، فجمعتهن، وخبأت يوسف- عليه السلام- عنهن... وأخرجته عليهن فجأة، فلم يرعهن إلا وأحسن خلق الله وأجمله قد طلع عليهن بغتة، فراعهن ذلك المنظر البهى، وفى أيديهن مُدًى يقطعن بها ما يأكلنه، فدهشن حتى قطعن أيديهن وهن لا يشعرن...

فقابلت مكرهن القولى، بهذا المكر الفعلى، وكانت هذه من النساء غاية فى المكر[(٣)].

(٤) اقتضت حكمة الله أن يكون الأنبياء على حُسن خُلُق وجمال خلق إعانة لهم على قبول دعوتهم واجتماع الناس إليهم.

قال الفخر الرازى: قوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فيه وجهان:

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٥٩٤-٥٩٦) / العلمى.

(٢) أيسر التفاسير (٢/ ٦١٠).

(٣) بدائع التفسير (٢/ ٤٧١، ٤٧٢).

الوجه الأول: وهو المشهور أن المقصود منه إثبات الحسن العظيم له قالوا: لأنه تعالى ركز فى الطباع أن لا حى أحسن من الملك ، كما ركز فيها أن لا حى أقبح من الشيطان ، ولذلك قال تعالى فى صفة جهنم ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[1]وذلك لما ذكرنا أنه تقرر فى الطباع أن أقبح الأشياء هو الشيطان فكذا ههنا تقرر فى الطباع أن أحسن الأحياء هو الملك، فلما أرادت النسوة المبالغة في وصف يوسف - عليه السلام - بالحسن لا جرم شبهنه بالملك.

والوجه الثاني: وهو الأقرب عندى أن المشهور عند الجمهور أن الملائكة مطهرون عن بواعث الشهوة، وجواذب الغضب، ونوازع الوهم والخيال فطعامهم توحيد الله-تعالى- وشرابهم الثناء على الله تعالى، ثم إن النسوة لما رأين يوسف عليه السلام لم يلتفت إليهن ألبتة ورأين عليه هيبة النبوة وهيبة الرسالة، وسيما الطهارة قلن إنا ما رأينا فيه أثراً من أثر الشهوة، ولا شيئًا من البشرية، ولا صفة من الإنسانية، فهذا قد تطهر عن جميع الصفات المغروزة فى البشر، وقد ترقَّى عن حد الإنسانية ودخل فى الملكية[2].

* * *

س: لماذا قطعت النساء أيديهن عند رؤية يوسف-عليه السلام- ولم تقطع امرأة العزيز يدها ؟

ج: لقد حدث هذا بالفعل وتأثرت النساء برؤية يوسف - عليه السلام - وقطعن أيديهن ولم تقطع امرأة العزيز يديها لأن امرأة العزيز كانت قد اعتادت رؤية يوسف - عليه السلام - فلم يحدث لها نفس التأثير بخلاف النسوة فهذه أول مرة يرين فيها يوسف - عليه السلام- فقطعن أيديهن من شدة جماله وهن لا يشعرن.

---

(١) سورة الصافات: الآية: (٦٥).

(٢) تفسير الفخر الرازى (٩/ ١٣١).

(٥) عدم صبر أكثر النساء على حفظ الأسرار[١].

كانت امرأة العزيز قد سمعت أن النسوة وقفن على حادثتها، ثم دعتهن فرأت اندهاشهن بتقطيع أيديهن، وحكمن على يوسف بأنه ليس من نوع البشر، بل نوع من الملائكة، فعلمت من هذا أنهن صرن شريكات لها فى حبه، ولابد أن يكن قد عذرنها فى شغفها به، وأخيرًا رأت أن تلك الجلسة السرية، انتقلت من جلسة ضيافة إلى جلسة غرامية، وهى قديمًا تعرف أن المصدور يرتاح لبث شكواه لمن يخفف عنه، لذا رأت أن سلسلة هذه الأشياء تصلح أن تشكل سببًا يسوغ اعترافها بالحب أمام هؤلاء النسوة، فصارت عواطفها تتراوح بين الاعتراف بما كان صدر منها، وبين البقاء على التكتم.

وأخيرًا فضلت أن تبوح لهن بما كان، وقد اعترفت لهن بذلك؛ لأن النساء أقل صبرًا على حفظ أسرارهن وأسرار سواهن من الرجال، ذلك بما فطرن عليه من ضعف المزاج، وخصوصًا فيما يتعلق بالحب وأسبابه ونتائجه، ويغلب أن يكون إفشاؤهن السر على سبيل المسارة، والإنسان إذا أعجزه أمر، أحس بميل شديد على مكاشفة بعض أخصائه به، فامرأة العزيز لما أعياها أمر يوسف، أرادت أن تكاشف به هؤلاء السيدات، لعل أن يكون عندهن ما يسهل عليها الوصول لغرضها منه[٢].

(٦) إيثار السجن على معصية الله - تعالى - من مظاهر الصديقية.

(٧) دخول السجن ليس دائمًا دليلاً على أنه بيت المجرمين والمنحرفين؛ إذ دخله صفى الله - تعالى - يوسف - عليه السلام -.

---

(١) جرت عادة بعض العشاق أن يبوح بسره لبعض خلصائه، ولكن مقتصرًا على ما يجوز ذكره شرعًا ومروءة؛ امتثالاً لقول القائل:

لا تخف ما فعلت بك الأشواق　　　واشرح هواك فكلنا عشاق

إنما هذه المرأة زادت فى القِحة، فنفضت لهن جملة حالها، فذكرت ما الأفضل عدم التصريح به، إذ ينبغى لمن ابتلى بشىء من هذه المعاصى أن يستر بستر الله.

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٦٢٤، ٦٢٥).

(٨) دخول السجن قد يكون بداية أحداث ظاهرها مُحرق وباطنها مُشرق[١].

(٩) الإتيان بأفضل التفضيل على غير بابه لاختلاف الجنس بين المتفاضلين: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾[٢].

قال أبو حيان: وأحب: ليست على بابها من التفضيل؛ لأنه لم يحبب ما يدعونه إليه قط، وإنما هذان شران، فآثر أحدهما على الآخر، وإن كان في أحدهما مشقة وفي الآخر لذة[٣].

(١٠) عذاب البدن أهون من عذاب النفس.

لقد فاضل الشاب بين السجن والصبوة، ففضل لديه السجن على ما فيه من عذاب؛ لأن عذاب السجن بدني والوقوع في الفاحشة عذاب نفسي، والأول موقوت، والثاني ندم يلح على نفسه ما بقي فيه نفس، وهو في السجن مظلوم، وفي المعصية يكون ظالمًا، والسجن مجال لتذكر الله، وهو في السجن سيد نفسه، وخارجه يُدعى ليكون عبد شهواته[٤].

قال الفخر الرازي: السجن غاية المكروهية، وما دعونه إليه في غاية المطلوبية، فكيف قال: المشقة أحبُّ إليَّ من اللذة ؟

والجواب: أن تلك اللذة كانت تستعقب آلامًا عظيمة، وهي الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة، وذلك المكروه وهو اختيار السجن كان يستعقب سعادات عظيمة، وهي المدح في الدنيا والثواب الدائم في الآخرة، فلهذا السبب قال: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾[٥].

---

(١) أيسر التفاسير (٢/ ٦١٠).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٣٣).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٣٠٦).

(٤) يوسف في القرآن (ص٣٢) / عبد الحميد كحيل.

(٥) تفسير الفخر الرازي (٩/ ١٣٤، ١٣٥).

(١١) لا يعتد المؤمن بإيمانه إلى درجة الغرور وإنما يكل أمره إلى الله ويستمد منه العون في مواجهة الخطوب والصمود أمام الفتن ويسأله الصبر عليها[١].

﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي﴾: يعني: إن وكلتني إلى نفسي، فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف، ولا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله، فأنا ضعيف إلا ما قويتني وعصمتني وحفظتني، بحولك وقوتك، ولهذا ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ [٢].

(١٢) بيان أن العاقل يحتفظ بكلامه إلى حين الحاجة.

قال العلمي: «نتعلم من كتاب الله -تعالى- أن يوسف في تلك الحفلة النسائية السابقة كان ساكتًا، لم يتبادل الحديث؛ لا مع النسوة المدعوات ولا مع امرأة العزيز صاحبة الدعوة، ونعلم أن ذاك السكوت زاده رفعة في أعينهن، وزاده هيبة في قلوبهن، فالصمت يرفع منزلة صاحبه، وكثرة اللفظ تقلل من مهابته، وهذا في مبادلة الحديث بين رجل ورجل، فكيف والجليسات في تلك الحفلة إناث لا يليق بذي المروءة مثل يوسف أن يتبسط في الكلام معهن، ولكن يصمت عن محادثتهن، فلذلك وحيث إن العاقل يحتفظ بكلامه إلى حين الحاجة، بقي يوسف ساكتًا، حتى سمع إنذار امرأة العزيز إياه، فأوجس منها خيفة، وخشي أن تصيبه من ختلها دائرة؛ لأنها تقول وتفعل، وكابد في نفسه ألمًا شديدًا، لا تستشف مكانه من أعماق قلبه، غير عين واحدة، وهي عين الله -تعالى-، ففزع إلى مولاه ورفع بصره إلى السماء، وشخص لجهة العلو، وقال وفي صوته غنة الضراعة والذل: يا رباه، يا من يجيب المضطر إذا دعاه: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [٣].

---

(١) دروس مستفادة من سورة يوسف (١/ ٢٥).

(٢) قصص الأنبياء وأخبار الماضين (ص: ١٩٨).

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٦٣١، ٦٣٢).

(١٣) بيان أن الثناء على الكريم يحمله على الإحسان والاستجابة.

قال العلمي: «دعا يوسف مولاه، باستكانة وضراعة، فصعدت كلمته من قلبه الطاهر، تتطاير إلى الأجواء العليا، حتى قرعت صفحة السماء، فسمعت الملائكة رنينها، وعرضتها على ربه (وهو أعلم) فاستجاب له ربه دعاءه».

والدعاء قد يكون صريحًا، مثل «اصرف» و«التصرف» وقد يكون بالثناء والمدح كما هنا؛ لأن قوله: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [1] ثناء يتضمن الدعاء، وعلى ذلك قول الفقهاء: «دعاء الثناء» وهو: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك» [2]، و«دعاء الافتتاح» وهو: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا مسلمًا، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» [3].

ومنه حديث: «وأفضل دعاء قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير» [4]، وسبب تسمية هذا كله ونحوه دعاء، أن الثناء على الكريم يحمله على الإحسان، كما قال الشاعر:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني
حباؤك إن شيمتك الحباء
إذا أثنى عليك المرء يومًا
كفاه من تعرضه الثناء [5]

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٣٣).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٧٧٥) كتاب الصلاة، والترمذي (٢٤٢) كتاب الصلاة، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (٢٩٩٦).

(٣) صحيح: وهو جزء من حديث علي بن أبي طالب الطويل في دعاء الاستفتاح، وهو في «صحيح مسلم» (٧٧١).

(٤) صحيح: كما في الصحيحة (١٥٠٣).

(٥) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٦٤٢، ٦٤٣).

(١٤) سرعان ما يستجيب الله للمخلصين من عباده بدون أدنى تأخير وفى أسرع ما يكون.

قال العلمي: «دعا يوسف ربه، فما هو إلا أن لفظ آخر كلمة، حتى استجاب له فورًا، وفى أسرع ما يكون، بدون أدنى تأخير، وسرعان ما يستجيب الله للمخلصين من عباده!

فقال الله له: لبيك، قريبًا دعوت، فصرف عنه كيدهن حسبما طلب، وحجز بينه وبين حبهن على ما رغب، وأطفأ الله نارهن التى كن أوقدنها، لاستمالة هذا الصديق الكريم، فأحس يوسف حينئذ كأنه ألقى عن ظهره حملاً ثقيلاً، ومن ذلك الحين صار يستهزئ بكل حيلهن.

دعا يوسف ربه، فأحس بانبساط نفسه، وارتاح ضميره، وشعر كأن الأخطار قد زالت عنه، وقد ألقى اتكاله على الله، ومثل هذه الراحة لا يشعر بها غير أهل الإيمان الوطيد، فإن أحدهم إذا أحدقت به مصائب العالم تحمَّلها بالصبر وأذهب آثارها بالدعاء والتوجه إلى الله-تعالى-، كما كان نبينا ﷺ إذا حَزَبه أمر قام إلى الصلاة[١].

إلى هنا انتهت حادثة تجربة يوسف، وخروجه من تلك التجربة، شريفًا طاهرًا ناصع الجبين، فاطمأن حينئذ وطاب نفسًا، وقال فى نفسه: أحمد الله على ما حفّنى بلطفه، فإن ما تشره إليه نفوس الناس لا يساوى شيئًا فى جانب روح الأبد وراحته[٢][٣].

* * *

(١) حسن: رواه أبو داود (١٣١٩) كتاب الصلاة، وأحمد (٥ / ٢٨٦) من حديث حذيفة رضي الله عنه، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح سنن أبى داود.

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٦٤٣، ٦٤٤).

(٣) بتصرف من إتحاف الإلف.

وها هو -عليه السلام- يدخل السجن

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[1].

وهذه هي المحنة الرابعة.

قال ابن كثير-رحمه الله-: «يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه... أنهم يسجنونه إلى حين بعدما أثبتت الأدلة صدقه وعفته،... إنما سجنوه لما شاع الحديث، إيهامًا أنه راودها عن نفسها ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نُسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج نقي العرض، طاهر الذيل صلوات الله عليه وسلامه[2].

* وهكذا جو القصور، وجو الحكم المطلق، وجو الأوساط الأرستقراطية، وجو الجاهلية! فبعد أن رأوا الآيات الناطقة ببراءة يوسف. وبعد أن بلغ التبجح بامرأة العزيز أن تقيم للنسوة حفل استقبال تعرض عليهن فتاها الذى شغفها حبًا، ثم تعلن لهم أنها به مفتونة حقًا، ويفتنَّ هن به ويغرينه بما يلجأ إلى ربه ليغيثه منه وينقذه،... والمرأة تعلن فى مجتمع النساء-دون حياء- أنه إما أن يفعل ما يؤمر به، وإما أن يلقى السجن والصغار،... فيختار السجن على ما يؤمر به!

بعد هذا كله، بدا لهم أن يسجنوه إلى حين!

ولعل المرأة كانت قد يئست من محاولاتها بعد التهديد؛ ولعل الأمر كذلك قد زاد انتشارًا فى طبقات الشعب الأخرى.. وهنا لا بد أن تُحفظ سمعة «البيوتات»! وإذا عجز رجال البيوتات عن صيانة بيوتهن ونسائهن،

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٣٥).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٨٢).

فإنهم ليسوا بعاجزين عن سجن فتى برىء كل جريمته أنه لم يستجب، وأن امرأة من «الوسط الراقى!» قد فُتنت به(١).

* * *

س: ما المراد بالآيات فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾؟ ومن الذين بدا لهم؟

ج: بدا للعزيز ومن معه.

أما الآيات فمنها: قُدَّ القميص من دبر، ومنها: تقطيع النسوة أيديهن، ومنها: شهادة الشاهد.

وفى الجملة، فهى الآيات الدالة على صدقه وبراءته.

* * *

س: أين سجن يوسف - عليه السلام-؟

ج: سُجن يوسف - عليه السلام- فى موضع على النيل قرب ثمانية أميال منه على جبل مرتفع(٢).

قال ابن عطية: ويرسم الناس اليوم سجن يوسف فى موضع على النيل بينه وبين الفسطاط ثمانية أميال(٣).

قال محمد رشيد رضا: «﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ إليه أو إلى السجن فهو فيه.

ورُوى عن ابن عباس: أن السجن كان خارج البلد، وفى خطط المقريزى: قال القضاعى: سُجن يوسف ببوصير من عمل الجيزة، أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان»(٤).

* * *

(١) الظلال (٤/ ١٩٨٧).

(٢) يسمى - الآن - سجن القلعة فى جبل المقطم.

(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٢٤٩).

(٤) تفسير القرآن الحكيم (١٢/ ٣١٨).

الظلم ليس له حدود

إن الظلم ليس له حدود يُعرف بها، والاستبداد ليس له غاية يقف عندها، فعلى الرغم من تأكد عزيز مصر من براءة يوسف - عليه السلام- إلا أنه أصدر قرارًا مفاجئًا بسجن يوسف - عليه السلام-.

إن المسألة منذ الآن ستنتقل لدور آخر، وتتطور تطورًا مدهشًا؛ لأن العزيز قنع قناعة تامة ببراءة يوسف، وكان هو وقريب زوجته من أنصار هذا الصديق الكريم، فكان مقتضى ذلك أن لا تُمس كرامته بشيء، ولعمرى أن هذا العمل الجديد من العزيز بعد أن اتضحت الحقيقة لهو منكر جدًا، غير أنه افتكر أن المصلحة تقتضى سجن يوسف، لكى يقول من سمع بالحادث أنه سُجن لأن المراودة كانت منه، ولأن سجن يوسف يفرق بينه وبين زوجته زليخا التى وصل حبها له لدرجة قصوى، وبهذا يستريح، فلا تشتغل أفكاره فيها وفيه، فلهذين الوجهين أراد العزيز أن يمسك بالحبل من طرفيه، فأقدم على سجنه.

نعم أيها السادة لم يكد يوسف يتوسم الراحة، ويحيى الأمل، بالخلاص من المكاره، والابتعاد عن حوادث الزمان، حتى ولو بلغت بإدخاله فى السجن، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، ولو شاء ربك ما فعلوه.

خلص يوسف من تهمة امرأة العزيز إياه، ثم خلص من فتنة النسوة المصريات ودعا ربه أن يمنع عنه كيد النساء فلبى طلبه، فهو بعد ذلك كان يحسب أنه قد ذُللت كل عقبة فى سبيل راحته، ولم يكن يخطر له على بال أن سيُدعى يومًا إلى السجن بعدما تبرأت ساحته، ولكن الظلم ليس له حدود تُعرف، وأعمال الاستبداد ليس لها غاية تقف عندها، وما هو إلا أن تلقى تلك المفاجأة المستغربة التى تستفز النفوس بهدوء وسكينة، شأن كل

عاقل كريم، أو شأن كل غريب ضعيف بين حكام ظلمة، لا يراعون خالقًا ولا ضميرًا [١].

ودخل معه السجن فتيان

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

* ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ قيل: كان أحدهما ساقى الملك واسمه فيما قيل «نبوا» والآخر خبازه، يعنى الذى يلى طعامه، وهو الذى يقول له التُّرك: «الجاشنكير» واسمه فيما قيل: «مجلث» وكان الملك قد اتهمهما فى بعض الأمور فسجنهما.

فلما رأيا يوسف فى السجن أعجبهما سمته وهديه، ودلُّه وطريقته، قوله وفعله، وكثرة عبادته ربه، وإحسانه إلى خلقه، فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه.

قال أهل التفسير: رأيا فى ليلة واحدة... أما الساقى فرأى كأن ثلاثة قضبان من حبلة وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب، فأخذها فاعتصرها فى كأس الملك وسقاه، ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز، وضوارى الطيور تأكل من السلة الأعلى فقصًّاها عليه وطلبا منه أن يُعبِّرها لهما وقالا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٣].

• وقفات هامة مع هذه الآية:

(١) أما عن شأن الفتيين اللذين دخلا السجن مع يوسف - عليه السلام-.

فقد صح عن قتادة [٤] أنه قال: كان أحدهما خبازًا للملك على طعامه،

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف (٦٤٦/١، ٦٤٧).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٣٦).

(٣) قصص الأنبياء (ص: ٢٨٠).

(٤) أخرج ذلك الطبرى.

وكان الآخر ساقيه على شرابه.

والله أعلم بصحة ذلك، فلم يرد عن رسول الله ﷺ خبرٌ بذلك.

هذا ومما ذكره المفسرون أيضًا: أنهما اتُهما بوضع السُّمِّ للملك، هذا اتُّهم بوضع السم للملك فى طعامه، وهذا اتُّهم بوضع السم للملك فى شرابه، والله أعلم بصحة ذلك.

(٢) جواز تسمية العنب خمرًا لأنه يُصنع منه غالبًا.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾(١) أى: أعصر عنبًا وذلك لأن الخمر لا يُعصر وإنما الذى يُعصر هو العنب ولكن سُمى العنب خمرًا باعتبار ما يؤول إليه.

(٣) أن ملوك مصر الأقدمين ما كانوا يشترون الخمر التى يشربونها من الأسواق أو الحانات بل كانوا يصنعونها ويعصرونها ويتخذون خدمًا لعملها.

قال العلمى: «يظهر أن ملوك مصر الأقدمين ما كانوا يشترون الخمر التى يشربونها من الأسواق أو الحانات بل كانوا يتخذون خدمًا أخصائيين لعملها خصيصًا لهم، ويرى علماء الآثار فى جدران قبور المصريين صور رجال يقطفون العنب ويفرطون من العناقيد حبَّه، ويجعلون العصير فى دنان من فخار يضعونها فى المخازن»(٢).

(٤) بيان أن الخمر ربما كانت حلالاً عند المصريين والرعاة فى زمن يوسف حتى كان الملك يشربها علنًا بلا نكير.

قال العلمى: «إن قال قائل: هل كانت الخمر حلالاً عند هؤلاء المصريين والرعاة حتى كان الملك يشربها علنًا بلا نكير؟!

قلنا: إن الخمر محرمة بألسنة جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - على جميع الشعوب والأمم، فإن المصريين والرعاة وغيرهم كانوا يشربونها

(١) سورة يوسف: الآية: (٣٦).

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٦٦٥).

فى حال أنها محرمة عليهم، ويحتمل أن المحرم عليهم هو القدر المسكر فقط، وأن ما دون القدر المسكر حلال، وهو ظاهر كتب العهدين الموجودة اليوم عند اليهود والنصارى، فلما كان من حكمة الله - تعالى - سير أمور البشر كلها على سنن الترقى التدريجى، الذى مقتضاه أن يكون الآخر أكمل مما قبله، أكمل الله دينه العام بإنزال القرآن الحاوى تحريم الخمر مطلقًا، لما فيها من الضرر الذاتى(١).

(٥) إن صلاح الإنسان وإحسانه يعينه على قبول دعوته.

فقد قالا ليوسف -عليه السلام-: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٢) فما الذى حملهما على قولهما: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾؟

الجواب: ذلك للذى يبدو عليه من صلاحه وإحسانه.

إنه كان يعود مرضاهم، ويؤنس حزينهم، فقالوا: إنك من المحسنين أى: فى حق الشركاء والأصحاب.

وقيل: إنه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة، فقالوا: إنك من المحسنين فى أمر الدين، ومن كان كذلك فإنه يوثق بما يقوله فى تعبير الرؤيا، وفى سائر الأمور.

وقيل: المراد ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فى علم التعبير، وذلك لأنه متى عبر لم يخطئ كما قال: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾(٣).

(٦) الشخصية الموهوبة تثير حسد الآخرين:

قال أحمد نوفل: «فشخصيته الموهوبة هى التى أثارت حسد الإخوة حتى دبروا ما دبروا، وشخصيته هى أساس إعجاب أبيه وتعلقه به ثم حزنه عليه حين فارقه، وشخصيته هى التى جذبت إليه قلب العزيز وتأمل فيه خيرًا وهو

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ٦٦٩، ٦٧٠).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٣٦).

(٣) سورة يوسف: الآية: (١٠١).

يقول لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾(١) وهو الذى تعلق به فؤاد امرأة العزيز حتى درجة فقد التوازن ثم النسوة من بعد، هو الذى شد إليه انتباه وإعجاب السجينين، ثم إعجاب الملك.

وبهذه الشخصية القوية صمد فى السجن، وجلّى فى إدارة دفة الحكم فى قطر عظيم كمصر... وضبط الأمور فى يسر وسلاسة بلا عنت على الناس ولا رهق ولا بطش ولا عسف، وزاد الإنتاجية.. كل ذلك من اقتناع الناس بقوة الشخصية التى تواجههم وتمتعه - عليه السلام- بالكفاءات والمواهب العظيمة(٢)(٣).

كلمة التوحيد قبل أى شىء

وينتهز يوسف هذه الفرصة ليبثّ بين السجناء عقيدته الصحيحة؛ فكونه سجينًا لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة والأوضاع الفاسدة، القائمة على إعطاء حق الربوبية للحكام الأرضيين، وجعلهم بالخضوع لهم أربابًا يزاولون خصائص الربوبية، ويصبحون فراعين!

ويبدأ يوسف مع صاحبى السجن من موضوعهما الذى يشغل بالهما، فيطمئنهما ابتداء إلى أنه سيؤول لهما الرؤى؛ لأن ربه علمه علمًا خاصًا، جزاءً على تجرده لعبادته وحده، وتخلصه من عبادة الشركاء، هو وآباؤه من قبله.. وبذلك يكسب ثقتهما منذ اللحظة الأولى بقدرته على تأويل رؤياهما، كما يكسب ثقتهما كذلك لدينه(٤).

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾(٥) أى: لا

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٢١).

(٢) سورة يوسف دراسة تحليلية (١٣٢).

(٣) بتصرف من إتحاف الإلف.

(٤) الظلال (٤/١٩٨٨).

(٥) سورة يوسف: الآية: (٣٧)

يأتيكما شيء من الطعام إلا أخبرتكما ببيان حقيقته وماهيته وكيفيته قبل أن يصل إليكما، . . . أخبرهما بمعجزاته ومنها معرفة بعض «المغيبات». توطئة لدعائهما إلى الإيمان، قال البيضاوى: أراد أن يدعوهما إلى التوحيد ويرشدهما إلى الدين القويم قبل أن يسعفهما إلى ما سألاه منه كما هو طريقة الأنبياء فى الهداية والإرشاد، فقدم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلهما على صدقه فى الدعوة والتعبير[1] ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ إن ذلك الإخبار بالمغيبات ليس بكهانة ولا تنجيم، وإنما هو بإلهام ووحى من الله ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أى: خصّنى ربى بذلك العلم لأنى من بيت النبوة وقد تركت دين قوم مشركين لا يؤمنون بالله ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أى: يكذبون بيوم القيامة، . . . نبّه على أصلين عظيمين: الإيمان بالله، والإيمان بدار الجزاء، إذ هما أعظم أركان الإيمان، وكرر لفظة ﴿هُمْ﴾ على سبيل التأكيد ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أى: اتبعت دين الأنبياء، لا دين أهل الشرك والضلال، والغرض إظهار أنه من بيت النبوة، لتقوى رغبتهما فى الاستماع إليه والوثوق بكلامه ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أى: ما ينبغى لنا معاشر الأنبياء أن نشرك بالله شيئًا مع اصطفائه لنا وإنعامه علينا ﴿ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ أى: ذلك الإيمان والتوحيد من فضل الله علينا حيث أكرمنا بالرسالة، ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ حيث بعث الرسل لهدايتهم وإرشادهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ أى: لا يشكرون فضل الله عليهم فيشركون به غيره. . . ولما ذكر عليه السلام ما هو عليه من الدين الحنيف الذى هو دين الرسل، تلطف فى حسن الاستدلال على فساد ما عليه قوم الفتيين من عبادة الأصنام فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أى: يا صاحبى فى السجن آآلهة

---

(١) البيضاوى (ص: ٢٦٤).

متعـددة لا تنفع ولا تضرُّ ولا تستجيـب لمن دعاها كالأصنام، خيرٌ أم عبادة الواحـد الأحد، المتفـرد بالعظمـة والجلال؟! ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾(١) أي: ما تعبدون يا معشر القوم من دون الله إلا أسماء فارغـة سميتموها آلهة وهى لا تملك القـدرة والسلطان لأنها جمادات ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أى: ما أنزل الله لكم فى عبـادتها من حجة أو برهان ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ أى: ما الحكم فى أمر العبادة والدين إلا لله رب العالمين ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ أى: أمر سبحـانه بإفراد العبادة له؛ لأنه لا يستـحقـها إلا من له العظمـة والجلال ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أى: ذلك الذى أدعوكم إليه من إخـلاص العبادة لله هو الدين القويم الذى لا اعوجـاج فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: يجهلون عظمة الله فيـعبدون ما لا يضر ولا ينفع.. تدرج عليه السلام فى دعوتهم وألزمهم الحجة بأن بيَّن لهم أولاً رجحان التـوحيد على اتخاذ الآلهـة المتعددة، ثم برهن على أن ما يسـمونها آلهة ويعبـدونها من دون الله لا تستحق الألوهيـة والعبادة، ثم نص على ما هو الحق القديم والديـن المستقـيم وهو عبادة الواحـد الأحد الفرد الصـمد، وذلك من الأسلـوب الحكيم فى الدعـوة إلى الله، حـيث قـدَّم الهـداية والإرشاد، والنصيحة والموعظة(٢).

● **الدروس المستفادة من الآيات:**

أن الحكيم هو الذى يعلم متى يتكلم ومتى يلزم الصمت فنحن إذا تأملنا الأدوار التى سكت فيها يوسف والأدوار التى تكلم فـيها: نعلم أنه كان أتى على يوسف منذ غيابه عن والده ثلاثة أدوار:

الدور الأول: أخذ السيارة إياه لمصر كسلعة تجارية.

الدور الثانى: حالة الخـدمة والعبـودية للعزيز، ونراه فى هذين الدورين

(١) سورة يوسف: الآية: (٤٠).

(٢) صفوة التفاسير (٢ / ٥١، ٥٢).

ساكتًا، لم يهتف بشيء من مدح شخصه، ولم يقرظ أهله بشيء من أنواع التقريظ، ذلك لأنه لم يجد داعيًا لذلك، ولكنه الآن وقد انتقل إلى الدور الثالث: دور الاعتقال في أعماق السجون، مع المجرمين، متهمًا بجريرة الفحشاء، فقد رأى من اللازم أن يهتف بشيء من الثناء على شخصه، وأن يقرظ أسرته وأصوله بعض التقريظ، شأن كل واحد ذوت زهرة فخره في نظر الناس وشُرع في النيل منه، والغض عنه، فإنه عندئذٍ يبين فضل نفسه بنفسه بقدر ما تستدعي الحاجة، وتطلب المصلحة ويستند على أثيل منبته، وكرم أصله، ويأوي إلى سياج من شرف المحتد، قد ضربه من حوله، فلله درُّ هذا الصديق، ما أحكمه في الحالتين: حال السكوت وحال التكلم[١].

(١) معرفة الأنبياء بعض الغيب.

فالله-عز وجل- قد يُطلع الأنبياء على شيء من الغيب فقد قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[٢].

- ولقد رأينا كيف أن يوسف - عليه السلام - قال للفتيين: ﴿لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾[٣].

قال الإمام الشوكاني: «وهذا ليس من جواب سؤالهما تعبير ما قصّاه عليه، بل جعله عليه السلام مقدّمة قبل تعبيره لرؤياهما بيانًا لعلوّ مرتبته في العلم، وأنه ليس من المعبرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظنّ وتخمين، فهو كقول عيسى - عليه السلام -: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ﴾[٤] إنما قال يوسف -

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف (٢/ ٦٨٢، ٦٨٣) / العلمي.

(٢) سورة الجن: الآيات: (٢٦-٢٨).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٣٧).

(٤) سورة آل عمران: الآية: (٤٩).

عليه السلام- لهما بهذا ليحصل الانقياد منهما له فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الإيمان بالله والخروج من الكفر»[١].

قال ابن عطية: «فعلى هذا إنما أعلمهم بأنه يعلم مغيبات لا تعلق لها برؤيا وقصد بذلك أحد الوجهين المتقدمين. وهذا على ما روى من أنه نبئ في السجن، فإخباره كإخبار عيسى-عليه السلام-»[٢].

(٣) علينا أن ننسب الفضل كله لله.

فيوسف -عليه السلام- قال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾[٣] ولم يقل: ذلك من قوة ذكائي ومهارتي.

لقد نسب يوسف الصديق تعليمه إلى الله وهذا من كمال علمه وأدبه وفضله أن نسب الفضل كله لله وحده لا شريك له، ولم يدّع أنه صاحب ذلك أو أن العلم من لدن نفسه أو معلومات اكتسبها بكدّه وجهده بل قال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾.

(٤) من وصف نفسه بأحسن الأوصاف التي فيه من أجل قبول علمه ودعوته فليس هذا من باب التزكية للنفس.

فلقد بدأ يوسف-عليه السلام- يذكر للفتيين شيئًا من ترجمة حياته الشخصية والعائلية والدينية، بساطًا وتمهيدًا للعظة التي أزمع على إلقائها عليهما، فكأنه جرى في كلامه على ما يسمونه بسياسة المراحل، أي: التقدم مرحلة مرحلة، ومن كلامه ظهر لهما أمران:

١- أن هذا السجين بعدما كان في أعينهما مجهول الأصل غامض النسب إذا هو شريف عريق من أهل البيوتات الدينية الكبيرة.

٢- أن هذا السجين بعدما كان في نظرهما مجرمًا، ظهر أنه هادٍ مرشد

---

(١) فتح القدير (٣/ ٢٦).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٢٤٤).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٣٧).

وأعظم معلم للخير.

ولم يكن تعبير الرؤيا ليهم يوسف أكثر مما يهمه الوعظ والتعليم عند سنوح الفرصة، فلذا ابتدأ بما هو أهم في نظره، وكأنه -عليه السلام- رام أجرًا على تعبير الرؤيا ولكن ما هو هذا الأجر يا ترى؟ ليس هو دينارًا ولا درهمًا ولا شيئًا ما من الأمور المادية، ولكنه إصغاء رئيس السقاة ورئيس الخبازين لتعليمه ووعظه.

وهذه طريقة لطيفة، على كل ذى علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة إذا استفتاه واحد منهم أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولاً، ويدعوه إلى ما هو أولى وواجب عليه مما استفتى فيه، ثم يفتيه بعد ذلك، وفيه أن العالم إذا جُهلت منزلته فى العلم، فوصف نفسه بما هو بصدده، وكان غرضه أن يُقتبس منه، ويُنتفع به فى الدين، لم يكن من باب التزكية[1].

(٥) ذكر السلف الصالح فى الحق يزيد دليل الحق تمكنًا.

قال ابن عاشور: «وذكر آباءه تعليمًا بفضلهم، وإظهارًا لسابقية الصلاح فيه، وأنه متسلسل من آبائه، وقد عقله من أول نشأته ثم تأيد بما علّمه ربّه فحصل له بذلك الشرف العظامى والشرف العصامى. ولذلك قال النبى ﷺ لما سُئل عن أكرم الناس: **«يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نبى ابن نبى ابن نبى ابن نبى»**[2].

ومثل هذه السلسلة فى النبوءة لم يجتمع لأحد غير يوسف - عليه السّلام - إذا كان المراد بالنبوءة أكملها وهو الرسالة، أو إذا كان إخوة يوسف - عليه السّلام - غير أنبياء على رأى فريق من العلماء.

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف (٢/ ٦٧٦، ٦٧٧).

(٢) متفق عليه: وقد تقدم.

وأراد باتّباع ملّة آبائه اتباعَها فى أصولها قبل أن يعطى النبوءة إذ كان فيما أُوحى إليه زيادة على ما أوحى به إلى آبائه من تعبير الرؤيا والاقتصاد؛ أو أن نبوءته كانت بوحى مثل ما أوحى به إلى آبائه، كقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (١).

وذكر السلف الصالح فى الحقّ يزيد دليل الحقّ تمكنًا، وذكر ضدهم فى الباطل لقصد عدم الحجة بهم بمجردهم، كما فى قوله الآتى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾(٢)(٣).

(٦) أن اتباع الأصول المؤمنة طريق الفوز والفلاح.

قال أبو السعود فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾(٤) يعنى: أنه إنما حاز هذه الكمالاتِ وفاز بتلك الكراماتِ بسبب أنه اتبع ملةَ آبائِه الكرامِ ولم يتبع ملةَ قومٍ كفروا بالمبدإ والمعاد وإنما قاله-عليه السلام- ترغيبًا لصاحبيه فى الإيمان والتوحيدِ وتنفيرًا لهما عما كانا عليه من الشرك والضلالِ، وقَدّم ذكر تركِه لملّتهم على ذكر اتباعه لملة آبائِه لأن التخلية متقدمة على التحلية(٥).

(٧) أنه لا بد من التخلية قبل التحلية.

ذكر يوسف - عليه السلام - التخلى عن الشرك وترك ملة قوم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر فى نهاية الآية السابقة ثم ذكر التحلى بالتوحيد الذى هو ملة إبراهيم - عليه السلام.

---

(١) سورة الشورى: الآية: (١٣).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٤٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٧٢، ٢٧٣).

(٤) سورة يوسف: الآية: (٣٨).

(٥) تفسير أبى السعود (٤/ ٢٧٧).

لقد قرر يوسف أنه لا ينبغي للعبد أن يشرك بربه شيئًا قلَّ أو كثُر، لأن الشرك ظلم عظيم، ولذلك فلن يغفر الله لمن أشرك به.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾(١)، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾(٢).

(٨) عصمة الأنبياء من الزنا وعصمتهم من الشرك.

قال القرطبي -رحمه الله-: «قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾(٣) لأنهم أنبياء على الحق ﴿مَا كَانَ﴾ أى: ما ينبغى ﴿لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ من: للتأكيد، كقولك: ما جاءنى من أحد، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ إشارة إلى عصمته من الزنا، ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ أى: على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك(٤).

(٩) تفرُّق الآلهة يفرق بين البشر.

قال القاسمى: «قال بعضهم: دلت الآية على أن الشرع كما جاء مطالبًا بالاعتقاد جاء هاديًا لوجه الحسن فيه، وذلك أن هذه الآية تشير إشارة واضحة إلى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر فى وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم، وهو يذهب بكل فريق إلى التعصب لما وجَّه قلبه إليه، وفى ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى، أما اعتقاد جميعهم بإله واحد، فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان واحد يخضع الجميع لحكمه، وفى ذلك نظام أخوتهم وهى قاعدة سعادتهم»(٥).

---

(١) سورة النساء: الآية: (٤٨).

(٢) سورة النساء: الآية: (١١٦).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٣٨).

(٤) الجامع لاحكام القرآن (٩/ ١٩١).

(٥) محاسن التأويل (٦/ ٢٢٥).

ولقد ضرب الله مثلاً للعبد الموحد والعبد المشرك ما قدمنا معناه، فقال- عز وجل-: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

هل يستويان مثلاً ؟

إنهما لا يستويان، فالعبد الموحد فى راحة وأمان، والعبد المشرك فى قلق حيران.

العبد المؤمن فى استقرار، والعبد المشرك نهبٌ للأفكار، وصيد للأشرار العبد الموحد فى استقامة، والعبد المشرك فى ندامة.

إذن: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٢).

الله الواحد القهار خير من الأرباب الباطلة المتفرقة، والأهواء المتعارضة، والآلهة الزائفة القاصرة، والمناهج الأرضية العرجاء.

الله الواحد القهار خير ممن لا يملك نفعًا ولا ضرًّا بل ضره أقرب من نفعه.

(١٠) بيان أن المشركين فى كل زمان ومكان ما يتبعون فى عبادة غير الله إلا أهواءهم(٣).

قال ابن قيم الجوزية: «وإنما عبدوا مسمياتها، والجواب: أنه كما قلتم. إنما عبدوا المسميات ولكن من أجل أنهم نحلوها أسماء باطلة كاللات والعزى وهى مجرد أسماء كاذبة باطلة لا مسمى لها فى الحقيقة فإنهم سموها آلهة وعبدوها لاعتقادهم حقيقة الإلهية لها وليس لها من الإلهية إلا مجرد الأسماء لا حقيقة المسمى فما عبدوا إلا أسماء لا حقائق لمسمياتها وهذا كمن سمى قشور البصل لحمًا وأكلها فيقال ما أكلت من اللحم إلا

---

(١) سورة الزمر: الآية: (٢٩).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٣٩).

(٣) ايسر التفاسير (٥/١٩٣).

مسماه وكمن سمى التراب خُبزًا وأكله يقال ما أكلت إلا اسم الخبز بل هذا النفى أبلغ فى آلهتهم فإنه لا حقيقة لإلهيتها بوجه وما الحكمة ثم إلا مجرد الاسم فتأمل هذه الفائدة الشريفة فى كلامه تعالى[١] .

(١١) الدعوة إلى التوحيد سبيل الأنبياء والمرسلين.

عاش هذا النبى الكريم - عليه السلام- فى القصور وعرف مفاسد الحكم والحكام عن كثب، وذاق من ويلاتهم كيدًا وظلمًا واضطهادًا وسجنًا، وعاش بين ظهرانى أمة وثنية تعبد الأصنام، والأبقار والكواكب فمن أين ينطلق للإصلاح؟ ومن أين تكون نقطة البداية؟!

هل يبدأ فى الدعوة إلى الله وهو مسجون ظلمًا ويشاركه فى السجن مظلومون مثله من إثارتهم وتهييجهم على الحكام الظلمة المستبدين؟! وهذا منطلق سياسى لا شك فيه، والفرصة متاحة أمامه أو يبدأ بالدعوة من حيث انطلق آباؤه الكرام وعلى رأسهم إبراهيم خليل الله وإمام الدعاة إلى توحيد الله، ومن حيث انطلق جميع رسل الله؟! لا شك أن طريق الإصلاح الوحيد فى كل زمان ومكان هو طريق الدعوة إلى العقيدة والتوحيد وإخلاص العبادة لله وحده.

إذًا؛ فليبدأ يوسف من هذا المنطلق: مقتديًا بآبائه الكرام ومعتزًا بعقيدتهم، ومحقرًا ومنددًا بسخف المشركين واتخاذهم أربابًا من دون الله من الأصنام والأبقار والكواكب.

وبعد هذا البيان والدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك يؤكد دعوته وحجته بقوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾[٢] ثم يفسر هذه الحاكمية بتوحيد الله وعبادته وحده ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[٣] .

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٩، ٢٠).

(٢)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٤٠).

ويقول عن التوحيد: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[١].

ويصل يوسف – عليه السلام – إلى أعلى منصب فى هذه الدولة وهو يدعو إلى توحيد الله، ويقيم على دعوته ونبوته البينات.

من فقه سيرة يوسف – عليه السلام – التى عرضتها علينا هذه الآيات الكريمة: أن الدعوة إلى التوحيد أمر لابد منه، وأن الشرك لا هوادة ولا مداهنة فى محاربته، فلا يجوز السكوت عنه مهما كانت ظروف الداعية إلى الله، بل لا يجوز لمسلم إطلاقًا أن يحابى ويداهن فى أمره، وهذا يبين مكانة العقيدة، وعظم شأنها عند الله وعند أنبيائه ورسله، وأن الفرق والبون شاسع جدًّا بينها وبين فروع الإسلام[٢].

(١٢) جواز تسمية السجين بصاحب السجن لطول إقامته معه.

قال الشوكانى: «جعلهما مصاحبين للسجن لطول مقامهما فيه، وقيل: المراد يا صاحبى السجن؛ لأن السجن ليس بمصحوب فيه، وأن ذلك من باب يا سارق الليلة، وعلى الأول يكون من باب قوله: أصحاب الجنة وأصحاب النار[٣].

قال القرطبى: «أى: يا ساكنى السجن وذكر الصحبة، لطول مقامهما فيه؛ كقولك: أصحاب الجنة وأصحاب النار[٤].

(١٣) على الداعية أن لا يفتر عن تعليم الناس وإرشادهم فى كل حين وفى أى مكان.

قال العلمى:

«نتعلم من هذه الآية: أن الرجل المصلح المرشد ينبغى أن لا يفتر عن

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٤٠).

(٢) منهج الأنبياء فى الدعوة إلى الله (ص: ٦٤-٦٧).

(٣) فتح القدير (٣/ ٢٧).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٩٢).

تعليم الناس، وإرشادهم فى كل حين، وفى أى مكان، وعلى أى حال، من عُسر أو يُسر، من ضيق أو فرج، من سرور أو حزن، فهذا النبى يوسف الصديق قام بالنصح والإرشاد وهو فى سجنه، قيامًا بحق الإنسانية، ووفاءً بواجب الدين، نصح ولم تُعقه ضيقة السجن، ولا زور التهمة عن أن يقشع عن الناس سحب الضلال، ويصقل قلوب العامة بصقال العلم، ويجلوها بجلاء المنطق والحكمة، فكان بذلك من المحسنين، فليقم العلماء والمرشدون إلى انتشال الأميين من وهدة الجهل، وليرفعوهم إلى سماء الفضيلة، وليعمموا العلم بين أفراد الأمة[١].

تأويل الرؤيا

وإلى هنا يبلغ يوسف أقصى الغاية من الدرس الذى ألقاه، مرتبطًا فى مطلعه بالأمر الذى يشغل بال صاحبيه فى السجن. ومن ثم فهو يؤول لهما الرؤيا فى نهاية الدرس، ليزيدهما ثقة فى قوله كله وتعلقًا به:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾[٢].

أي: يا صاحبى فى السجن أما الذى رأى أنه يعصر خمرًا فيخرج من السجن ويعود إلى ما كان عليه من سقى سيده الخمر، وأما الآخر الذى رأى على رأسه الخبز فيُقتل ويُعلَّق على خشبة فتأكل الطير من لحم رأسه.

قال المفسرون: روى أنه لما أخبرهما بذلك جحدا وقالا ما رأينا شيئًا فقال: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أى: انتهى وتم قضاء الله صدقتما أو كذبتما فهو واقع لا محالة[٣].

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف (٢/ ٧٢٢) - نقلاً من «إتحاف الإلف».

(٢) سورة يوسف: الآية: (٤١).

(٣) صفوة التفاسير (٢/ ٥٢).

• الدروس المستفادة من الآية:

(١) استحباب التعريض بالكلام إذا كان يسوء غيره.

فقد قال يوسف- عليه السلام-: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ ولم يحدد لهما من الذى سيعيش ومن الذى سيُقتل حتى يستطيع أن يدعوهما إلى التوحيد وينقذهما من نار جهنم.

قال البقاعى: «ولما كان فى الجواب ما يسوء الخباز أبهم، ليجوز كل واحد أنه الفائز، فإن ألجأه إلى التعيين كان ذلك عذراً له فى الخروج عن الأليق.

(٢) استعمال الألفاظ التى تفتح القلوب للدعوة.

فقد قال يوسف- عليه السلام-: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ .. ولم يقل لفظًا يجرحهما حتى يستطيع إيصال دعوته المباركة لهما.

﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾[1] أى: قال يوسف للذى اعتقد نجاته وهو الساقى ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[2][3] أى: اذكرنى عند سيدك وأخبره عن أمرى لعله يخلصنى مما ظُلمت به ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أى: أنسى الشيطان الساقى أن يذكر أمر يوسف للملك ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ أى: مكث يوسف فى السجن بضع سنين.

والضمير الأخير فى(لبث) عائد على يوسف. وقد شاء ربه أن يعلمه كيف يقطع الأسباب كلها ويستمسك بسببه وحده، فلم يجعل قضاء حاجته

---

(١)(٢) سورة يوسف: الآية: (٤٢).

(٣) قال العلامة السعدى: ومن الفوائد: أن من وقع فى مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا، لا يكون شكوى للمخلوق فإن هذا من الأمور العادية، التى جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذى ظن أنه ناج من الفتيين: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٦٢)].

على يد عبد ولا سبب يرتبط بعبد. وكان هذا من اصطفائه وإكرامه.

* إن عباد الله المخلصين ينبغى أن يخلصوا له سبحانه، وأن يَدَعوا له وحده قيادهم، ويدعوا له سبحانه خطاهم. وحين يعجزون بضعفهم البشرى فى أول الأمر عن اختيار هذا السلوك، يتفضل الله سبحانه فيقهرهم عليه حتى يعرفوه ويتذوقوه ويلتزموه بعد ذلك طاعة ورضًا وحبًا وشوقًا.. فيتم عليهم فضله بهذا كله..(١).

• الدروس المستفادة من الآية:

(١) إهمال الحكومات الظالمة حقوق الناس.

قول يوسف الصديق لساقى الملك: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ دليل على أن هذا الملك لا يعلم من أمر رعيته إلا النذر اليسير، فقصة يوسف مع امرأة العزيز شاع خبرها فى المدينة ولم يعلم بها الملك، وسُجن مظلومًا ولم يدر بحاله الملك.

* **قال الطاهر بن عاشور:** «وفيما حكاه القرآن عن حال سجنهم ما ينبئ على أن السجن لم يكن مضبوطًا بسجل يذكر فيه أسماء المساجين وأسباب سجنهم والمدة المسجون إليها ولا كان من وزعة السجون ولا ممن فوقهم من يتعهد أسباب السجن ويتفقد أمر المساجين ويرفع إلى الملك فى يوم من الأسبوع أو من العام.

وهذا من الإهمال والتهاون بحقوق الناس وقد أبطله الإسلام فإن من الشريعة أن ينظر القاضى أول ما ينظر فيه كل يوم أمر المساجين»(٢).

(٢) استبشار يوسف ببراءة ساقى الملك.

فى طلب يوسف الصديق من ساقى الملك أن يذكر مظلمته عند الملك دليل على استبشاره ببراءة ساقى الملك وخروجه من السجن؛ لأمرين:

---

(١) الظلال (٤/ ١٩٩٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٧٩).

الأول: أنه وجد فى سجنه صاحبًا مظلومًا مثله تبرأت ساحته؛ فكان براءة ساقى الملك مقدمة لبراءة يوسف- عليه السلام- وقرب انتهاء معاناته وآلامه، . . . والعامة تقول: «إن مُطرت بلاد بَشِّر بلادًا».

الآخر: أنه وجد من يوصل أمره إلى الملك الذى لا يعلم عن مظلمته شيئًا؛ لأن أمور السجن لم تكن منضبطة.

(٣) جواز الاستعانة بمن هو مظنة كشف الغمة.

* قال أبو حيان: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أى: بعلمى ومكانتى وما أنا عليه مما آتانى الله، أو اذكرنى بمظلمتى وما امتُحنت به بغير حق. وهذا من يوسف على سبيل الاستعانة والتعاون فى تفريج كربه، وجعله بإذن الله وتقديره سببًا للخلاص كما جاء عن عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾[١]، وكما كان الرسول يطلب من يحرسه. . . والذى أختاره أن يوسف إنما قال لساقى الملك: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ليتوصل إلى هدايته وإيمانه بالله، كما توصل إلى إيضاح الحق للساقى ورفيقه[٢].

قال السعدى: «ومنها: أنه لا بأس بالاستعانة بالمخلوق فى الأمور العادية التى يقدر عليها بفعله أو قوله وإخباره؛ كما قال يوسف للذى ظن أنه ناجٍ منهما: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾»[٣].

* * *

س: هل فى قول يوسف - عليه السلام -: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما يناقض التوكل؟

ج: قال شيخ الإسلام[٤]:

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (٥٢).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٢٧٩).

(٣) فوائد مستنبطة من قصة يوسف - عليه السلام - (ص: ٤٤).

(٤) المجموع (١٥/ ١١٣).

ليس في قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما يناقض التوكل؛ بل قد قال يوسف: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ كما أن قول أبيه: ﴿لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ (١) لم يناقض توكله؛ بل قال: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

وأيضا فيوسف قد شهد الله له أنه من عباده المخلصين والمخلص لا يكون مخلصًا مع توكله على غير الله؛ فإن ذلك شرك ويوسف لم يكن مشركًا لا في عبادته ولا توكله بل قد توكل على ربه في فعل نفسه بقوله: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٢) فكيف لا يتوكل عليه في أفعال عباده؟!

وقوله: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ مثل قوله للملك: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (٣) فلما سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا مناقضًا للتوكل ولا هو من سؤال الإمارة المنهي عنه فكيف يكون قوله للفتى: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ مناقضًا للتوكل وليس فيه إلا مجرد إخبار الملك به؛ ليعلم حاله ليتبين الحق ويوسف كان من أثبت الناس.

(٤) طروء الغفلة والنسيان من النبي والعالم والداعية وغيرهم.

قال أبو بكر الجزائري: «غفلة يوسف عليه السلام بإقباله على الفتى وقوله له: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ناسيًا مولاه الحق ووليه الذي أنجاه من القتل وغيابات الجب، وفتنة النساء جعلته يُحبس في السجن سبع سنين (٤).

قال الشوكاني: ويكون المعنى فأنساه الشيطان ذكر إخباره بما أمره به يوسف مع خلوصه من السجن، ورجوعه إلى ما كان عليه من القيام بسقي

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٦٧).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٣٣).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٥٥).

(٤) أيسر التفاسير (٢/٦١٦).

الملك، وقد رجح هذا بكون الشيطان لا سبيل له على الأنبياء. وأجيب بأن النسيان وقع من يوسف، ونسبته إلى الشيطان على طريق المجاز، والأنبياء غير معصومين عن النسيان إلاّ فيما يخبرون به عن الله سبحانه، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني**»[(١)] ورجح أيضًا بأن النسيان ليس بذنب، فلو كان الذى أنساه الشيطان ذكر ربه هو يوسف لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه فى السجن بضع سنين، وأجيب بأن النسيان هنا بمعنى الترك، وأنه عوقب بسبب استعانته بغير الله سبحانه[(٢)].

* * *

س: من المقصود بقوله: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾؟

ج: اختلف علماء التفسير فى الضمير فى قوله تعالى: **﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾** على قولين:

الأول: أنه عائد على يوسف- عليه السلام- أى: أنساه الشيطان ذكر الله- سبحانه وتعالى- فقال لساقى الملك-حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك: **﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾** نسى فى ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به؛ وجنح إلى الاعتصام بالمخلوق؛ فعوقب باللبث فى السجن بضع سنين.

الثانى: أنه عائد على الساقى الملك الناجى، فهو الناسى؛ أى: أنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف لربه.

قلنا: والصواب القول الثانى للوجوه الآتية:

١- الضمير فى لغة العرب يعود إلى أقرب مذكور ما لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٠١) كتاب الصلاة، ومسلم (٥٧٢) كتاب المساجد ومواضع الصلاة من حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه.

(٢) فتح القدير (٣/٢٩).

٢- أن يوسف- عليه السلام- لم ينس ذكر ربه بل كان دائمًا ذاكرًا له.

٣- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ۝٤٥ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾[1] دليل واضح وبرهان لائح على أن ساقي الملك هو الناسي، ولذلك لما رأى الملك رؤياه وعجز جلساؤه عن تعبيرها تذكر ساقي الملك الناسي يوسف- عليه السلام-؛ فولى وجهه نحو السجن يسأل يوسف عن تعبيرها؛ فالمراد أن ساقي الملك عندئذٍ تذكر يوسف وقد كان من قبل ناسيًا لوصية يوسف له عند الخروج من السجن.

٤- أن الحديث المروي في حمل النسيان على يوسف لا يصح، بل هو واهٍ جدًّا... قال ابن كثير[2]- رحمه الله-:

وقوله: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾[3] أي: فأنسى الناجي منهما الشيطان أن يذكر ما وصاه به يوسف - عليه السلام- قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد، وهو الصواب وهو منصوص أهل الكتاب.

(٥) إذا عوَّل العبد في أمر من الأمور على غير الله صار ذلك سببًا إلى البلاء والمحنة والشدة.

قال الفخر الرازي: «والذي جربته من أول عمري إلى آخره أن الإنسان كلما عوَّل في أمر من الأمور على غير الله صار ذلك سببًا إلى البلاء والمحنة، والشدة والرزية، وإذا عوَّل العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه السابع والخمسين، فعند هذا استقر قلبي على أنه لا مصلحة للإنسان في التعويل على شيء سوى فضل الله- تعالى- وإحسانه، ومن الناس من رجح القول الثاني لأن صرف

(١) سورة يوسف: الآيتان: (٤٥، ٤٦).

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير (ص:٢٩٧، ٢٩٨).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٤٢).

وسوسة الشيطان إلى ذلك الرجل أولى من صرفها إلى يوسف الصديق، ولأن الاستعانة بالعباد فى التخلص من الظلم جائزة [١].

(٦) جواز طلب ذكر المحاسن عند الغير مظنة النفع بها والاستفادة منه[٢].

قال ابن عطية: «ومعنى الآية: قال يوسف لساقى الملك حين علم أنه سيعود إلى حالته الأولى مع الملك: اذكرنى عند الملك، فيحتمل أن يريد أن يذكره بعلمه ومكانته، ويحتمل أن يذكره بمظلمته وما امتُحن به بغير حق، أو يذكره بهما»[٣][٤].

وهكذا يهيئ الله الأسباب لأوليائه

لما أراد الله الفرج عن يوسف وإخراجه من السجن، رأى ملك مصر رؤيا عجيبة أفزعته، فجمع السحرة والكهنة والمنجمين وأخبرهم بما رأى فى منامه، وسألهم عن تأويلها فأعجزهم الله جميعًا ليكون ذلك سببًا فى خلاص يوسف من السجن[٥].

* ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾[٦].

قال ابن كثير- رحمه الله-: قال أهل الكتاب: رأى كأنه على حافة نهر، وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان، فجعلن يرتعن فى روضة هناك، فخرجت سبع هزال ضعاف من ذلك النهر، فرتعن معهن ثم ملن عليهن فأكلنهن، فاستيقظ مذعورًا، ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر فى قصبة

(١) تفسير الفخر الرازى (٩/١٤٨، ١٤٩).
(٢) البحر المحيط (٦/٢٧٩).
(٣) المحرر الوجيز (٣/٢٤٧).
(٤) بتصرف من «إتحاف الإلف».
(٥) صفوة التفاسير (٢/ ٥٤).
(٦) سورة يوسف: الآية: (٤٣).

واحدة، وإذا سبع أخر دقاق يابسات فأكلنهن، فاستيقظ مذعوراً[١]..

طلب الملك تأويل رؤياه. فعجز الملأ من حاشيته ومن الكهنة عن تأويلها، أو أحسوا أنها تشير إلى سوء لم يريدوا أن يواجهوا به الملك على طريقة رجال الحاشية في إظهار كل ما يَسرُّ الحكام وإخفاء ما يزعجهم. وصرف الحديث عنه! فقالوا: إنها ﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ أي: أخلاط أحلام مضطربة وليست رؤيا كاملة تحتمل التأويل. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾.. إذا كانت أضغاثًا مختلطة لا تشير إلى شيء![٢].

فعند ذلك تذكر الناجي منهما، الذي وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه فنسيه إلى حينه هذا، وذلك عن تقدير الله عز وجل وله الحكمة في ذلك.

فلما سمع رؤيا الملك، ورأى عجز الناس عن تعبيرها، تذكر أمر يوسف، وما كان أوصاه به من التذكار.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ﴾ أي: تذكر ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد مدة من الزمان، وهو بضع سنين[٣].

﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ أي: أنا أخبركم عن تفسير هذه الرؤيا ممن عنده علم بتأويل المنامات ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي: فأرسلون إليه لآتيكم بتأويلها.. خاطب الملك بلفظ التعظيم. قال ابن عباس: لم يكن السجن في المدينة ولهذا قال فأرسلون[٤] ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ في الكلام محذوف دل عليه السياق وتقديره: فأرسلوه فانطلق الساقي إلى السجن ودخل على يوسف وقال له: يا يوسف يا أيها الصِّدِّيق وسماه صديقًا لأنه كان قد جرب صدقه في تعبير الرؤيا التي رآها في السجن، والصدِّيق مبالغة من الصدق ﴿أَفْتِنَا فِي

(١) قصص الأنبياء (ص: ٢٨٤).
(٢) الظلال (٤/١٩٩٣).
(٣) قصص الأنبياء (ص: ٢٨٤).
(٤) الطبري (١٢/٣٢٩).

سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾(١) أي: أخبرنا عن تأويل هذه الرؤيا العجيبة ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٢) أي: لأرجع إلى الملك وأصحابه وأخبرهم بها ليعلموا فضلك وعلمك ويخلصوك من محنتك.

قال الإمام الفخر: وإنما قال ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ لأنه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسألة فخاف أن يعجز هو أيضًا عنها، فلهذا السبب قال: ﴿لَعَلِّي﴾(٣)... ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي: تزرعون سبع سنين دائبين بجد وعزيمة ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾ أي: فما حصدتم من الزرع فاتركوه في سنبله لئلا يسوس ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: إلا ما أردتم أكله فادرسوه واتركوا الباقي في سنبله ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي: ثم يأتي بعد سني الرخاء سبع سنين مجدبات ذات شدة وقحط على الناس ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: تأكلون فيها مما ادخرتم أيام الرخاء ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي: إلا القليل الذي تدخرونه وتخبئونه للزراعة ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي: ثم يأتي بعد سني القحط والجدب العصيبة عام رخاء فيه يُمطَر الناس ويُغَاثون، وفيه يعصرون الأعناب وغيرها لكثرة خصبه.

قال الزمخشري: «تأول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، ثم بشرهم بأن العام الثامن يجيء مباركًا خصيبًا، كثير الخير، وغزير النعم، وذلك من جهة الوحي»(٤).

---

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (٤٣).

(٣) الرازي (١٨/ ١٤٩).

(٤) الكشاف (٢/ ٤٧٧) نقلاً من صفوة التفاسير (٢/ ٥٥، ٥٦).

• الدروس المستفادة من الآيات:

(١) إذا أراد الله تفريج كرب إنسان جعل لذلك سببًا:

قال القرطبي:

«قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ[1] سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ لما دنا فرج يوسف- عليه السلام- رأى الملك رؤياه، فنزل جبريل- عليه السلام- فسلم على يوسف وبشره بالفرج وقال: إن الله مُخرجك من سجنك، ومُمكّن لك فى الأرض، يذل لك ملوكها، ويطيعك جبابرتها، ومعطيك الكلمة العليا على إخوتك، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهى كيت وكيت، وتأويلها كذا وكذا، فما لبث فى السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج، فجعل

---

(١) يوجد فى هذه السورة خمسة مرائى:

الأولى: رؤيا يوسف أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر ساجدين له.

والثانية: رؤيا رئيس السقاة أنه يعصر خمرًا.

والثالثة: رؤيا رئيس الخبازين أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه.

والرابعة والخامسة: رؤيا الملك البقرات ثم رؤياه السنابل، وكل ذلك رؤياه، لم تحتو مادته على لغة وكلام، ولكن على شىء منظور، نعم فى ذلك أفكار مجسمة، وتجسيم الأفكار هو الأصل فى الرموز.

ففى الرؤيا الأولى، علو يوسف وشرفه مجسم فى ذاته المسجود له، وخضوع إخوته مجسم فى ذوات إخوته الساجدين.

وأما الرؤيا الثانية: فرجوع رئيس السقاة إلى رتبته عند الملك هو مجسم فى عصر الخمر للملك.

وأما فى الرؤيا الثالثة: فصلب رئيس الخبازين هو مجسم فى الخبز المعلق فوق رأسه.

وأما فى رؤيتى الملك: فالخصب مجسم فى أشخاص البقرات السمان والسنابل الخضر، والجدب مجسم فى أشخاص البقرات العجاف والسنابل اليابسات، فالأفكار والآراء تتجسم للرائى فى الحلم أشخاصًا أو أشياء.

وقد يخطر بالبال سؤال: أما يكفى أن تكون الرؤيا مشتملة على أحد الصنفين فقط السبع بقرات أو السبع سنبلات.

والجواب -والله أعلم-: أن هذا التعدد إما للتأكيد؛ وإما أن الإشارة بالسبع بقرات إلى الثروة الحيوانية، وبالسبع سنبلات إلى الثروة الزراعية، ومعلوم مقدار ارتباط الثروة الزراعية بالثروة الحيوانية خاصة فى تلك المجتمعات فى ذلك الزمن.

الله الرؤيا أولاً ليوسف بلاء وشدة، وجعلها آخراً بشرى ورحمة»[١].

قال السعدى:

«لما أراد الله -تعالى- أن يخرج يوسف من السجن، أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة، التى تأويلها يتناول جميع الأمة، ليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله، ويبين من علمه ما يكون له رفعة فى الدارين»[٢].

* * *

س: لماذا سمى القرآن هذا الحاكم بلفظ ﴿الْمَلِكُ﴾ ولم يسمه بلفظ «فرعون»؟

ج: سماه القرآن هنا ملكًا ولم يُسمه فرعون لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط، وإنما كان ملكًا لمصر أيام حكمها (الهكسوس)، وهم العمالقة، وهم من الكنعانيين، أو من العرب، ويعبر عنهم مؤرخو الإغريق بملوك الرعاة، أى البدو. وقد ملكوا بمصر من عام ١٩٠٠ إلى عام ١٥٢٥ قبل ميلاد المسيح عليه السلام. وكان عصرهم فيما بين مدة العائلة الثالثة عشرة والعائلة الثامنة عشرة من ملوك القبط، إذ كانت عائلات ملوك القبط قد بقى لها حكم فى مصر العليا فى مدينة (طيبة) كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ﴾. وكان ملكهم فى تلك المدة ضعيفًا لأن السيادة كانت للملوك مصر السفلى. ويقدر المؤرخون أن ملك مصر السفلى فى زمن يوسف عليه السلام كان فى مدة العائلة السابعة عشرة.

فالتعبير عنه بالملك فى القرآن دون التعبير بفرعون مع أنه عبر عن ملك مصر فى زمن موسى عليه السلام بلقب فرعون هو من دقائق إعجاز القرآن العلمى. وقد وقع فى التوراة إذ عبر فيها عن ملك مصر فى زمن يوسف

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٩٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٦).

عليه السلام فرعون وما هو بفرعون لأن أمته ما كانت تتكلم بالقبطية وإنما كانت لغتهم كنعانية قريبة من الآرامية والعربية، فيكون زمن يوسف عليه السلام فى آخر أزمان حكم ملوك الرعاة على اختلاف شديد فى ذلك[١].

وقال العلمى: «عبر القرآن الكريم على كبير مصر الذى كان فى عهد يوسف بلفظ «ملك» ولم يعبر بلفظ «فرعون»؛ لأن هذا الملك «الملك الريان» لم يكن من «القبط» بل كان من البدو الغرباء المحتقرين المكروهين فى نظرهم، وقد كان فى اصطلاح المصريين الأقباط أن لا يطلقوا كلمة «فرعون» إلا على من كان مستوليًا على مصر استيلاء شرعيًا وكان مصريًا قحًا، وليس دخيلاً أو مستعمرًا، وعلى هذا جرت عادة كتاب الله أن يراعى الاصطلاحات المعروفة عند أهلها، وهو ما فهمته فى توجيه تسمية حاكم مصر فى زمن يوسف بلفظ «ملك» فى خمسة مواضع من هذه السورة الكريمة[٢].

* * *

س: هل تصح رؤيا الكافر؟

ج: (١) قال القرطبى: «هذه الآية أصل فى صحة رؤيا الكافر، وأنها تخرج على حسب ما رأى. لاسيما إذا تعلقت بمؤمن، فكيف إذا كانت آية لنبى، ومعجزة لرسول، وتصديقًا لمصطفى للتبليغ»[٣].

قال أبو بكر الجزائرى: «وفى هذه دليل على رؤيا الكافر؛ وأنه قد يرى ما هو الحق؛ وذلك بتدبير الله تعالى[٤].

(٢) إن الملك إذا حزبه أمر هرع إلى بطانته ومساعديه وأشراف قومه.

قال القرطبى: «فهالته الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبصر

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٨٠).

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف (٢/ ٧٩٤-٧٩٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٠٤).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ٦١٩).

بالكهانة والنجامة والعرافة والسحر، وأشراف قومه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ﴾ فقص عليهم، فقال القوم: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ قال ابن جريج: قال لى عطاء: إن أضغاث الأحلام الكاذبة المخطئة من الرؤيا»[1].

وقال أحمد نوفل: «ولقد عرض الملك رؤياه على مستشاريه، وقد يكون من بينهم عرافون وكهنة وسحرة وكان هؤلاء يشكلون مجلس الملوك؛ يستشيرونهم إذا حزبت الأمور واكفهرت، ومن الطبيعى أن يهرع الملك إلى الملأ الذين هم حاشيته وبطانته وكهنته يعرض عليهم رؤياه حتى يعبروها له»[2].

(٣) الملوك أشد الناس احتياجًا للعلماء.

نتعلم من قول «الريان» للملأ الذين هم الكهنة والكتبة والحكماء: أن الملوك مهما كانوا من ذوى الأيد والشدة، لا يستغنون عن أهل العلم، يستنيرون بنور علومهم، فى دياجى الحوادث، فكم من ملك بنى القلاع والحصون، وقاد الجيوش، واستكثر من السلاح والكراع، وأوغل فى الفتح ودوَّخ البلاد، واستعبد الأمم، وعاش فى الغبطة والسرور، ومع كل هذا لم يستغن عن سؤال العلماء، والاستفادة من معارفهم، فقول «الريان بن الوليد» ههنا: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ﴾ قول يتضمن احتياج الملوك للعلماء وكفى بهذا شرفًا للعلم وأهله[3].

(٤) البطانة لها أثر كبير فى توجيه الحاكم.

عن أبى سعيد وأبى هريرة رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**ما بعث الله من نبى، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله**»[4].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٩٩).

(٢) سورة يوسف دراسة تحليلية (ص: ٤٠٢).

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف (٢/ ٧٩٦، ٧٩٧).

(٤) أخرجه البخارى (١٣/ ١٦٤، ١٦٥).

قال أحمد نوفل: «وقد يكونون عرفوا تأويلها لكنهم خشوا أن يقولوا الحقيقة، وأرادوا أن يطمئنوا الملك ولو طمأنة خادعة على حساب الحقيقة ومصلحة الملك ومصلحة الأمة..

وهنا نقول: إن البطانة لكل حاكم... دورها مهم خطير جدًّا أن تكون ناصحة جريئة فى قول ما تعتقد أنه الحق ولا تخشى، ولا تقول الذى يُرضى عنها الحاكم مؤقتًا معجلاً ولو جَنَت على الأمة وعليه وعلى نفسها»[١] .

(٥) معجزة كل نبى فى زمانه تناسب أهل ذلك الزمان.

قال ابن كثير: «كانت معجزة كل نبى فى زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان: فذكروا أن موسى - عليه السلام - كانت معجزته عليه السلام ما يناسب أهل زمانه وكانوا سحرة أذكياء، فبُعث بآيات بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهى إليه وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذى لا يمكن صدوره إلا عمَّن أيده الله وأجرى الخارق على يديه تصديقًا له، أسلموا سراعًا ولم يتلعثموا.

وهكذا عيسى ابن مريم بُعث فى زمن الطبائعية الحكماء، فأُرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها، وأنَّى لحكيم إبراء الأكمه الذى هو أسوأ حالاً من الأعمى، والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره ؟ هذا مما يعلم كل أحد معجزة دالة على صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله.

وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين بُعث فى زمن الفُصحاء البلغاء، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فلفظه مُعجز تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة، وقطع بأنهم لا

---

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية (ص: ٤٠٣).

يقدرون لا فى الحال ولا فى الاستقبال[١].

قلنا: ومن ذلك معجزة يوسف -عليه السلام- كانت تعبير الرؤيا؛ فإن القبط اشتهروا بذلك فى ذلك الزمان.

قال ابن عاشور:

«وكان تعبير الرؤيا مما يشتغلون به. وكان الكهنة منهم يعدونه من علومهم ولهم قواعد فى حل رموز ما يراه النائم. وقد وجدت فى آثار القبط أوراق من البردى فيها ضوابط وقواعد لتعبير الرُّؤى، فإن استفتاء صاحبى السجن يوسف - عليه السلام- فى رؤييهما ينبئ بأن ذلك شائع فيهم، وسؤال المَلك أهل ملأه تعبير رؤياه ينبيء عن احتواء ذلك الملأ على من يُظنّ بهم علم تعبير الرؤيا، ولا يخلو ملأ الملك من حضور كهان من شأنهم تعبير الرؤيا [٢].

وقال محمد رشيد رضا: ولكن قدماء المصريين كانوا يعنون بها»[٣].

(٦) ينبغى بذل العلم ونشره بلا تأخر ولا شرط.

قال ابن كثير: «فبذل يوسف - عليه السلام - ما عنده من العلم بلا تأخر ولا شرط ولا طلب الخروج سريعًا بل أجابهم إلى ما سألوا وعبر لهم ما كان من منام الملك الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدب»[٤].

* قال العلمى: «أجابهم يوسف على الفور، ولم يشترط أن يُخرجوه لقاء ذلك؛ لأنه كريم. وشأن الكريم: عدم الإبطاء والإخلاص فى الإعطاء. أفتاه يوسف مع أنه كان عَهِد إليه بتوسطه عند مليك مصر ولم يفعل، وإنما

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير (ص: ٧١٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٨١).

(٣) تفسير القرآن الكريم (١٢/ ٣١٨).

(٤) البداية والنهاية (١-٢/ ٢٠٩).

بسط له التدبير اللازم وكيفية تلطيف هذه الأزمة التى ستحل بالمصريين، مع أن المصريين هم الذين سجنوه ظلمًا، لأن النصيحة من الإيمان، وكاتم العلم ملعون، لأن الذى سجنه إنما هو واحد، وكذلك الذى نسى أن يذكر حال يوسف ومظلمته للملك إنما هو -أيضًا- واحد، فكيف يبخل يوسف بالعلم وحسن التدبير بذنب رجل أو رجلين»[1].

(٧) العلم يجلب احترام الخلق للعالم.

قال أحمد نوفل: «ذُكر يوسف باسمه هنا ولم يُذكر فى المرة الأولى باسمه عندما طلب منه السجينان تفسير رؤييهما أول مرة.

وفى هذا لفتة أن يوسف - عليه السلام- قد شق لنفسه بذلك التأويل وبعقله السديد ورأيه الراجح، شق له طريقًا إلى قلوب الناس واحترامهم»[2].

(٨) إظهار فضل العالم على أقرانه إنما يكون عند عجزهم وقدرته على ما عجزوا عنه.

قال السعدى: وهذا- أيضًا - من لطف الله بيوسف عليه السلام. فإنه لو عبرها ابتداء - قبل أن يعرضها الملك على الملأ من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها - لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتمًا لها غاية الاهتمام، فعبرها يوسف وقعت عندهم موقعًا عظيمًا.

هذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا. ثم سأل آدم، فعلمهم أسماء كل شىء، فحصل بذلك زيادة فضله، وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد ﷺ فى القيامة، أن يُلهم الله الخلق أن يتشفعوا بآدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف (٢/٨١٩ - ٨٢٠).

(٢) سورة يوسف دراسة تحليلية (ص: ٤٠٧).

السلام، فيعتذرون عنها، ثم يأتون محمداً ﷺ فيقول: «أنا لها أنا لها» فيشفع في جميع الخلق، وينال ذلك المقام المحمود، الذي يغبطه به الأولون والآخرون، فسبحان من خفيت ألطافه، ودقَّت في إيصال البر والإحسان، إلى خواص أصفيائه وأوليائه[1].

* * *

س: جمع الملأ في جوابهم على الملك ثلاث خصال مذمومة، بيِّن هذه الخصال؟

ج: من هذه الخصال ما يلي:

أولاً: الجهل إذ لم يعلموا تفسير الرؤيا.

ثانيًا: الجزم - بغير علم- بأنها أضغاث أحلام.

ثالثًا: الزهو والإعجاب بالنفس، فلم يقولوا: لا نعلم تأويلها، بل اغتروا اغترارًا بأنفسهم إذ قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ أي: لو كانت رؤيا لأولناها، ولكن لكونها أضغاث أحلام من الشياطين فإنا لا نُعبرها[2].

(٩) الرؤيا تقع على مثل ما تعبَّر:

«إن الرؤيا تقع على ما تُعبَّر، ومثل ذلك مثل رجل رفع رجله، فهو ينتظر متى يضعها، فإذا رأى أحدكم؛ فلا يحدث بها إلا ناصحًا أو عالمًا»[3].

قال شيخنا الإمام العلامة الألباني- رحمه الله- في «السلسلة الصحيحة» (١٢٠) معلقًا على حديث «الرؤيا على رجل طائر...».

والحديث صريح بأن الرؤيا تقع على مثل ما تعبَّر، ولذلك أرشدنا رسول الله ﷺ إلى أن لا نقصها إلا على ناصح أو عالم، لأن المفروض أن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٦، ١٧).

(٢) التسهيل (ص: ١٨٧).

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٩١) بإسناد صحيح على شرط البخاري.

يختار أحسن المعاني في تأويلها، فتقع على وفق ذلك، لكن مما لا ريب فيه أن ذلك مقيد بما إذا كان التعبير مما تحتمله الرؤيا، ولو على وجه، وليس خطأ محضًا، وإلا فلا تأثير له حينئذ. والله أعلم».

وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام البخاري في كتاب التعبير من صحيحه بقوله (٤/ ٣٦٢): «باب من لم ير الرؤيا لأول عابر إذا لم يصب».

ثم ساق حديث الرجل الذي رأى في المنام ظله، وعبرها أبو بكر الصديق، ثم قال: فأخبرني يا رسول الله بأبي أنت! أصبت أم أخطأت؟ قال النبي ﷺ: «أصبت بعضًا وأخطأت بعضًا».

* وقفة لطيفة:

«قد يرى الإنسان رؤى وأحلامًا، فإن كان ما يراه قابلاً للتأويل؛ فليسأل عنه من يقدرون على تأويله، إما إن كان ما يراه حلمًا من الشيطان؛ فليتجاوز عنه، ولا يذكره لأحد»[1].

(١٠) إذا أراد الله أمرًا هيأ له الأسباب، وفتح إليه الأبواب.

قال أحمد نوفل:

«وعندما يأذن الله- تعالى- بانفراج الأزمة عن عبده، بعد هذه السنوات التي شاء الله أن يربيه فيها على تحمل المشقات والصعاب وعلى الإحساس بآلام الأمة ومعاناة أصحاب المعاناة، حتى إذا استلم الدفة كان شاعرًا بهم مدركًا لآلامهم عاملاً على تخفيف معاناتهم..

أقول: عندما أذن الله بالفرج هيأ الأسباب حيث حركت رؤيا الملك ذاكرة الساقي.

لقد أثارت الرؤيا ما كان دفن من عهد بيوسف، فهتف الساقي: مَن دبت فيه حياة بعد موت أنا أنبئكم بتأويله... وتأمل الثقة: ﴿أنا أُنبِّئكم﴾ فهو

(١) دروس مستفادة من سورة يوسف (ص: ٣٠).

قاطع جازم بأنه سيعود بالتفسير، فقط أرسلوه، ويطوى السياق الزمن والمسافة وإذ بنا من بلاط الملك ننتقل إلى حيث يوسف يقبع فى السجن كل هذه السنين، وما نالت السنون من معنوياته شيئًا» [(١)].

(١١) الصدق منجاة.

انطلق الساقى يعدو فى ذهابه حتى كاد يخرج من إهابه واثقًا أنه سيأتى بالخبر اليقين، لأنه جرّب صدق يوسف ورأى صحة تعبيره، وقد قيل: سَلْ مجربًا ولا تسل حكيمًا.

قال العلمى: «ولما أتاه قال له: يا ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ البليغ فى الصدق، لقد تعودنا أن نسمع حديثك، وفتواك الصحيحة، التى ذقت أحوالها وتعرفت صدقها فى تأويل رؤياى ورؤيا صاحبى حيث قد جاءت كما أولت لنا، فنرجوك الآن: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ﴾ وإن أمكنك أن تكون الفتيا فى هذه الجلسة فذاك هو المطلوب حيث الحاجة ماسة والمسألة مستعجلة... ﴿لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ وهم الملك وحاشيته ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ التأويل أو يعلمون فضلك ومكانك من العلم، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك» [(٢)].

(١٢) الصدق لا يأتى إلا بخير.

قال أحمد نوفل:

«صدق يوسف فى تعبير رؤيا السجينين ووقوع الأمر على وفق ما قال؛ جعل لكلامه احترامًا ومهابة؛ ولو جامل بحجة الحرص على معنويات السجينين لخسر هذا الاعتبار، فالصدق لا يأتى إلا بخير، ولا يكون من نتائجه إلا الخير، وإن بدا مُرًّا فى أول الأمر» [(٣)].

---

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية (ص: ٤٠٥، ٤٠٦).

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف (٢/٨٠٩، ٨١٠).

(٣) سورة يوسف دراسة تحليلية (ص: ١٠٥).

* ثم قال:

«وصف يوسف بالصدِّيق الذى انطلقت من لسان الساقى صار من الأوصاف الملازمة لاسم يوسف - عليه السلام- فلا يُترجَم له فى الغالب إلا مقترنًا الاسم والوصف: يوسف الصديق. وإنما حاز هذا الوصف من صدقه البالغ وتأويله الصحيح لرؤيا السجينين»[1].

(١٣) حسن السؤال يوصل إلى المقصود.

قال العلمى: «مما يستحق الذكر أن رئيس السقاة لم يبين ليوسف من هو الذى رأى هذه الرؤيا، وتتميمًا لهذا التستر، تجده ذيَّل استفتاءه بقوله: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ عبر بهذا بدلاً من أن يقول: أفتنا فى رؤيا رآها الملك وهى كيت وكيت، ثم يذيل سؤاله بأن يقول: لعلى أرجع إلى الملك لعله يعلم، فما هى النكتة يا ترى فى ذلك؟

وعندنا أن الداعى لذلك هو: أن رئيس السقاة خاف من يوسف لو علم أن الحلم هو حلم الملك أن لا يؤوله إلا بعد خروجه من السجن، ووقوفه أمام الملك، مشترطًا ذلك توصلاً لخروجه من معتقله؛ فلما ظن ذلك، وهو حريص على تأويل الحلم، وحريص - أيضًا - أن يسمع الملك تأويل حلمه من فم يوسف، بل من فمه؛ لينال حظه عند الملك بذلك، فلهذا ستر الحالم ودحر تفصيل الواقعة دحرًا» [2].

(١٤) الوصف بالإفتاء أكمل من الوصف بالإنباء.

قال أحمد نوفل: «عبر الساقى هنا بقوله: أفتنا، وأول مرة قال له الفتيان: نبئنا بتأويله، وفى قوله: أفتنا مزيد من التكريم والاحترام ليوسف - عليه السلام- ؛ إذ فيه نعت له بوصف الإفتاء الذى هو يتضمن الإنباء وزيادة

---

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية (ص ٤٠٧).

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف (٢/ ٨١٣).

نعت للمتصف له بالكرم، إذ مادة الفتيا والفتوة تلتقيان، والفتوة: النجدة والكرم.

ووصف في المرة الأولى بمجرد الإنباء دون الإفتاء، لأنهم ظنوا فيه العلم وتوسموه فيه، وصدق ما توسموه وزيادة، فزادوا على وصفه بالإنباء، فوصفوه بالإفتاء»(١).

(١٥) ينبغي إعذار الإنسان، وعدم لومه وتعنيفه ولو سبَّب حرجًا لغيره.

قال السعدي: «﴿أنا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى يوسف، لأسأله عنها، فأرسلوه؛ فجاء إليه، ولم يعنفه يوسف على نسيانه بل استمع ما يسأله عنه وأجابه عن ذلك»(٢).

قال العلمي:

«كان الشرابي يتوقع أن يوسف سيُذكره بما كان رغب إليه فيه، ويعاتبه على عدم قيامه به، ولكن يوسف - عليه السلام- لم يفعل؛ إما ترفعًا عنه، أو كرم أخلاق منه»(٣).

(١٦) وجوب الاستعداد وأخذ الحيطة وإعداد العدة للطوارئ.

قوله: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ما يجب أن يعملوا بعد العلم به؛ فيأخذوا أهبتهم واستعدادهم، فرجوعه إلى الناس مما يُشعر أن الأمر لا يختص بالملك بل بالملك والملأ والرعية.

(١٧) في حالة الطوارئ يجب استنفار كل طاقات الشعب:

قال أحمد نوفل:

«وبادر يوسف لا ليفسر الرؤيا وحسب، ولكن يرسم خطة علمية تستغرق القطر كله والشعب المصري كله: ﴿تَزْرَعُونَ﴾ وتستغرق سنين بطولها: ﴿سَبْعَ

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية (ص: ٤٠٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٧).

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف (٢/ ٨١٢).

سنين» والسؤال الذى قد ينشأ عند سماع كلامه: أليس الشعب المصرى يزرع، فما الجديد فى كلام يوسف؟ إن الجديد فى مقدار التعبئة وتجنيد الطاقات وحشد القوى، ثم فرق آخر فى نسبة تشغيل طاقة كل فرد.

وإن فى كل فرد فينا طاقات ضخمة لو يكتشفها، ثم ينظمها ويجندها لقضية من القضايا، ضمن خطة عامة تستغرق الأمة بكاملها.

ونذكر كيف أن النبى ﷺ وصحابته الكرام أنجزوا حفر الخندق على طول المدينة وباتساع ما لا يقل عن ثلاثة أمتار وبعمق مناسب لا نتصوره يقل عن مترين. كل ذلك فى غضون أيام لم تصل أسبوعين.

هذا هو التشغيل الكامل للأمة والبرمجة الكاملة للوقت، ثم التشغيل الكامل لطاقة كل فرد فى الأمة، وهذا الذى كان يخطط له يوسف وعبّر عنه بكلمة تزرعون.

وإن الذى يخطط له يوسف باختصار هو مضاعفة الإنتاج وتقليل الاستهلاك؛ لأن الأزمات والظروف الاستثنائية تحتاج إلى سلوك استثنائى، ولئن كان سلوك الناس فى الأزمات عين سلوكهم فى الظروف العادية: استرخاء وبطالة، فإن هذه الأمة تكون فى حال خطير يحتاج إلى علاج.. ومعالج خبير»(١).

(١٨) مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية والأخروية، وهذا فضل من الله ورحمته.

قال القرطبى: «هذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشرعية التى هى حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال، فكل ما تضمن تحصيل شىء من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يفوت شيئًا منها فهو مفسدة، ودفعه مصلحة، ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم

---

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية (ص: ٤٠٨، ٤٠٩).

الدنيوية، ليحصل لهم التمكن من معرفة الله- تعالى- وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية، ومراعاة ذلك فضل من الله عز وجل ورحمة رحم بها عباده، من غير وجوب عليه، ولا استحقاق، . .. هذا مذهب كافة المحققين من أهل السنة أجمعين، وبسطه فى أصول الفقه[١].

(١٩) يوسف- عليه السلام- كان عالمًا بطريقة تسييس الناس وتحصيل منافعهم.

قال أحمد نوفل: «ومما أعان يوسف على كسب احترام الشعب أنه تقدم- لأول مرة- ببرنامج عمل محدد واضح، وأنه حذرهم من أخطار المستقبل إن لم يتداركوا أنفسهم، وأعانه كذلك سمعة طيبة نقية بلغت القاصى والدانى.

... كل ذلك كَفَلَ ليوسف نجاحًا باهرًا وجعل منه الإدارى الذى لا يبارى. بعد التخطيط للإنتاج، هناك التخطيط الذى لا يقل أهمية: التخطيط للتخزين وللاستهلاك ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾.

* فائدتان نأخذهما من النص:

أولاهما: التخزين فى السنابل، وهذا يحفظ القمح من التسوس والفساد.

ثم فائدة أخرى: فى تقنين الاستهلاك أو ما يعبر عنه بلغة العصر: التموين بالبطاقات[٢].

* * *

س: كيف كانت خطة يوسف - عليه السلام - للوصول بالشعب المصرى إلى بر الأمان؟

ج: كانت خطة يوسف - عليه السلام - تقوم على تخطيط دقيق وترتيب محكم وخبير خريت ورجاء بالله كبير.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/٢٠٣)، وانظر أيسر التفاسير (٢/٦١٨).

(٢) سورة يوسف دراسة تحليلية (ص: ١٤٠).

لقد اشتملت خطة يوسف - عليه السلام- للوصول بالشعب المصرى إلى بر الأمان على كل عناصر النجاح:

١- التخطيط الدقيق، وعناصره:

أ- طويل الأمد لمدة خمسة عشر عامًا.

ب- تنفيذه على مراحل: تزرعون سبع سنين دأبًا، ثم يأتى بعد ذلك سبع شداد، ثم يأتى من بعد ذلك عام يُغاث فيه الناس.

ج- زيادة الإنتاجية فى المرحلة الأولى للوصول إلى أعلى مستويات الأداء وباستخدام أقل ما يمكن من الموارد، واستخدام كل الطاقات الموجودة بزيادة نسبة التشغيل والفاعلية.

د- تحديد الأهداف واستشراف المستقبل.

٢- الترتيب المحكم، ودعائمه:

أ- الإنتاج والادخار وترشيد الاستهلاك.

ب- حفظ المقادير الزائدة بطرق علمية لكى لا يُفسدها السوس والرطوبة.

ج- إعادة استثمار المدخرات.

د- التوازن بين الإنتاج والاستهلاك والادخار.

٣- الخبير الخريت.

وهو ما سيأتى تفصيله وتأصيله فى قوله: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾(١).

٤- رجاء بالله كبير.

وهو ما تضمنه بث الأمل فى النفوس(٢).

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٥٥).

(٢) إتحاف الإلف (١/ ٥٦٣).

س: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يغاثون بماذا؟ ويعصرون ماذا؟

ج: يغاثون بالمطر، ويعصرون كل ما يُعصر، فيعصرون العنب، ويعصرون الزيتون، ويعصرون السمسم، ومن العلماء من قال: «يعصرون» معناها: يحلبون[١].

* * *

س: كيف استدل يوسف - عليه السلام - على العام الخصيب مع أنه لا ذكر له في الرؤيا؟

ج: لأنه - والله أعلم -: علم أن الشداد إنما هي سبع فقط، فمن ثَمَّ سيتلوها عام خصيب.

ووجه آخر من أوجه الإجابة: أن الله سبحانه أعلمه بذلك[٢].

(٢٠) بقاء القمح في سنبله يمنع التسوس ويبقى سليمًا أطول مدة.

قال محمد رشيد رضا: «﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾ أي: فكل ما حصدتم منه في كل زرعة فاتركوه، أي: ادخروه في سنبله بطريقة تحفظه من السوس بعدم سريان الرطوبة إليه»[٣].

وقال القرطبي: «﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾ قيل: لئلا يتسوس، وليكون أبقى، وهكذا الأمر في ديار مصر»[٤].

(٢١) لن يغلب عسر يسرين.

بدأ تأويل يوسف لرؤيا الملك بذكر يسر وهو: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾، ثم ذكر العسر وهو: ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾، ثم ختم بيسر هو: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[٥].

---

(١) التسهيل (ص: ١٩٢).

(٢) التسهيل (ص: ١٩٢).

(٣) تفسير القرآن الحكيم (١٢/ ٣١٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٠٣).

(٥) سورة يوسف: الآية: (٤٩).

ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1].

ورحم الله القائل: لن يغلب عُسر يُسرين.

ولله درُّ القائل:

عسى فرج يأتى به الله إنه ... له كل يوم فى خليقته أمرُ

عسى ما ترى أن لا يدوم وأن ترى ... له فرجًا مما ألحّ به الدهرُ

إذا اشتد عُسر خارج يسرًا فإنه ... قضى الله أن العسر يتبعه اليسرُ

(٢٢) استحباب التبشير بالخير ولو سبقه شدة وبلاء.

قال أبو حيان: «ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بمجيء العام الثامن مباركًا خصيبًا كثير الخير غزير النعم، وذلك من جهة الوحى.

وعن قتادة: زاده الله علم سنة، والذى من جهة الوحى هو التفصيل بحال العام بأنه فيه يغاث الناس، وفيه يعصرون، وإلا فمعلوم بانتهاء السبع الشداد مجيء الخصب»[2].

قال ابن كثير:

«ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالى بأنه يعقبهم بعد ذلك: ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ أى: يأتيهم الغيث، وهو المطر، وتغل البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت وسكر ونحوه»[3][4].

* * *

(١) سورة الشرح: الآيتان: (٥، ٦).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٢٨٦).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٢).

(٤) بتصرف من «إتحاف الإلف».

س: هناك آداب تستفاد من تفسير يوسف - عليه السلام - لرؤيا الملك وضح بعض هذه الآداب؟

ج: من هذه الآداب ما يلي:

أولاً: عدم تعنيف يوسف - عليه السلام - للناجي من السجينين لكونه لم يذكر شأن يوسف للملك، إذ قال له: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ولم يفعل.

ثانيًا: عدم اشتراط يوسف أجرًا على تأويل الرؤيا.

ثالثًا: عدم اشتراط يوسف الخروج قبل تفسير الرؤيا [١].

* * *

س: وضح معنى ما ورد عن النبي ﷺ إذ قال: «لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»؟

ج: ابتداءً فالحديث أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي، ونحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[٢]» [٣].

والحديث فيما يبدو لي يحمل ثناءً على نبي الله يوسف - عليه السلام- لصبره وكرمه وتأنيه في الخروج من السجن حتى تثبت براءته.

* كما أن الحديث يوضح أيضًا مدى التواضع الذي كان يتحلى به النبي محمد ﷺ فهو أفضل الأنبياء على الإطلاق ومع ذلك يقول هذا الكلام تواضعًا منه ﷺ.

* * *

(١) التسهيل (ص: ١٨٩).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٢٦٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٧٢) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٥١) كتاب الإيمان.

س: ما مناسبة قول النبى ﷺ: «اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف»؟ وما وجه هذا الدعاء؟

ج: مناسبة ذلك تتضح مما أخرجه البخارى[1] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن قريشًا لما أبطأوا عن رسول الله ﷺ بالإسلام قال: «اللهم اكفنيهم بسبع كسبع يوسف» فأصابتهم سنة حصَّت كل شىء، حتى أكلوا العظام، حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها مثل الدخان، قال الله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[2]، قال الله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾[3] أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة وقد مضى الدخان ومضت البطشة.

وظهرت براءته (عليه السلام)

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[4].

لما أحاط الملك علمًا بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام، وتمام عقله ورأيه السديد وفهمه، أمر بإحضاره إلى حضرته، ليكون من جملة خاصته.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ أى فلما جاء رسول الملك يوسف ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أى قال يوسف للرسول: ارجع إلى سيدك الملك ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أى سله عن قصة النسوة اللاتى قطعن أيديهن هل يعلم أمرهن؟ وهل يدرى لماذا حُبست ودخلت السجن؟ وأنى ظُلمت بسببهن؟ أبى عليه السلام أن يخرج من السجن حتى تُبرأ ساحته من تلك التهمة الشنيعة،

---

(١) البخارى (حديث ٤٦٩٣).

(٢) سورة الدخان: الآية: (١٠).

(٣) سورة الدخان: الآية: (١٥).

(٤) سورة يوسف: الآية: (٥٠).

وأن يعلم الناس جميعًا أنه حُبس بلا جرم ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أي إنه تعالى هو العالم بخفيات الأمور وبما دبرن من كيد لي ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ جمع الملك النسوة ودعا امرأة العزيز معهن فسألهن عن أمر يوسف وقال لهن: ما شأنكن الخطير حين دعوتن يوسف إلى مقارفة الفاحشة؟ ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ أي معاذ الله أن يكون يوسف أراد السوء، وهو تنزيه له وتعجب من نزاهته وعفته ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي ظهر وانكشف الحق وبان بعد خفائه ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي أنا التي أغبريته ودعوته إلى نفسي وهو بريء من الخيانة وصادق في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ وهذا اعتراف صريح ببراءة يوسف على رؤوس الأشهاد... ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾[1].

قيل: إنه من كلام يوسف (عليه السلام).

والمعنى: ذلك الأمر الذي فعلته من رد الرسول حتى تظهر براءتي ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته في غيبته بل تعففت عنها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي لا يوفق الخائن ولا يسدد خطاه.

وقيل: إنه من تمام كلام زليخا، أي إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجي أني لم أخنه في نفس الأمر، وإنما كان مراودة لم يقع معها فعل فاحشة.

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قيل: إنه من كلام يوسف، وقيل من كلام زليخا وهو مفرع على القولين الأولين، وكونه من تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى... والله أعلم[2].

* * *

(١) صفوة التفاسير (٢/ ٥٦).

(٢) قصص الأنبياء (ص: ٢٨٦).

درس لا يُنسى

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «عجبت لصبر أخى يوسف وكرمه، والله يغفر له، حيث أرسل إليه ليُستفتى فى الرؤيا، ولو كنت أنا لم أفعل حتى أخرج، وعجبت لصبره وكرمه، والله يغفر له، أتى ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره، ولو كنت أنا لبادرت الباب، ولولا الكلمة لما لبث فى السجن حيث يبتغى الفرج من عند غير الله عز وجل»(١).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله لوطًا لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف ثم أتانى الداعى لأجبته»(٢).

قال الحافظ: أى لأسرعت الإجابة فى الخروج من السجن ولما قدمت طلب البراءة، . . . فوصفه بشدة الصبر حيث لم يبادر بالخروج، وإنما قاله ﷺ تواضعًا، والتواضع لا يحط مرتبة الكبير بل يزيده رفعة وجلالاً.

وقيل من جنس قوله: «لا تفضلونى على يونس»(٣) وقد قيل: إنه قاله قبل أن يعلم أنه أفضل من الجميع(٤).

لقد تبينت للملك براءة يوسف، كذلك تبينت له كرامته، وإباؤه، وهو لا يتهافت على الخروج من السجن، ولا يتهافت على لقاء الملك، وأى ملك؟ ملك مصر. ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المتهم فى سمعته، المسجون ظلمًا، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه، ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذى يمثله، قبل أن يطلب الحظوة عند الملك، كل أولئك أوقع فى نفس الملك احترام يوسف - عليه

---

(١) صحيح: أخرجه الطبرانى (١١/ ٢٤٩)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (١٩٤٥).

(٢) صحيح: وقد تقدم قريبًا.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٩٦) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٣٧٧) كتاب الفضائل.

(٤) فتح البارى (٦/ ٤١٣).

السلام - وحبه، فقال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾(١).

فيا ليت رجالاً يمرغون كرامتهم على أقدام الحكام، وهم أبرياء مطلقوا السراح - فيضعون النِّير في أعناقهم بأيديهم، ويتهافتون على حظوة الأتباع لا مكان الأصفياء، فيا ليت رجالاً من هؤلاء يقرؤون القرآن؛ ليعرفوا أن الكرامة والإباء تُدر من الربح - حتى المادى - أضعاف ما يُدره التمرغ والتزلف والانحناء(٢).

• الدروس المستفادة من الآيات:

١- ثبوت براءة المؤمن خير له من خروجه من السجن:

قال ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له حين سُئل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى أشترط أن يُخرجونى، ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب»(٣).

قال ابن عطية: كان هذا الفعل من يوسف -عليه السلام- أناة وصبراً وطلبًا لبراءة ساحته، وذلك أنه -فيما يروى- خشى أن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحًا؛ فيراه الناس بتلك العين أبدًا، ويقولون: هذا الذى راود امرأة مولاه؛ فأراد يوسف -عليه السلام- أن يبين براءته ويحقق منزلته من العفة والخير؛ وحينئذ يخرج للأحظاء والمنزلة، فلهذا قال للرسول: «ارجع إلى ربك، وقل له: ما بال النسوة»(٤).

وقال العلمى: «جعل يوسف براءته فى المقام الأول، وخروجه من السجن فى المقام الثانى، فلم يكن طلب الملك له والإفراج عنه ليهمه بمقدار

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٥٤).

(٢) الظلال (٤/ ٢٠٠٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق فى «تفسيره» (١/ ٢/ ٣٢٣)، وحسنه شيخنا فى «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٥٨٩، ٥٩٠).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٠٦، ٢٠٧).

ما يهمه براءة ساحته مما أُلصق به من العار[١].

وقد ذكروا أن الاجتهاد فى نفى التهم واجب، فقد أخرج مسلم من رواية أنس: أن رسول الله ﷺ كان مع إحدى نسائه؛ فمر به رجل، فدعاه وقال: «هذه زوجتى»؛ فقال: يا رسول الله! من كنت أظن به فلم أكن أظن بك، فقال رسول الله: «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم»[٢]؛ وكأنه لهذا كان الزمخشرى -رحمه الله- وكان ساقط الرِّجل - قد أثبت عند القُضاة أن رجله لم تُقطع فى جناية ولا فى فساد بل سقطت من ثلج أصابها فى بعض الأسفار، وكان -رحمه الله- يُظهر مكتوب القضاة فى كل بلد دخله خوفًا من تهمة السوء[٣].

٢- أن التلميح فى شأن النساء أفضل من التصريح:

قال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ ذكر النساء جملة ليدخل فيهن امرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح وذلك حُسن عِشرة وأدب، وفى الكلام محذوف؛ أى: فاسأله أن يتعرف ما بال النسوة.

قال ابن عباس: فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة العزيز -وكان مات العزيز- فدعاهن[٤].

قال العلمى: «لم يقل يوسف: ما بال امرأة العزيز، بل قال: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ تأدبًا معها، وحفظًا لما رأى منها من معروف وإكرام مثوى، عندما كان فى بيتها وتحت يدها؛ لأنه كريم ابن كريم ابن كريم ابن كريم، لم يسعه -

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/٨٣٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٠٥) كتاب الاعتكاف، ومسلم (٢١٧٥) كتاب السلام من حديث صفية بنت حيى رضي الله عنها.

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/٨٣٨).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/٢٠٧).

عليه السلام- إلا أن يحفظ غض نظره عن ذكرها كرامة لمركزها»[1].

٣- أن سؤال النسوة كان تمهيدًا لإقرار امرأة العزيز واعترافها على نفسها:

قال ابن عاشور: «وجعل السؤال عن النسوة اللاتى قطعن أيديهن دون امرأة العزيز تسهيلاً للكشف عن أمرها؛ لأن ذكرها مع مكانة زوجها من الملك ربما يصرف الملك عن الكشف رعيًا للعزيز، ولأن حديث المتكإ شاع بين الناس، وأصبحت قضية يوسف -عليه السلام- مشهورة بذلك اليوم، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ، ولأن النسوة كن شواهد على إقرار امرأة العزيز بأنها راودت يوسف -عليه السلام- عن نفسه؛ فلا جرم كان طلب الكشف عن أولئك النسوة منتهى الحكمة فى البحث، وغاية الإيجاز فى الخطاب»[2].

٤- إن صاحب الحق منصور:

لابد أن تكون على يقين من أن صاحب الحق منصور فهذا يوسف -عليه السلام- لم يخش من النسوة أن يكتمن الحقيقة عندما قال: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ بما لا يحب، كما رمته إحداهن من قبل؛ لأنه:

أ- رأى الحالة اليوم لا تساعد على إنكار الواقع، فقد آن لسلطان الحق أن يغلب سلطان الباطل.

ب- هو قد ظن فيهن خيرًا، واعتمد على شرفهن قائلاً فى نفسه: إن لهن ضميرًا سوف لا يتصامم عن ندائه.

جـ- لأنه كان يعتمد على الشاهد من أهل امرأة العزيز.

د- كان يستأنس بكون هؤلاء النسوة قد سمعن بآذانهن اعتراف امرأة العزيز بأنها هى التى راودته عن نفسه فاستعصم.

هـ- كان يعتمد أيضًا على شرف (عزيز مصر) الذى كان قنع قناعة تامة

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨٣٦).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٨٩).

ببراءة يوسف، وحصر التهمة في زوجه، ولذا قال عنه: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، وإنما كان حبسُه يوسف حبسًا إداريًّا؛ لأجل إبعاده عن زوجته.

و- اعتمد على توجه نظر ملك مصر عليه، وتمكنه من محبته، وثقته بعلمه ودرايته، ويوسف يعلم أن كل من توجهت عليه أنظار الملوك هابه الناس، وأعظمته الرعية، وأكبره الموظفون الذين هم تحت ذلك السلطان القاهر، فصار بذلك أمينًا من مكر هؤلاء السيدات، نساء المستخدمين بمعية الملك[1].

٥- مواجهة المتهم بجريمته تجبره على الاعتراف:

فالملك لم يسأل النسوة: هل راودتن يوسف عن نفسه، بل ألقى التهمة مباشرة؛ فهو مقتنع بما حدث، عالم به، وهذا أسلوب يزعزع نفسية المجرم؛ فيجعله ينهار، ويقر بالتهمة؛ فلا يروغ ولا يزوغ.

٦- المراوغة وحسن التدبير لا ينفك عن النساء:

إن جواب النسوة ليس هو الجواب المتوقع على سؤال الملك، بل قلن من مكرهن في جوابهن عندما سُئلن عما عملن من السوء؛ فحدن عنه، وأجبن بنفي السوء عن يوسف - عليه الصلاة والسلام -.

وهذا من مكرهن وحسن تدبيرهن حيث ظهرت براءة أنفسهن جملة، وأوقعن امرأة العزيز في ضرورة الاعتراف؛ فالأدلة تحاصرها؛ فما عليها إلا الإقرار وتبرئة يوسف - عليه السلام -[2].

٧- الإقرار أولى من الشهادة:

﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[3].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨٤١، ٨٤٢).

(٢) إتحاف الألف (٢/ ٥٨٣).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٥١).

قال القرطبى: «وهذا القول منها -وإن لم يكن سأل عنه- إظهار لتوبتها وتحقيق لصدق يوسف وكرامته؛ لأن إقرار المقر على نفسه أقوى من الشهادة عليه؛ فجمع الله تعالى ليوسف -لإظهار صدقه- الشهادة والإقرار، حتى لا يخامر نفسًا ظنٌ، ولا يخالطها شكٌ»(١).

٨- الاعتراف بالخطإ فضيلة:

قال العلمى:

«إن هذه المرأة زليخا قد تناست منزلتها وتغافلت عن عظمتها، ونطقت بكلمة الاعتراف، والاعتراف بالخطإ فضيلة كما تعلمون، وهو خير من التمادى فيه، ونظن أن هذه المرأة لو لم تعترف، ثم أتت بشهود زور، ممن لهم علاقة محسوبية؛ لطالت ذيول الحادثة وتشعبت كثيرًا، لا سيما لو ظهر فيما بعد أنها مبطلة فى تقديم أولئك الشهود؛ فتكون العاقبة أدهى وأمر، ولكن الله هداها للاعتراف؛ فبقيت الحادثة مختصرة وقاصرة على ما حكاه القرآن الكريم. . . .»(٢).

٩- من تمام الاعتذار أن يقترن باعتراف:

قال الإمام ابن القيم:

﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قيل: هذا من تمام الاعتذار قرنت الاعتذار بالاعتراف فقالت: ﴿ذَٰلِكَ﴾: أى: قولى هذا وإقرارى ببراءته ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ بالكذب عليه فى غيبته، وإن خنته فى وجهه فى أول الأمر؛ فالآن يعلم أنى لم أخنه فى غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ ثم ذكرت السبب الذى لأجله لم تبرئ نفسها؛ وهى ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٠٨).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨٥٤).

فتأمل مـا أعجب هذه المرأة! أقرت بالحق، واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبده، وإلا؛ فهو عُرضة للشر(١).

* * *

س: إذا سلمنا أن قائلة: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ هي امرأة العزيز، فإلى ماذا يعود الضمير في قولها: ﴿أَخُنْهُ﴾؟

ج: في ذلك أيضًا قولان:

أشهرهما: أن الضمير يعود إلى يوسف ﷺ، أي أنها تقول ذلك ليعلم يوسف أني لم أشهد عليه شهادة باطل في غيابه.

والثاني: ذلك ليعلم زوجي أني لم أخنه في غيابه... وهذا الأخير ضعيف، والله أعلم.

* * *

س: هل كانت المرأة تعرف الله، وتعرف أن الزنا ذنب حتى قالت: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؟

ج: نعم، كان عند هذه المرأة بعض العلم بالله سبحانه، وقد دلَّ على ذلك ما يلي:

* قول النسوة لما رأين يوسف عليه السلام: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾.

* قول العزيز لزوجته: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾.

* قول المرأة - على أحد التفاسير-: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.

* قول المرأة (على تفسير من فسر أن ذلك قولها): ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٣٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

ثم ذكرت ما يقتضى طلب المغفرة والرحمة، فقالت: إن ربى غفور رحيم.

فإن قيل: فهذا كلام من يقر بأن الزنا ذنب، وأن الله قد يغفر لصاحبه.

قلت: نعم، والقرآن قد دل على ذلك، حيث قال زوجها: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ فأمره لها بالاستغفار لذنبها دليل أنهم كانوا يرون ذلك ذنبًا ويستغفرون منه، وإن كانوا مع ذلك مشركين، فقد كانت العرب مشركين وهم يُحرمون الفواحش، ويستغفرون الله منها (١).

* * *

س: ما هى الأسباب التى جعلت امرأة العزيز تعود إلى رشدها؟

ج: إن من عوامل عودة وعيها ويقظة وجدانها مواجهتها بالحقيقة بلا أمل فى المراوغة، بعد أن سُدَّت كل منافذ التنصل والتهرب من خلال سؤال الملك؛ بل اتهامه المباشر الذى لا يبحث عن نفيه أو إثباته بل يسأل عن أسبابه؛ فالجريمة ثابتة وإنما السؤال عن دوافعها: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾.

ومثلها ومثلهن فى ذلك مثل من كان فارًّا من وجه العدالة، فلما أطبق عليه بالأدلة وحُوصر من كل جانب اعترف، وأكثر، بأن بادر إلى التوبة من كل الماضى الذى لم يجدّه السير فى دروبه إلى أن أورده هذا المورد الوبيل والعاقبة الوخيمة.

ولعل من المؤثرات تقريعها الدائم ولومها ولمزها والهمسات التى لاحقتها من كل جانب؛ فجعلتها فوق مرارة الفشل تواجه مرارة التشفى والتعليقات الساخرة والنبذ الاجتماعى، مما سارع فى عودتها إلى رشدها (٢).

---

(١) التسهيل (ص: ١٩٩، ٢٠٠).

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (٢٠٨، ٢٠٩) أحمد نوفل.

١٠- الإيمان ينقي السريرة وينور البصيرة:

تدبر هذه الكلمات التي تصرح بها امرأة العزيز دفاعًا عن يوسف الصديق، وإمعانًا في إظهار طهره وبراءته وعفته... فما الذي جعلها تتحول من خصم عنيد يهدد يوسف إن لم يفعل ما تريد ليكونن من المسجونين المطرودين... وإذا بها تنقلب إلى مدافع شديد عن طهارة الصديق - عليه السلام-.

ناهيك أن عادة البشر الإساءة في الغيب.. أما هذه المرأة؛ فقد قلبت الموازين، وعكست كل التوقعات، وضربت رقمًا قياسيًا في شهادة الحق وقوله، والاعتراف به.

فما الذي حوّل اتجاهها وحدد مسارها إلى الحق علمًا وشهادة ودفاعًا... إنه الإيمان الذي طهّر سريرتها ونوّر بصيرتها وأعادها إلى البيضاء النقية بعد جهل وشرود وعماية... فسبحان من بيده قلوب العباد يقلبها كيف يشاء، فيا مقلب القلوب صرّف قلوبنا إلى طاعتك [1].

١١- ميل الرجل للمرأة ميل فطري وغريزي:

قال القاسمي في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ أي: لا أنزهها من الزلل ولا أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزكيها؛ فإن النفس البشرية تأمر بالسوء وتحمل عليه بما فيها من الشهوات إلا ما رحم الله من النفوس التي يعصمها من الوقوع في المساوئ [2].

ومن المعلوم أن الله - عز وجل- ركّب في طبع الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان إلى الماء والجائع إلى الطعام؛ حتى إن كثيرًا من الناس يصبر على الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء، وهذا لا يُذم إذا صادف حلالاً بل يُحمد [3].

---

(١) إتحاف الألف (٢/ ٥٨٧، ٥٨٨).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٣٨).

(٣) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٣٩)، و«بدائع التفسير» (٢/ ٤٤٨).

١٢- أن رحمة الله هي التي تصرف السوء:

قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾.

قال الإمام الشوكاني: «أي: إلا من رحم من النفوس؛ فعصمها عن أن تكون أمارة بالسوء، أو إلا وقت رحمة ربي وعصمته لها، وقيل: الاستثناء منقطع؛ والمعنى: لكن رحمة ربي هي التي تكفها عن أن تكون أمارة بالسوء»(١).

وقال العلمي: «قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾(٢)؛ فرحمة الله تبعد النفس عن أمرها بالسوء، كما أنها تقرب للإنسان العصمة: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾(٣)، وتنفي عن الناس الاختلاف: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾(٤)، وتمنع العذاب يوم القيامة عن الإنسان: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾(٥)، ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾(٦)، ﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٧)، إلى غير ذلك من فضائل الرحمة ومزاياها»(٨).

١٣- قذف البريء يعود عليه بالخير عندما تظهر براءته:

قال العلمي:

«نسمع الملك يقول هنا: ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾، وسنسمعه يقول بعدئذ: ﴿ائْتُونِي

---

(١) «فتح القدير» (٣/ ٣٥).
(٢) سورة هود: الآية: (١١٩)
(٣) سورة هود: الآية: (٤٣)
(٤) سورة هود: الآية: (١١٨، ١١٩).
(٥) سورة الدخان: الآيتان: (٤١، ٤٢).
(٦) سورة الأنعام: الآيتان: (١٥، ١٦).
(٧) سورة غافر: الآية: (٩).
(٨) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨٦٥).

به أستخلصه لنفسي﴾. فالطلب الثاني أرقى من الطلب الأول، وسببه: أن الطلب الأول كان مبنيًا على علمه بعلم يوسف وفهمه فقط، وأما الطلب الثاني؛ فكان مبنيًا على ذلك وعلى تيقن الملك بسلامة يوسف من الجريمة، وبعبارة أخرى كان ظهر للملك أولاً تحلية يوسف فحسب، ولكن بعده ظهر له أيضًا تخليته، ولا ريب أن التخلية مع التحلية، أهم من التحلية وحدها، وهكذا جرت السُّنة أن في قذف البريء خيرًا يعود عليه عندما تظهر براءته؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[1]»[2].

١٤- ليس كل نفس أمارة بالسوء:

قال شيخ الإسلام: «إن في الكلام المحكي الذي أقره الله تعالى: ﴿لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾، وهذا يدل على أنه ليس كل نفس أمارة بالسوء، بل ما رحيم ربي ليس فيه النفس الأمارة بالسوء».

وقد ذكر طائفة من الناس أن النفس لها ثلاثة أحوال:

تكون أمارة بالسوء.

ثم تكون لوامة؛ أي: تفعل الذنب، ثم تلوم عليه أو تتلوم؛ فتتردد بين الذنب والتوبة.

ثم تصير مطمئنة[3].

* * *

(١) سورة النور: الآية: (٣٣).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/٨٤١، ٨٤٢).

(٣) «دقائق التفسير» (٣/٢٧٧). نقلاً من «إتحاف الإلف».

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (١).

قال ابن كثير (رحمه الله): يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نُسب إليه قال: ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ أى أجعله من خاصتى وأهل مشورتى ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ أى: خاطبه وعرف فضله وبراعته، وما هو عليه من خَلْق وخُلُق وكمال، قال له الملك: ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أى إنك عندنا ذو مكانة وأمانة، فقال يوسف عليه السلام: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ويجوز للرجل مدح نفسه إذا جُهل أمره للحاجة فذكر أنه خازن أمين ذو علم وبصيرة بما يتولاه، ولما سيستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى رغبته تكرمة له ولهذا قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾ أى: أرض مصر. ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ أى: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز فلهذا أعقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ ويخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف - عليه السلام - فى الدار الآخرة أعظم وأجلّ مما خوَّله من التصرف والنفوذ فى الدنيا.

والغرض أن يوسف - عليه السلام - ولاه ملك مصر الريان بن الوليد

---

(١) سورة يوسف: الآيتان: (٥٤، ٥٥).

الوزارة مكان عزيز مصر وأسلم الملك على يد يوسف عليه السلام[1].

وقد قال بعضهم:

وراء مضيق الخوف متسع الأمن ... وأول مفروح به غاية الحزن

فلا تيأسن، فالله ملّك يوسفا ... خزائنه بعد الخلاص من السجن

وقال الفضيل بن عياض: «وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مر يوسف، فقالت: الحمد لله الذى جعل العبيد ملوكًا بطاعته، والملوك عبيدًا بمعصيته».

وقفة جليلة

وكان لابد لنا من وقفة مع قول يوسف (عليه السلام): ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[2].

فإنه (عليه السلام) لم يكن يطلب لشخصه وهو يرى إقبال الملك عليه فيطلب أن يجعله على خزائن الأرض.. إنما كان حصيفًا فى اختيار اللحظة التى يُستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذى التبعة الضخمة فى أشد أوقات الأزمة؛ وليكون مسؤولاً عن إطعام شعب كامل وشعوب كذلك تجاوره طوال سبع سنوات، لا زرع فيها ولا ضرع. فليس هذا غُنمًا يطلبه يوسف لنفسه. فإن التكفل بإطعام شعب جائع سبع سنوات متوالية لا يقول أحد إنه غنيمة، إنما هى تبعة يهرب منها الرجال؛ لأنها قد تُكلفهم رؤوسهم.

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/٤٨٨، ٤٨٩).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٥٥).

ودارت عجلة الزمن، وطوى السياق دوراتها بما كان فيها طوال سنوات الرخاء، فلم يذكر كيف كان الخصب، وكيف زرع الناس، وكيف أدار يوسف جهاز الدولة، وكيف نظم ودبَّر وادخر، كأن هذه كلها أمور مقررة بقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

وكذلك لم يذكر مقدم سنى الجدب، وكيف تلقاها الناس، وكيف ضاعت الأرزاق.. لأن هذا كله ملحوظ فى رؤيا الملك وتأويلها.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾.

كذلك لم يُبرز السياق الملك ولا أحدًا من رجاله بعد ذلك فى السورة كلها. كأن الأمر كله قد صار ليوسف، الذى اضطلع بالعبء فى الأزمة الخانقة الرهيبة. وأبرز يوسف وحده على مسرح الحوادث، وسلَّط عليه كل الأضواء، وهذه حقيقة واقعية استخدمها السياق استخدامًا فنيًا كاملاً فى الأداء.

أما فعل الجدب فقد أبرزه السياق فى مشهد إخوة يوسف... يجيئون من البدو من أرض كنعان البعيدة يبحثون عن الطعام فى مصر. ومن ذلك ندرك اتساع دائرة المجاعة، كما ندرك كيف وقفت مصر - بتدبير يوسف - منها، وكيف صارت محط أنظار جيرانها ومخزن الطعام فى المنطقة كلها[1].

● **الدروس المستفادة من الآيات:**

١- أن الملوك يقدرون الناس بحسب مواهبهم وقدراتهم:

«سمع الملك الريان كلام يوسف؛ فوقع فى نفسه وأكبره، وعلم أنه يحمل بين جنبيه نفسًا كبيرة؛ وأنه كان لا يليق بصاحب هذه النفس أن يُسجن بضعة أيام، فضلاً عن بضع سنين.

وقد جرت عادة الناس فى الحكم على جُلسائهم لأول وهلة أنهم

---

(١) الظلال (٤/ ٢٠٠٥)، (٤/ ٢٠١٤، ٢٠١٥) بتصرف.

يقدرونهم بما يظهر من لباسهم وحُلاهم، ثم بأسمائهم وأنسابهم، وما يحملون من رتب وأوسمة، فإذا اختبروهم قدروهم بمواهبهم وقواهم، ونرى ملك مصر ههنا إنما قدر يوسف وأجلَّه بما رزقه الله من مواهبه السامية، وأفكاره الثاقبة؛ كما قال أفلاطون لجليس له: «تكلم لأعرفك»؛ فلذلك ولما كلمه يوسف قال له: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ »[1].

* * *

س: تبينت للملك جملة أمور في شأن يوسف عليه السلام، ومن ثمَّ قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ وضح بعض هذه الأمور.

ج: من هذه الأمور التي تبينت للملك في شأن يوسف ما يلي:

* علم يوسف عليه السلام بتأويل الرؤيا، وتدبير الأمور.

* براءة يوسف عليه السلام ونزاهته وحرصه على إظهار براءته حتى يخرج نزيهًا مما هو فيه.

* تثبت يوسف عليه السلام وتأنيه في الأمور؛ فلم يبادر بالخروج من السجن بل قال متأنيًا متريثًا: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

* ثقة يوسف عليه السلام في الله ثم في نفسه، وذلك في قوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ وتذكيره بالله الحين بعد الحين، بل وكلما وجد إلى ذلك سبيلاً.

* علامات الوقار وحسن الحديث؛ إذ الله قال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

٢- الناس معادن؛ فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا:

قال أحمد نوفل: «ويرسل الملك بعد سماع هذه الشهادة رسوله مرة ثانية إلى يوسف لا ليأتيه به فقط، وإنما ليستخلصه لنفسه وليقتطعه من بين

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨٨٠).

الناس؛ ليكون مستشاره والعقل المفكر إلى جواره، فأحرى بمثل هذا العقل والخلق أن يكون صاحبهما أقرب المقربين إلى الملك.

وإن هذا الموقف من الملك ليدل على خلق نبيل عند الملك أيضًا، فإنه لا يعجب بالأمانة إلا أمين ولا بالرجولة إلاَّ رجل ولا بالشجاعة إلاَّ شجاع ولو كان ذا نفس أنانيـة صغيرة لحسد يوسف ولخشى شخصيته على شخصيته ولكان أبعده، وخسر طاقة ضخمة تستطيع أن تقود سفينة أمة إلى بر السلامة.

لكن هذا الموقف بجوار أنه شهادة ليوسف؛ فهو شهادة للملك نفسه.

فلما جاء يوسف - الآن - بعد أن لم يعد مانع يمنع من خروجه، ولن تشير إليه الأصابع والعيون همزًا ولمزًا وغمزًا، ولن تطلق من حوله الشائعات، بعد أن أعلن على الملإ نقاء صفحته يستطيع الآن أن يخرج مرفوع الرأس... فإن تسلَّم مركزًا تسلَّمه بهذا الرصيد من الثقة الشعبية، وبهذا الرصيد من الأخلاقية.

وأن الرصيد الأخلاقى المسؤول من أهم عوامل نجاحه، ومن قرأ كتابات كبار العسكريين الغربيين مثل مونتجمرى يجد أنه يقول: إن من أهم أسباب نجاح القائد العسكرى السمعة الأخلاقية الطيبة، والرصيد الإيمانى»[1].

٣- بيان فضل العلم وشرفه إذ به رفع الملك يوسف إلى حضرته وهو رفيع[2].

قلنا: وهذا مقتضى قول الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [3].

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص ٤٤٦، ٤٤٧).

(٢) أيسر التفاسير (٢/ ٦٢١).

(٣) سورة المجادلة : الآية: (١١).

٤- الوظيفة تكليف وليست تشريفًا:

قال البهي الخولي: «ولعل لنا في قصة يوسف -عليه السلام- درسًا يعلمنا الدستور الذي تُطلب به الوظائف والمناصب؛ فهي تُطلب بالعزة لا بالمذلة، وتُطلب لأداء واجب وسداد ثغرة، لا حشرًا بدون موجب؛ وإسرافًا في المال العام، وتُطلب بحق الكفاءة والموهبة الصالحة لا بحق المحسوبية ووساطة الوسطاء.

ألا تراه -عليه السلام- يقول إثباتًا لكفاءته في غير زهو طبعًا: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

ولقد أخذ يوسف حظه من الملك، فدفع الله به شدة عن الناس، وكشف غمًّا وكروبًا كثيرة، فكانت مصر في أشد أيام قحطها وجدبها، بمنجاة من خطر المجاعة المهلكة.. أما هو؛ فلم يفتنه المنصب عن ربه، ولم يعلق الترف بذرة من قلبه، وظلت بصيرته تهفو إلى ما عنده من مقامات الإحسان، فيناجي ربه بمعنى مناجاة سليمان: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ...﴾»[1].

* * *

س: ما المراد بخزائن الأرض؟

ج: المراد: خزائن الطعام وعموم الخزائن، وقد أورد الطبري بإسناد صحيح عن ابن زيد أنه قال: كان لفرعون خزائن كثيرة غير الطعام، فأسلم سلطانه كلَّه إليه، وجعل القضاء إليه، وأمره وقضاؤه نافذ..

* * *

س: هل يجوز لشخص أن يسأل الإمارة؟

ج: ابتداءً، فقد ورد عن رسول الله ﷺ النهي عن سؤال الإمارة فقال

(١) «تذكرة الدعاة» (ص ٢٤٤، ٢٤٥).

عليه الصلاة والسلام لعبد الرحمن بن سمرة: «يا عبد الرحمن! لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة وُكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها».

وفي الحديث الآخر قال عليه الصلاة والسلام: «إنا لا نولى هذا الأمر أحدًا سأله».

لكن إن كانت هناك مصلحة راجحة تستلزم سؤال الإمارة كأن يكون هناك أميرٌ ظالم غشوم يظلم العباد ويسلبهم أموالهم، وطلب شخص الإمارة للقيام بالعدل وردِّ المظالم إلى أهلها؛ فلا بأس بسؤال الإمارة في هذه الحالة.

وكذلك إذا كان ثَمَّ شخص يريد إقامة الدين والحق وسأل الإمارة لذلك فلا بأس، وقد قال يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾(١).

أما إذا سأل شخص الإمارة تكثرًا وتعاليًا وكبرًا ورياءً؛ فهذا السؤال يحرم عليه ولا يجوز له.

فالشاهد أن يوسف - عليه السلام- إنما طلب الولاية؛ لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم؛ فرأى أن ذلك فرض متعين عليه، فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم لو علم الإنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة، ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه، لتعين ذلك عليه ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك؛ كما قال يوسف - عليه السلام-، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها، وعلم بذلك؛ فالأولى ألا يطلب... لقوله - عليه السلام - لعبد الرحمن: «لا تسأل الإمارة».

وأيضًا؛ فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٥٥).

التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه؛ فيهلك، وهذا معنى قوله -عليه السلام-: «وكِّل إليها»، ومن أباها لعلمه بآفاتها، ولخوفه من التقصير فى حقوقها؛ فرَّ منها، ثم إنه إن ابتُلى بها؛ فيُرجى له التخلص منها، وهو معنى قوله: «أُعين عليها» (١).

* * *

س: هل يجوز لمسلم أن يعمل عند كافر؟

ج: إذا كان العمل عند الكافر ليس فيه امتهان لدين المسلم ولا إخلال بالشرع جاز ذلك العمل، بدليل طلب يوسف العمل عند ملك مصر إذ قال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

أما إذا كان فى العمل امتهانٌ لدين المسلم وإزراء به فلا يجوز، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ (٣).

٥- والولاية لا تُنال بالنسب والجمال، وإنما بالحفظ والعلم:

قال القرطبى: «إنه لم يقل: إنى حسيب كريم، وإن كان كما قال النبى ﷺ عنه: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» (٤)، ولا قال: إنى جميل مليح، وإنما قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾؛ فسألها بالحفظ والعلم لا بالنسب والجمال» (٥).

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢١٥، ٢١٦).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (٦٨).

(٣) سورة النساء: الآية: (١٤٠).

(٤) صحيح: وقد تقدم.

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢١٦).

٦- بلاد مصر أرض خير، وهي خزانة الأرض بكثرة خيراتها ووفرة ثمارها:

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾.

• قال سعيد بن منصور: سمعت مالك بن أنس يقول: مصر خزانة الأرض»[1].

٧- لا ينتظم أمر الأمة إلا بمصلحين، ورجال أعمال قائمين وفضلاء مرشدين:

قال طنطاوي جوهري:

«قال علماء الأخلاق والحكماء: لا ينتظم أمر الأمة إلا بمصلحين، ورجال أعمال قائمين، وفضلاء مرشدين، هادين لهم شريطة معلومة، وأخلاق معهودة، ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هدى لاختيار الأكفاء في مهام الأعمال إذ قد حاز الملك والنبوة، ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانقطاعها؛ وإنما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة؛ لتكون ذكرى لمن يتفكر في القرآن، وتنبيهًا للمتعلمين ليعلموا أن تلك القصص قد أودعت ما لم يكن ليخطر على بال من سمعه للتغني به ومجرد اللهو واللعب.

* وأهم شروط الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة:

١- العفة عن الشهوة: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾.

٢- الحلم عند الغضب؛ ليضبط نفسه: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾.

٣- وضع اللين في موضعه، والشدة في موضعها: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾.

٤- ثقته بنفسه: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢١٣).

٥- قوة الذاكرة: ﴿فعرفهم وهم له منكرون﴾.

٦- جودة المصورة وقوة المخيلة: ﴿إني رأيت﴾

٧- استعداد للعلم: ﴿آتيناه حكمًا وعلمًا﴾.

٨- شفقته على الضعفاء: ﴿يا صاحبي السجن﴾.

٩- العفو مع القدرة: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾.

١٠- إكرام العشيرة: ﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾.

١١- قوة البيان والفصاحة: ﴿فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾.

١٢- حسن التدبير: ﴿فما حصدتم فذروه في سنبله﴾.

تالله ما أجمل القرآن وما أبهج العلم»(١).

٨- جواز استعمال الحيلة في التوصل إلى الأمر المباح(٢):

قال القرطبي:

«... وقال الطبري: قوله تعالى: ﴿وكذلك مكنا ليوسف﴾؛ دليل على إجازة الحيلة في التوصل إلى المباح؛ وما فيه الغبطة والصلاح، واستخراج الحقوق، ومثله قوله تعالى: ﴿وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث﴾(٣) وحديث أبي سعيد الخدري في عامل خيبر(٤)، والذي أداه من التمر إلى رسول الله ﷺ وما قاله»(٥).

٩- التمكين في الأرض من ثمرات الإحسان.

قال أحمد نوفل:

«قوله تعالى: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب

(١) «الجواهر في تفسير القرآن» (٧/ ٧٦، ٧٧).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٢٩١).

(٣) سورة ص: الآية: (٤٤).

(٤) أخرجه البخاري (٢٢٠١ و ٢٢٠٢).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢١٧).

برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾ إن من ثمرات الإحسان فى الدنيا التمكين للمحسنين فى الأرض مع إدخار أجرهم كاملاً يوم القيامة»[١].

١٠- مشيئة الإنسان تابعة لمشيئة الله تعالى:

قال أحمد نوفل:

«والسورة تصور مدى نفاد إرادة الله الخيِّرة ضد إرادة الإنسان فى تدبير السوء ومكائد الهلاك، عندما يريد كل منهما أمرًا مناقضًا للآخر»[٢].

١١- أن التقى الأمين لا يضيع سعيه؛ بل يحسن عاقبته، ويعلى منزلته فى الدنيا والآخرة:

قال العز بن عبد السلام:

«﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ فى الآخرة أو كلاهما فى الدنيا أو كلاهما فى الآخرة، ونال يوسف ذلك ثوابًا على بلواه، أو تفضلاً من الله تعالى، وثوابه باقٍ فى الآخرة بحاله»[٣].

١٢- عندما يتحقق الخير للحاكم والمحكوم وللداعية والمدعو فالفضل كله يعود لله. ولا يجوز أن ينسب الفضل لأحد منهم مهما بلغت درجة مهارته أو حدة ذكائه أو سعة علمه[٤].

١٣- أن الله واسع الجود والكرم يجود على عبده المؤمن بخير الدنيا والآخرة.

قال السعدى:

ومنها: أن الله واسع الجود والكرم، يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها، وأن العبد ينبغى له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص ١٤٧).

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص ٦١٢).

(٣) «تفسير سلطان العلماء» (٢/١٢٨).

(٤) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٣٦).

يدعهـا تحزن إذا رأت زينة أهل الدنيا ولذاتهـا، وهى غير قادرة عليـها، بل يسليها بثواب الله فى الآخرة، وفضله العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[1].

١٤- أن الآخرة ثوابها خير من ثواب الدنيا المنقطع، وهذا للمؤمنين المتقين[2]. قال تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

قال القاسمى: «أى ثوابها خير من ثواب الدنيا للمؤمنين المتقين، إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة، وأن ما يُدخر لهؤلاء هو أعظم وأجلّ مما يخولون به فى الدنيا من التمكين فى الأرض والجاه والثروة والملك»[3].

قال أبو حيان: «المؤمن يثاب على حسناته فى الدنيا والآخرة»[4].

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾[5].

صدق تفسير يوسف للرؤيا فوقعت السبع السنون المخصبة ثم تلتها السنون السبع المجدبة وكان خلالها يوسف يباشر الوزارة بمصر ويشرف على خزن الغلال فى سنبلها إبان السنين الخصبة فجمعها أحسن جمع فاحتاط بذلك للسنين السبع المجدبة فورد الناس على يوسف من سائر الأقاليم، يمتارون لأنفسهم وعيالهم وكان فى جملة من ورد إخوة يوسف عن أمر أبيهم، لما بلغهم أن عزيز مصر يعطى الناس الطعام بثمنه: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٣٩).

(٢) «تفسير سلطان العلماء» (٢/ ١٢٨).

(٣) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٤٥).

(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٢٩٢).

(٥) سورة يوسف: الآية: (٥٨).

يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ وكان يوسف متربعًا أبهته ورياسته وسيادته فما كان يدور فى نفوسهم أن يوسف سيصير إلى ما صار إليه لذلك لم يعرفوه أما هو فقد عرفهم، وشرع يخاطبهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم إلى بلادى؟ (١)

قالوا: جئنا للميرة (الطعام)، قال: لعلكم عيون «جواسيس» علينا؟ قالوا: معاذ الله، قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبى الله، قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثنى عشر فذهب أصغرنا وهلك فى البرية - وكان أحبنا إليه - وبقى شقيقه فاحتبسه ليتسلى به عنه وجئنا نحن العشرة،... فأمر بإنزالهم وإكرامهم(٢) ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أى هيأ لهم الطعام والميرة وأعطاهم ما يحتاجون إليه فى سفرهم ﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ أى ائتونى بأخيكم بنيامين لأصدقكم ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ أى: ألا ترون أنى أتم الكيل من غير بخس ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ أى: خير من يكرم الضيفان وخير المضيفين لهم، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أى: إن لم تأتونى بأخيكم فليس لكم عندى بعد اليوم ميرة، ولا تقربوا بلادى مرة ثانية،... رغَّبهم ثم توعدهم... قال فى البحر: والظاهر أن كل ما فعله يوسف عليه السلام، كان بوحى من الله وإلا فمقتضى البر أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه لكن الله أراد تكميل أجر يعقوب فى محنته، ولتتفسر الرؤيا الأولى(٣).

* ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ أى: سنخادعه ونحتال فى انتزاعه من يده، ونجتهد فى طلبه منه، وإنا لفاعلون ذلك(٤).

---

(١) مختصر تفسر ابن كثير (٢/٤٨٩).

(٢) تفسير الجلالين (٢/ ٢٤٩).

(٣) البحر المحيط (٥/٣٢٢).

(٤) صفوة التفاسير (٢/٥٨).

أما يوسف فقد أمر غلمانه أن يدسُّوا البضاعة التى حضر بها إخوته ليستبدلوا بها القمح والعلف. وقد تكون خليطًا من نقد ومن غلات صحراوية أخرى من غلات الشجر الصحراوى، ومن الجلود والشَّعر وسواها مما كان يُستخدم فى التبادل فى الأسواق... أمر غلمانه بدسِّها فى رحالهم - والرحل متاع المسافر- لعلهم يعرفون حين يرجعون أنها بضاعته التى جاؤوا بها: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾[1] [2].

أي: لكى يعرفوها إذا رجعوا إلى أهلهم وفتحوا أوعيتهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أى: لعلهم يرجعون إلينا إذا رأوها، فإنه علم أن دينهم يحملهم على رد الثمن؛ لأنهم مطهرون عن أكل الحرام فيكون ذلك أدعى لهم إلى العودة إليه.

• الدروس المستفادة من الآيات:

١- القيادى المخلص لابد أن يتابع مصالح الشعب بنفسه:

إن جلوس يوسف -عليه السلام- للناس يعنى: أنه يتابع الأمور ويراقب الأحوال ويدقق الأموال؛ فالحضور من مؤهلات القيادى الناجح، وهو ميزة لا مثل لها.

قال ابن عاشور: «ودخولهم عليه يدل على أنه كان يراقب أمر بيع الطعام بحضوره، ويأذن به فى مجلسه خشية إضاعة الأقوات؛ لأن بها حياة الأمة»[3].

٢- سنوات الجدْب والقحط عمَّت البلاد وأرهقت العباد:

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ كان هذا المجىء بعد سنوات الرخاء

---

(١) سورة يوسف : الآية: (٦٢).

(٢) الظلال (٤/ ٢٠١٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ١٢).

التى هى السبع السمان، فتلتها سنون الشدة والجدب، ففيها أتى إخوة يوسف يلتمسون الطعام والزاد لأهليهم بعد أن ضربتهم المجاعة.

قال القرطبى رحمه الله:

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ أى: جاؤوا إلى مصر لما أصابهم القحط ليمتاروا، وهذا من اختصار القرآن المعجز.

قال ابن عباس وغيره: لما أصاب الناس القحط والشدة، ونزل ذلك بأرض كنعان بعث يعقوب عليه السلام ولده للميرة، وذاع أمر يوسف عليه السلام فى الآفاق، للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته، وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشدة بالناس يجلس [للناس] عند البيع بنفسه، فيعطيهم من الطعام على عدد رؤوسهم، لكل رأس وسقًا..

٣- قد ينكر الرجل صاحبه بسبب تغير الحال وطول العهد وقد يفعل ذلك عن مكر ودهاء.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾.

قال القرطبى:

«﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ لأنهم خلَّفوه صبيًّا، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة، مع طول المدة، وهى أربعون سنة..

وقيل: أنكروه لأنهم اعتقدوا أنه ملك كافر: وقيل: رأوه لابسًا حريرًا، وفى عنقه طوق ذهب، وعلى رأسه تاج، ويوسف رآهم على ما كان عهدهم فى الملبس والحلية.

ويحتمل أنهم رأوه وراء ستر فلم يعرفوه.

وقيل: أنكروه لأمر خارق امتحانًا امتحن الله به يعقوب»[1].

* * *

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٢٠).

س: كيف لم يعرفه إخوته وقد أوتى شطر الحسن؟

ج: قال بعض العلماء: إنهم لم يعرفوه لأسباب منها ما يلى:

أولاً: إنهم تركوه صغيرًا، ورأوه كبيرًا، وقد تغيرت ملامحه وظهرت له لحية.

ثانيًا: إنهم لم يتوقعوا أن يصل إلى هذه المنزلة التى هو فيها.

ثالثًا: الزىٍّ الذى يلبسه يوسف غيّر بعض ملامحه.

رابعًا: صرفهم الله عن معرفته لأمرٍ يريده سبحانه وتعالى.

٤- قد يتظاهر الظالم أو المعتدى بإنكار كل ما يعين على إدانته وإقامة الدلائل والشواهد عليه.

٥- اهتمام المظلوم بظالمه ومعرفته به أشدّ وأدقّ من اهتمام الظالم بمن ظلمه؛ لذلك عرفهم يوسف ولم يعرفوه.

٦- ترك المعاتبة من المروءة:

من حُسن أخلاق يوسف -وهو النبى-: أنه عرف إخوته وتذكر إساءتهم له، لكنه لم يعنفهم ولم يعاتبهم.

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف -عليه السلام- إلى الديار المصرية يمتارون طعامًا، وذلك بعد إتيان سنى الجدب وعمومها على سائر البلاد والعباد، وكان يوسف -عليه السلام- إذ ذاك الحاكم فى أمور الديار المصرية دينًا ودنيا؛ فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه؛ لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف -عليه السلام- من المكانة والعظمة؛ فلهذا عرفهم وهم له منكرون»[١].

٧- ذكاء يوسف عندما قال: ﴿قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾.

لما جهزهم بجهازهم وأعطاهم من الميرة وما يحتاجه المسافر قال: ائتونى

---

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٢١١).

بأخ لكم من أبيكم. . . . وقيل: إن هذا حصل بأنه استدرجهم ليقصوا عليه قصته يعنى من أين أنتم؟ ومن أنتم؟ ومن أهلكم؟ ومن أبوكم؟ كم عدد الأولاد؟ كم عدد أفراد الأسرة؟ هذا شيء وارد أن يسأل وزير التموين أو الشخص المكلف بتوزيع الحصص أو الميرة فى السنوات العجاف أن يسأل عن عدد أفراد الأسرة لكى يعطيهم على حسب عدد الأسرة، فلما قالوا: باقى واحد فى البيت فقال: حتى أصدقكم هاتوا هذا الذى تقولون إنه باقٍ فى المرة القادمة حتى تكونوا صادقين فى الادعاء وإلا لا أعطيكم شيئًا أبدًا فأوجد عندهم الحافز بأن يأتوا بأخيهم لأنه اشتاق إليه ويريد أن يراه وعلى أى حال يوسف مؤيد بالوحى فما يفعله من الأمور فى عدد منها يحتمل أنه وحى من عند الله أوحى به إليه.

٨- أن إيفاء الكيل والميزان لا يكون إلا بتمامه وعدم بخسه.

قال ابن الجوزى: «﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ ، أى: أتمه ولا أبخسه»(١).

٩- فضيلة إكرام الضيف وأنها من سنن المرسلين:

قال العز بن عبد السلام:

﴿الْمُنزِلِينَ﴾ المضيفين من النُّزل، وهو: الطعام، أو خير من نزلتم عليه من المنزل: وهو الدار(٢).

قال السعدى:

«ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين وإكرام الضيف؛ لقول يوسف لإخوته: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ »(٣).

١٠- الشرط أملك عليك أم لك:

اشترط يوسف -عليه السلام- مجيء أخيه؛ فإن لم يأت؛ فلا كيل لكم

(١) «زاد المسير» (٤/٢٤٨).

(٢) «تفسير سلطان العلماء» (٢/١٢٩).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/٣٩).

جين تأتون مصر ثانية، بل ولا تقربوها مرة أخرى؛ فأنتم مخيرون بين الميرة ودخول بلادى وبين عدم ذلك... لا تنسوا شرطى عليكم، فالشرط أملك عليك أم لك.

والشيء بالشيء يُذكر: أتذكر أنه كان دفع رجلان إلى امرأة مائة دينار وديعة، وقالا لها: «لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه» فلبثا ما شاء الله أن يلبثا، ثم جاء أحدهما فقال: «إن صاحبى قد مات، فادفعى إلىَّ الدنانير»، فأبت، وقالت: «إنكما قلتما لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه، فلست بدافعتها إليك»، فثقل عليها بأهلها وجيرانها حتى دفعتها إليه، ثم لبثت ما شاء الله أن تلبث، فجاء الآخر فقال: «ادفعى إلى الدنانير»، فقالت: «إن صاحبك جاءنى فزعم أنك قد مِتّ، فدفعتها إليه» فقال: «إنه لعب عليك وذهب هاربًا» فاختصما إلى القاضى؛ فعرف أنهما قد مكرا بها، فقال: «أليس قلتما لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه؟» قال: بلى، قال: «إن مالكما موجود عندها، فاذهب فجيء بصاحبك حسب شرطكما، حتى تدفعه إليكما، فإن الشرط أملك»، وهكذا يوسف -عليه السلام- إذا رجع إخوته إليه بدون بنيامين وأرادوا الميرة يقول لهم: «قد اشترطت عليكم أن تأتونى بأخٍ لكم من أبيكم، ولم تفعلوا، فليس لكم عندى ميرة حتى تأتونى به»[1].

١١- إذا أردت أن تُطاع فسل المستطاع:

قال العلمى:

«حينما طلب يوسف من إخوته تلك الطلبة، وهى ضرورة إتيانهم بأخ لهم من أبيهم عند مجيئهم لمصر للمرة الثانية، وحينما أفهمهم نتيجة عدم إتيانهم به، خاطبوه قائلين له باعتباره أنه عزيز مصر: أيها العزيز! لقد

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٩٤٩) بتصرف.

رغبت في أمر كؤود المطلب وعر الملتمس؛ فإن أخانا هذا الذي ترغب في مجيئه، أصغر أولاد أبينا الشيخ وابن شيخوخته، وقد اتخذه أكبر معزٍّ له بعد أخ له مفقود، فالإتيان به إن لم يكن متعذرًا؛ فهو متعسر، فلو قلنا لك: لسنا هناك؛ لأن الأمر ليس بيدنا، بل بيد أبيه الشيخ كنا صادقين، وإن قلنا لك: «إذا أردت أن تطاع، فمُر بما يستطاع» وإن هذا الأمر ليس إلينا كنا معذورين، ومع ذلك فقد أذنا لك وسمعنا وأطعنا» (١).

١٢- عزة المطلب وصعوبة المنال:

قال القاسمي:

«﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾؛ أي: سنخادعه ونحتال في انتزاعه من يده ونجتهد في ذلك، وفيه: تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله -قاله أبو السعود- ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾؛ أي: ذلك، يعنون: المراودة أو الإتيان به؛ فيكون ترقبًا إلى الوعد بتحصيله بعد المراودة» (٢).

١٣- الصبر مفتاح الفرج:

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٣).

هذا التدبير من يوسف -عليه السلام- سيكون له -إن شاء الله- أثر كبير؛ فكما وضع خطة طويلة الأمد لإنقاذ مصر من المجاعة رسم أخرى لاستنقاذ أخيه من المأساة ونفذها على مراحل مما يدل على بُعد نظره واستشرافه للمستقبل وصبره على مشقة الانتظار... ولكنه يعلم بما علمه الله أن الصبر الفاتح لما أُغلق... إنه يعرف كيف يفتح باب الحركة وكيف يدير المعركة...!

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٩٥٠، ٩٥١).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٤٧).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٦٢).

س: لماذا ردّ إليهم يوسف البضاعة؟

ج: قال يوسف عليه السلام: ﴿ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(١).

قال صديق حسن خان فى تفسير ذلك:

فعل يوسف عليه السلام ذلك تفضلاً عليهم.

وقيل: ليستعينوا بها على الرجوع إليه سريعًا لشراء الطعام، وقيل: ليرجعوا إليه مرة أخرى لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمن.

وقيل: إنه خاف أن لا يكون عند أبيه شيء آخر من المال؛ لأن الزمان كان زمان قحط وشدة.

وقيل: أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم فيه منة ولا عيب.

وقيل: أراد أن يريهم بره وكرمه وإحسانه إليهم.

وقيل: أراد أن يكون ذلك عونًا لأبيه ولإخوته على شدة الزمان. وقيل غير ذلك.

وقيل: إنه استقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام.

١٤- على الحاكم المسلم أن يعتمد على الله فى تحقيق أهدافه:

على الحاكم المسلم الذى يستعمل الحيلة فى كسب محبة الناس له ويُسخِّر فى سبيل ذلك ذكاءه ومكره: أن يعتمد على الله لبلوغ غايته وتحقيق هدفه؛ فإنه لا يفلح المكر ولا ينفع من جانب المؤمن إلا بتوفيق من رب العالمين(٢).

١٥- لم يبادر إلى تعريفهم بنفسه لحكمة بالغة:

لم يبادر إلى تعريفهم بنفسه والتعجيل بإدخال السرور إلى أبيه لما يأتى من الحِكم البالغة والتدبير المتين.

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٦٢).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٣٨).

قال البقاعي:

«﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: ليكون حالهم حال من يرجع إلينا إذا عرفوها لردها أو للميرة بها إن لم يكن عندهم غيرها أو طمعًا في مثل هذا، وإنما لم يبادروا إلى تعريفهم بنفسه والتعجيل بإدخال السرور؛ لأن ذلك غير ممكن عادة؛ لما يأتي من الحِكم البالغة والتدبير المتين» (١).

١٦- ردَّ إليهم البضاعة إكرامًا لهم وليعودوا مرة أخرى:

فقد رأينا كيف كان كرم يوسف -عليه السلام- في رد البضاعة؛ ليكون أدعى لهم على الإتيان به لا على الامتنان.

قال ابن الجوزي:

«استقبح أخذ الثمن من والده وإخوته مع حاجتهم إليه؛ فردَّه عليهم من حيث لا يعلمون سبب رده تكريمًا وتفضلاً» (٢).

١٧- بيان أثر الإيمان في السلوك وإنه يحملهم على رد البضاعة ولا يستحلون إمساكها.

قال أبو بكر الجزائري:

«أثر الإيمان في السلوك؛ إذ عرف يوسف أن إخوته لا يستحلون أكل مالٍ بغير حقه؛ فجعل الدراهم في رحالهم؛ ليرجعوا بها، ومعهم أخوهم الذي يريد إحضاره» (٣).

* * *

(١) «نظم الدرر» (٤/ ٦٨).

(٢) «زاد المسير» (٤/ ٢٥٠).

(٣) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٢٦).

عهد وميثاق... وتوكل ورجاء

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ أى فلما عادوا إلى أبيهم قالوا له -قبل أن يفتحوا متاعهم-: يا أبانا لقد أنذرنا بمنع الكيل فى المستقبل إن لم نأت بأخينا بنيامين، فإن ملك مصر ظن أننا جواسيس وأخبرناه بقصتنا فطلب أخانا ليتحقق صدقنا ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ أى: أرسل معنا أخانا بنيامين لنأخذ ما نستحقه من الحبوب التى تُكال لنا ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أى نحفظه من أن يناله مكروه ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أى قال لهم يعقوب: كيف آمنكم على بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم بعد أن ضمنتم لى حفظه، ثم خُنتم العهد؟ فأخاف أن تكيدوا له كما كدتم لأخيه؟ فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أثق بحفظ الله ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ أى حفظ الله خير من حفظكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أى هو أرحم من والديه وإخوته، فأرجو أن يمنَّ علىَّ بحفظه ولا يجمع علىَّ مصيبتين ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾.

أى: لما فتح إخوة يوسف متاعهم ووجدوا فيها بضاعتهم رُدت إليهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أى ماذا نريد بعد هذا.. ﴿هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ وقد أوفى لنا الكيل.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أى: نأتى بالميرة والطعام لأهلنا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ أى نحفظه من المكاره، وكرروا حفظ الأخ مبالغة فى الحضّ على إرساله ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أى: ونزداد باستصحابنا له حمل بعير... ورُوى أنه ما كان يعطى الواحد إلا كيل بعير من الطعام، فأعطاهم حمل عشرة جمال ومنعهم الحادى عشر حتى يحضر أخوهم ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أى: سهل على الملك إعطاؤه لسخائه ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي

بِهِ﴾ أى قال لهم أبوهم: لن أرسل معكم بنيامين إلى مصر حتى تعطونى عهدًا مؤكدًا وتحلفوا بالله لتردنَّهُ علىَّ ﴿إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أى إلا أن تُغلبوا فلا تقدروا على تخليصه، ولا يبقى لكم طريق أو حيلة إلى ذلك... قال مجاهد: إلا أن تموتوا كلكم فيكون ذلك عذرًا عندى ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أى: فلما حلفوا له وأعطوه العهد المؤكد ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أى: الله شهيد رقيب على ذلك ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ أى: لا تدخلوا مصر من باب واحد... قال المفسرون: خاف عليهم من العين إن دخلوا مجتمعين إذ كانوا أهل جمال وهيبة، والعين حق تُدخل الرجل القبر، والجمل القدر كما جاء فى الحديث.

﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أى: لا أدفع عنكم بتدبيرى شيئًا مما قضاه الله عليكم، فإن الحذر لا يدفع القدر ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ أى: ما الحكم إلا لله جل وعلا وحده لا يشاركه أحد ولا يمانعه شىء ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أى: عليه وحده اعتمدت وبه وثقت ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أى: وعليه فليعتمد أهل التوكل والإيمان، وليفوضوا أمورهم إليه ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أى: دخلوا من الأبواب المتفرقة كما أوصاهم أبوهم ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أى: ما كان دخولهم متفرقين ليدفع عنهم من قضاء الله شيئًا ﴿إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ أى: إلا خشية العين شفقة منه على بنيه ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أى: وإن يعقوب؛ لذو علم واسع لتعليمنا إياه بطريق الوحى، وهذا ثناء من الله تعالى عظيم على يعقوب، لأنه علم بنور النبوة أن القدر لا يدفعه الحذر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: لا يعلمون ما خصَّ الله به أنبياءه وأصفياءه من العلوم التى تنفعهم فى الدارين[1].

---

(١) صفوة التفاسير (٢/٥٨-٦٠) بتصرف.

• الدروس المستفادة من الآيات[1]:

١- الأمانة في نقل الحديث:

على المرء الذي ينقل حديثًا أو يخبر عن حادث أن لا يزيد فيه ولا ينقص منه كَيْلاَ يكون ذلك سببًا في وضع التقديرات الخاطئة بناء على حديثه أو خبره.

٢- طبيعة بني إسرائيل الغدر والخيانة.

قال العلمي:

«قصَّ الله علينا ما دار هنا من المقالات بين يعقوب -عليه السلام- وأولاده؛ لكي يكشف لنا بعض غرائز بني إسرائيل، كيف لم يأتمنهم أبوهم على أخيهم الأصغر؛ حيث سبق أنهم خانوا الأمانة لما ذهبوا بأخيهم الصغير قاس أبوهم حادثة بنيامين التي ربما تقع على حادثة يوسف التي وقعت فعلاً.

وقصَّ الله علينا ذلك؛ لنقيس نحن حاضر أحوال سلائلهم على ماضيه، ولنكون على حذر تامٍّ من اليهود اليوم... خصوصًا الصهيونيين منهم؛ عافانا الله تعالى من شرورهم»[2].

* * *

س: كيف قالوا: ﴿يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾، ويوسف قد أوفى لهم الكيل إذ قال: ﴿أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾؟

ج: مرادهم - والله أعلم-: سيُمنع منَّا الكيل إذا لم ترسل معنا أخانا، فهو إطلاق باعتبار ما هو آتٍ، أو مُنع منا كيل أخينا، إذ قد تقرر أنه لكل منهم حمل بعير.

---

(١) بتصرف من (إتحاف الإلف).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/٩٦٦).

وقال ابن الجوزى رحمه الله فى «زاد المسير»:

أحدهما: حُكم علينا بمنع الكيل بعد هذا الوقت، كما تقول للرجل: دخلت والله النار بما فعلت.

والثانى: أن المعنى: يا أبانا يُمنع منا الكيل إن لم ترسله معنا، فناب «مُنع» عن «يُمنع» كقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾[1] أى: يخلده، وقوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ﴾[2] ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى﴾[3] أى: وإذ يقول، ذكرهما ابن الأنبارى[4].

وكذلك كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[5] أى: سيأتى أمر الله.

٣- الحرص على القيام بمصالح الأهل من طعام ورعاية:

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾.

قال ابن الجوزى:

«﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ ؛ أى: نجلب لهم الطعام. قال ابن قتيبة: يقال: مار أهله يميرهم ميرًا وهو مائر لأهله: إذا حمل إليهم أقواتهم من غير بلده»[6].

* * *

س: وضح المراد بقولهم: ﴿مَا﴾ فى قولهم: ﴿مَا نَبْغِي﴾ ؟

ج: قال بعض العلماء: إنها استفهامية.

فقولهم: ﴿مَا نَبْغِي﴾ أى: ماذا نطلب، وماذا نريد بعد هذا الإكرام الذى

---

(١) سورة الهمزة: الآية: (٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٥٠).

(٣) سورة الصف: الآية: (٦).

(٤) التسهيل (ص: ٢٢٠، ٢٢١) بتصرف.

(٥) سورة النحل: الآية: (١).

(٦) «زاد المسير» (٤/ ٢٥٢).

قابلنا به العزيز؟! إن بضاعتنا -وهي الثمن الذى نشترى به الطعام- قد رجعت إلينا مع الطعام، وقد أوفى لنا الكيل أيضًا، فماذا نريد بعد ذلك.

وقال صدِّيق حسن خان فى «فتح البيان»: ﴿مَا نَبْغِي﴾ (ما) للاستفهام الإنكارى، والمعنى: أى شيء نطلب من هذا الملك بعد أن صنع معنا ما صنع من الإحسان بردِّ البضاعة والإكرام عند القدوم إليه، وتوفير ما أردناه من الميرة، وأرادوا بهذا الكلام تطييب قلب أبيهم.

وقال قتادة: ما نبغى وراء هذا؟

وقيل: إن ما نافية أى: ما نبغى فى القول، وما نزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا وإكرامه لنا.

وقُرئ بالفوقية خطابًا ليعقوب، أى: أيُّ شيء تطلب وراء هذا الإحسان؟ أو أى شيء تطلب من الدليل على صدقنا؟![1]

٤- لا يخاطر المؤمن بنفس أو بمال:

لا يخاطر المؤمن بنفس أو مالٍ، ولكنه يحيطه بأقصى ما يستطيع من سياج الحماية والصيانة، وذلك بربطه بعهد الله وميثاقه[2].

٥- المصائب تحمل العقلاء على التعقل والتيقظ والاحتياط فى المرات القادمة.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[3].

قال البقاعى: «كل ذلك زيادة فى التوثيق لما حصل له من المصيبة بيوسف -عليه السلام- وإن كان الاعتماد فى حفظه إنما هو على الله، وهذا من باب اعقلها وتوكل؛ فأجابوه إلى جميع ما سأل»[4].

---

(١) التسهيل (ص: ٢٢١، ٢٢٢).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٤٠).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٦٦).

(٤) نظم الدرر (٤/ ٧٠).

٦- الله يقدر ما يشاء ويختار ما يريد:

قال الحافظ ابن كثير في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أكَّد المواثيق، وقرر العهود، واحتاط لنفسه في ولده، ولن يغني حذر من قدر، ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة لما بعث الولد العزيز، ولكن الأقدار لها أحكام، والرب تعالى يقدر ما يشاء، ويختار ما يريد، ويحكم ما يشاء، وهو الحكيم العليم[1].

٧- وجوب التوكل على الله:

وجوب التوكل على الله تعالى وحده وإمضاء العمل الذي تعيَّن، وتفويض أمر ما يحدث لله تعالى[2].

قال العلمي:

أ- «إن سر التوكل وحقيقته، هو: اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، وكما لا ينفع الإنسان قوله: توكلت على الله مع اعتماده على غيره، وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب وإن لم ينطق شيء، فقول العبد: توكلت على الله مع اعتماد قلبه على غيره، هو مثل قوله: تبت إلى الله وهو مُصرٌّ على مُعصيته مرتكب لها، كذلك توكل العبد على الله مع عدم أخذه بالأسباب هو مثل من يتعاطى عبادة فاسدة كمن يصلي بلا وضوء مثلاً.

ب- نعلم من قوله: ﴿لا تَدْخُلُوا﴾... ﴿ادْخُلُوا﴾ ... ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾... أن يعقوب - عليه السلام- فضَّل التحرز والحيطة، ومع ذلك فقد ألقى حبل اتكاله على الله؛ فجمع بهذا بين الأخذ بالأسباب والتوكل، وكلام يعقوب يشير إلى أنه لا منافاة بين الأخذ بالأسباب والتوكل؛ لأن

---

(١) البداية والنهاية (٢/ ٢١٢).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٢٩).

التوكل ليس هو إلا الثقة -بالله تعالى- والاعتماد عليه، والاعتقاد أن الأمر منه وإليه، ولو مع الأخذ بالأسباب، وما قاله يعقوب -عليه السلام- وهو على حد قول فخر الكائنات[1] : «اعقلها وتوكل»[2] ؛ أشار إلى أن عقل الناقة لا ينافى التوكل، وقوله -عليه الصلاة والسلام-: «لو توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا، وتروح بطانًا»[3] ؛ فأثبت للطير توكلاً مع ذكره أنها تغدو وتروح.

٨- لا يغنى حذر من قدر:

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[4] .

قال السمرقندي:

«﴿ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ ؛ يعنى: من سكك متفرقة ومن طرق شتى؛ لكى لا يظن بكم أحد أنكم جواسيس، ويقال: خاف يعقوب عليهم العين بجمالهم وقوتهم، وهم كلهم بنو رجل واحد.

فإن قيل: أليس هذا بمنزلة الطيرة؛ وقد نُهى عن الطيرة؟

قيل له: لا، ولكن أمر العين حق ورُوى عن رسول الله ﷺ أنه كان يرقى من العين، ويتعوذ منها للحسن والحسين.

ثم قال: ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ ؛ يعنى: من قضاء الله ﴿ مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ ﴾ ؛ يعنى: القضاء ﴿ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ إن شاء أصابكم العين، وإن شاء لم يصبكم ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ؛ يعنى: فوضت أمرى وأمركم إليه ﴿ وَعَلَيْهِ

(١) هو محمد رسول الله ﷺ .

(٢) حسن: رواه الترمذى (٢٥١٧) كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (١٠٦٨).

(٣) صحيح: رواه الترمذى (٢٣٤٤) كتاب الزهد، وابن ماجه (٤١٦٤) كتاب الزهد، وأحمد (١/ ٣٠)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (٣١٠).

(٤) سورة يوسف: الآية: (٦٧).

فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ يعنى: فليثق الواثقــون، قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ من السكك المتفرقة ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ، يعنى: حذرهم لا يغنى من قضــاء الله من شىء؛ يعنى: العين لو قُدرت أن تصيبهم لأصابتهم وهم متفرقون؛ كما تصيبهم وهم مجتمعون» (١).

٩- فوائد مجتــمعة تحت وصية يعقــوب -عليه السلام- لأولاده أن يدخلوا من أبواب متفرقة:

أ-لا يثير أى تحفظ من أى أحد من أهل مصر؛ إذا رأوا هذا الجيش من الرجال مجتمعين.

ب-ليبحث كل منهم فى الوجه والباب الذى يمضى منه؛ لعله يصادف ضالة يعقوب ولعل إحساسًا داخليًّا يهتف فى أعماقه أن ابنه يوسف فى هذا الوجه من الدنيا؛ ولذلك قال لأبنائه بعد قليل: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ مع أنهم عائدون إلى مصر؛ فهــو يرجّح بثاقب فكره وبعميق إحساسه أن ابنه ربما كان فى مصر (٢).

ت- إخفاء كونهم جماعة واحدة (٣).

ث- الغرباء يسترعون انتباه الآخرين (٤).

جـ- تحميلهم المســؤولية وتقوية شعورهم بذلك؛ لأن المســؤولية الفردية تذوب فى الكيان الجماعى، بينما يكبر الشعور بالمسؤولية إذا كانوا آحادًا (٥).

ح- خوفًا من العين والحسد.

خ- سرعة وصولهم إلى حاجتهم.

---

(١) «تفسير السمرقندى» (٢/ ١٦٩).

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص ٤٨٠)، و«اللطائف والإشارات» (٣/ ١٩٤).

(٣) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٢١).

(٤) المرجع نفسه (١٣/ ٢٠).

(٥) «حاشية اللطائف والإشارات» (٣/ ١٩٤).

د- الاستعانة على قضاء حوائجهم بالكتمان.

١٠- مشروعية الوقاية من العين:

قال السعدى: «ومنها: أن استعمال الأسباب الواقية من العين أو غيرها غير ممنوع، بل جائز، أو مستحب بحسب حاله، وإن كانت جميع الأمور بقضاء الله وقدره، لكن الأسباب الواقية أو الدافعة من قضاء الله وقدره بشرط أن يفعلها العبد، وهو معتمد على مسببها؛ لأن يعقوب -عليه السلام- حين أراد أن يوصى بنيه لما أرسل بنيامين معهم، قال: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

وأخبر تعالى أنهم امتثلوا أمر أبيهم، وأن هذا الأمر لم يُغن شيئًا إلاَّ حاجة فى نفس يعقوب قضاها، وهى شفقة الوالد على أولاده، والشريعة جاءت بإثبات الأسباب النافعة الدينية والدنيوية، والحثّ عليها، مع الاستعانة بالله؛ كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله»[(١)]»[(٢)].

قال القرطبى:

فيكون فيها دليل على التحرز من العين، والعين حقٌّ، وقد قال رسول الله ﷺ: «إن العين لتُدخل الرجل القبر والجمل القدْر»[(٣)].

وفى تعوذه -عليه السلام-: «أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامَّة ومن كل عين لامَّة»[(٤)] ما يدل على ذلك.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر.

(٢) «فوائد مستنبطة من قصة يوسف -عليه السلام-» (ص ٤٩-٥٠).

(٣) صحيح: أخرجه ابن عدى (٦/ ٤٠٧)، وأبو نعيم فى الحلية (٧/ ٩٠)، والخطيب (٩/ ٢٤٤)، والقضاعى (٢/ ١٤٠)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (١٢٤٩).

(٤) صحيح: رواه البخارى (٣٣٧١) كتاب أحاديث الأنبياء.

وروى مالك عن محمد بن أبى أمامة بن سهل بن حنيف؛ أنه سمع أباه. يقول: اغتسل أبو سهل بن حنيف بالخرّار، فنزع جُبّة كانت عليه، وعامر بن ربيعة ينظر، قال: وكان سهل رجلاً أبيض، حسن الجلد، قال: فقال له عامر بن ربيعة: ما رأيت كاليوم ولا جلد عذراء! فوعك سهل مكانه واشتد وعكه، فأتى رسول الله ﷺ فأخبر أن سهلاً وُعك، وأنه غير رائح معك يا رسول الله، فأتاه رسول الله ﷺ، فأخبره سهل بالذى كان من شأن عامر؛ فقال رسول الله ﷺ: **«علام يقتل أحدكم أخاه؟! ألا بَرَّكت؟ إن العين حق، توضأ له»**؛ فتوضأ عامر، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس[1]، وفى رواية: «اغتسل»، فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلة إزاره فى قدح ثم صبّ عليه، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس.

وركب سعد بن أبى وقاص يومًا فنظرت إليه امرأة، فقالت: إن أميركم هذا ليعلم أنه أهضم الكشحين؛ فرجع إلى منزله فسقط، فبلغه ما قالت المرأة، فأرسل إليها فغسلت له.

ففى هذين الحديثين أن العين حقٌّ، وأنها تقتل؛ كما قال النبى ﷺ، وهذا قول علماء الأمّة، ومذهب أهل السنة.

١١- يجب على الإمام أن يحجر على العائن ويمنعه من مخالطة الناس؛ دفعًا للضرر، ويجرى عليه رزقه.

قال القرطبى: «من عُرف بالإصابة بالعين مُنع من مداخلة الناس؛ دفعًا لضرره»[2].

وقال الإمام ابن قيم الجوزية: «... وقد قال أصحابنا وغيرهم من

---

(١) أخرجه مالك (٢/ ٩٣٨)، وأحمد (٣/ ٤٨٦)، وابن حبان (٥/ ٦١٠)، والحاكم (٣/ ٤٦٥)، والنسائى فى الكبرى (٤/ ٣٨٠)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (٢٥٧٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٢٧).

الفقـهاء: إن من عُرِف بذلك؛ حبـسه الإمام، وأجرى له مـا ينفق عليه إلى الموت، وهذا هو الصواب قطعًا»[١] .

١٢- العين لا تضر بنفسها إلا بإذن الله ومشيئته[٢] .

قال القرطبي: «. . . ولكن ذلك بمشيئة الله تعـالى؛ كما قال: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٣] ».

١٣- يجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يُبرك.

قال القرطبي:

«واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يُبرِّك؛ فإنه إذا دعا بالبركة صُرف المحذور لا محالة؛ ألا ترى قوله -عليه السلام- لعامر: «ألا بركت؟»؛ فدل على أن العـين لا تضـرُّ ولا تعدو إذا بـرك العائن، وإنهـا إنما تعـدو إذا لم يبرك. والتبريك أن يقول: «تبارك الله أحسن الخالقين اللهم بارك فيه»[٤] .

١٤- الرُّقى الشرعية مما يُستدفع به البلاء[٥]

ولذا فإنه ينبغى على كل مسلم أن يتعلم الرقيـة الشرعية وأن يرقى نفسه وزوجـته وأولاده وكل مـا يخاف عليـه. . . وليس هذا مما يقـدح فى توكل العبد على الله وذلك لأن العبد يأخذ بـالأسباب وهو يعلم يقينًا أن الأسباب وحدها لا تنفع ولا تضرُّ إلا بأمر مُسبب الأسباب (جل وعلا).

١٥- بيان فضل العلم وأهله:

﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ .

﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ﴾ أى: فـهم ومـعرفـة ﴿لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أى: يفهم الذى

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٦٨).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٧٤).

(٣) سورة البقرة: الآية: (١٠٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٢٧).

(٥) زاد المعاد (٩/ ٢٢٨).

علمناه إياه، ومنه أمره لأولاده بالحذر، وأن لا يدخلوا من باب واحد بناء على وجوب الأخذ بالأسباب، وإنه مع ذلك كان يعتقد أن الحذر لا يدفع القدر، وكان يعرف أن ليس للتدبير حظٌ من التأثير، فنعما ذلك الصفى الكريم... أو معنى قوله: ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾، ذو عمل؛ لأن العلم التصديقى الإذعانى المتعلق بالمنافع والمضار يوجب العمل؛ ونقل البخارى[1] عن قتادة: أن العلم هنا العمل، ولذلك فسره بقوله: «عامل بما علم».

شوق ولقاء

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

وصل إخوة يوسف عليه السلام ومعهم أخوهم بنيامين، فأفاض عليهم يوسف عليه السلام من الإكرام والإلطاف والصلة والإحسان ما جعلهم فى غاية الكرامة.

قال المفسرون: لما دخل إخوة يوسف عليه أكرمهم وأحسن ضيافتهم ثم أنزل كل اثنين فى بيت وبقى «بنيامين» وحيداً فقال: هذا لا ثانٍ له فيكون معى، فبات يوسف يضمه إليه ويعانقه، وقال له: أنا أخوك يوسف فلا تحزن بما صنعوا، ثم أعلمه أنه سيحتال لإبقائه عنده وأمره أن يكتم الخبر.

• **الدروس المستفادة من الآية[3]:**

١- جواز أن يخصَّ الرجل أحد إخوانه بسرٍّ:

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوهم بنيامين، وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة

---

(١) فتح البارى (٨/ ٣٥٧).

(٢) سورة يوسف : الآية: (٦٩).

(٣) بتصرف من (إتحاف الإلف).

والإلطاف والإحسان، واختلى بأخيه؛ فأطلعه على شأنه وما جرى له... عرَّفه أنه أخوه، وقال له: ﴿فَلا تَبْتَئِسْ﴾ ؛ أي: لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وأن لا يُطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يُبقيه عنده مُعززًا مُكرمًا مُعظمًا»[1].

٢- أن بنيامين قاسى مع إخوته كثيرًا:

«لما دخل إخوة يوسف على يوسف، حيوه تحية الأمراء، وقالوا له: ها نحن أولاء قد سعينا السعي الحثيث مع أبينا حتى أتينا بأخينا بنيامين حسب رغبتك... وأما يوسف؛ فلا تسل عن فرحه بمجيئهم وبينهم بنيامين، فقد فرح بمجيء إخوته بني العلات، فرح المنتصر الظافر، وفرح بمجيء شقيقه، فرح الحبيب بالحبيب، ولما رفع نظره لبنيامين لمس القلب، لا سيما وقد لاحت له في صورته صورة أمه: «راحيل»؛ فعطف عليه وآواه إليه، وكأنه -سبحانه وتعالى- يشير بهذه الكلمة إلى إنقاذه من ظلم إخوته إياه، واستبدادهم به؛ فقد تكاد هذه الكلمة أن لا تُستعمل إلا في مقام النصر، والإنقاذ من الذل والتهلكة ونحو ذلك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾[3]، وقوله تعالى في النبي ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾[4] وقول لوط -عليه السلام-: ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[5]، وقول ابن نوح: ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾[7]، ويدلنا على أن بنيامين كان

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/٢٥٦).
(٢) سورة المؤمنون: الآية: (٥٠).
(٣) سورة المعارج: الآية: (١٣).
(٤) سورة الضحى: الآية: (٦).
(٥) سورة هود: الآية: (٨٠).
(٦) سورة هود: الآية: (٤٣).
(٧) سورة يوسف: الآية: (٩٩).

محـوطًا بظلم إخوته واستبـدادهم، .... قول يوسف له: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الذى يرمى إلى تكرار أفعالهم المحزنة معه...»[1].

٣- نعمة التأسي والتسلية من أعظم النعم:

قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تنبيه من يوسف لأخيه أنك يا أخى يجب عليك أن تخلع الحزن وترمى البؤس ظهريًّا؛ لأن ذلك كله لن يضرك، فأنا أخوك يوسف الذى زعموا أن الذئب أكله؛ فـها أنت ترى ما أنا فيه من عزٍّ وتمكين بفـضل ذى القوة المتين؛ فـعندئذٍ وجد بنيامـين فى يوسف أسوةً وقدوةً؛ فـصلب عوده، وقوى يقـينه، وتهيـأت نفسه لحـادثة الصواع؛ لأن المصائب إذا عمَّت مَـسلاةٌ.

قال الإمام ابن قيم الجوزية:

«ولما كان المصـاب إذا شاركه غيـره فى مصيـبته حـصل له بالتأسى نوع تخفيف وتسلية، أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل فى حق المشتركـين فى العذاب وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فـرح بعذاب قرينه معه وإن كانت المصائب فى الدنيا إذا عمت صارت مسلاة كما قالت الخنساء فى أخيها صخر:

فلولا كـثـرة البـاكـين حـولى
على إخـوانهـم لقـتـلت نفـسى

ومـا يبكـون مـثل أخي ولـكن
أسلـى النفـس عنهـم بالتـأسى

الا يا صـخـر لا أنـسـاك حـتى
أفـارق عـيـشى وورودَ رمـسى

فمنع الله - سبحانه - هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال: ﴿وَلَن

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٩٩٧، ٩٩٨).

يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾(١)»(٢).

فهذا الروح الحاصل من التأسى معدوم بين المشتركين فى العذاب يوم القيامة(٣).

فطنة وذكاء

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أى: ولما قضى حاجتهم وحمَّل إبلهم بالطعام والميرة ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ أى: أمر يوسف بأن تُجعل السقاية - وهى: صاع من ذهب مُرصَّع بالجواهر - فى متاع أخيه بنيامين ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أى: نادى مناد ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ أى: يا أصحاب الإبل ويا أيها الركب المسافرون ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ أى: أنتم قوم سارقون، وإنما استحل أن يرميهم بالسرقة لما فى ذلك من المصلحة من إمساك أخيه ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾؟ قال المفسرون: لما وصل المنادون إليهم قالوا: ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم؟ ونوفِّ إليكم الكيل؟ ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم؟ قالوا: بلى وما ذاك؟ قالوا: فقدنا سقاية الملك ولا نتهم عليها غيركم... فذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ أى: التفتوا إليهم وسألوهم ماذا ضاع منكم وماذا فُقد؟ وفى قولهم: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ بدل «ماذا سرقنا» إرشاد لهم إلى مراعاة حسن الأدب، وعدم المجازفة بنسبة البريئين إلى تهمة السرقة، ولهذا التزموا الأدب معهم فأجابوهم ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ أى: ضاع منا مكيال الملك المرصع بالجواهر ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أى: ولمن جاءنا بالمكيال وردَّه إلينا حِمل بعير من الطعام كجائزة له ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أى: أنا كفيل وضامن بذلك ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا

(١) سورة الزخرف: الآية: (٣٩).

(٢) «الداء والدواء» (ص ١٤٧، ١٤٨).

(٣) «الرسالة التبوكية» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ١٩٠، ١٩١).

﴿لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ﴾ قَسمٌ فيه معنى التعجب أى قالوا متعجبين: والله لقد علمتم أيها القوم ما جئنا بقصد أن نفسد فى أرضكم ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ أى: ولسنا ممن يوصف بالسرقة قط لأننا أولاد أنبياء ولا نفعل مثل هذا الفعل القبيح... قال البيضاوى: استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم من فرط أمانتهم، كردِّ البضاعة التى جعلت فى رحالهم، وكعم أفواه الدواب لئلا تتناول زرعًا أو طعامًا لأحد (١) ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ أى: ما عقوبة السارق فى شريعتكم إن كنتم كاذبين فى ادعاء البراءة ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ أى: جزاء السارق الذى يوجد الصاع فى متاعه أن يُسترق ويصبح مملوكًا لمن سرق منه (٢).

وهنا ينكشف طرف التدبير الذى ألهمه الله يوسف، فقد كان المتبع فى دين يعقوب: أن يؤخذ السارق رهينة أو أسيرًا أو رقيقًا فى مقابل ما يسرق. ولما كان إخوة يوسف موقنين بالبراءة، فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنه سارق. ذلك ليتم تدبير الله ليوسف وأخيه (٣).

* ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أى: كذلك نجازى من تعدى حدود الله بالسرقة وأمثالها، وهذا القول منهم هو الحكم فى شريعة يعقوب وقد نُسخ بقطع الأيدى فى الشرعية الإسلامية ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ أى: بدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه بنيامين... قال المفسرون: هذه من تمام الحيلة ودفع التهمة فإنهم لما ادعوا البراءة قالوا لهم: لا بد من تفتيش أوعيتكم واحدًا واحدًا فانطلقوا بهم إلى يوسف فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء «بنيامين» قال قتادة: ذُكر لنا أنه كان لا يفتح متاعًا ولا ينظر وعاءً إلا استغفر الله مما قذفهم به، حتى بقى أخوه- وكان أصغر القوم- فقال: ما

---

(١) البيضاوى (ص: ٢٦٧).

(٢) صفوة التفاسير (٢/ ٦١،٦٢).

(٣) الظلال (٤/ ٢٠١٩).

أظن هذا أخذ شيئًا فقالوا: والله لا نتركك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ أى: استخراج الصواع من متاع أخيه بنيامين، فلما أخرجها منه نكّس الإخوة رؤوسهم من الحياء، وأقبلوا عليه يلومونه ويقولون له: فضحتنا وسوَّدت وجوهنا يا ابن راحيل ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾[1] أى: كذلك صنعنا ودبرنا ليوسف وألهمناه الحيلة ليستبقى أخاه عنده ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أى: ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه فى دين ملك مصر؛ لأن جزاء السارق عنده أن يُضرب ويُغرَّم ضعف ما سرق ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أى: إلا بمشيئته تعالى وإذنه، وقد دلت الآية على

---

(١) يا لمكانة نبى الله يوسف حين يقول الله فى حقه: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]. كاد له إخوته فعوقبوا بكيد. كادوا فكيد لهم. والجزاء من جنس العمل.

يقول ابن كثير: وهذا من الكيد المحبوب المراد الذى يحبه الله ويرضاه؛ لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

يقول الإمام ابن قيم الجوزية فى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦].

إن الله سبحانه كاد ليوسف عليه السلام، بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدى إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره.

وكاد له بأن أوقفهم بين يديه موقف الذليل الخاضع المستجدى، فقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨]، فهذا الذُّل والخضوع فى مقابلة ذلّه وخضوعه لهم يوم إلقائه فى الجب وبيعه بيع العبيد.

وكاد له بأن هيأ له الأسباب التى من أجلها سجدوا له، هم وأبوه وخالته، فى مقابلة كيدهم له، حذرًا من وقوع ذلك، فإن الذى حملهم على إلقائه فى الجب خشيتهم أن يرتفع عليهم حتى يسجدوا له كلهم، فكادوه خشية ذلك، فكاد الله تعالى له حتى وقع ذلك، كما رآه فى منامه.

وهذا كما كاد فرعون بنى إسرائيل ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤] خشية أن يخرج فيهم من يكون زوال ملكه على يديه، فكاده الله سبحانه، بأن أخرج له هذا المولود، ورباه فى بيته، وفى حجره، حتى وقع به ما كان يحذره، كما قيل:

وإذا خشيت من الأمور مقدرًا ... وفررت منه فنحوه تتوجَّهُ

[إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان (٢/ ١١٧)].

أن تلك الحيلة كانت بتعليم الله وإلهامه له ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ أي: نرفع بالعلم منازل من نشاء من عبادنا كما رفعنا يوسف ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أي: فوق كل عالم من هو أعلم منه حتى ينتهي إلى ذي العلم البالغ وهو رب العالمين... قال الحسن: ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي العلم إلى الله وقال ابن عباس: الله العليم الخبير فوق كل عالم [١].

* فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يعنون يوسف. فقيل: كان قد سرق صنم جده أبي أمه فكسره، وقيل: كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير منطقة كانت لإسحاق، ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لا يشعر بما صنعت، وإنما أرادت أن يكون عندها وفي حضانتها لمحبتها له. وقيل: كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء. وقيل غير ذلك. فلهذا: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ وهي كلمته بعدها، وقوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ ... أجابهم سرًا لا جهرًا، حلمًا وكرمًا وصفحًا وعفوًا [٢].

• الدروس المستفادة من الآيات[٣]:

١- الهزيمة تُعلم الظفر:

لقد أحسن يوسف وفادة إخوته، ولكنه كان يعد لبدء المعركة مع إخوته التي سيُظهره الله فيها ويحقق رؤياه، وكأنه يقول في نفسه: اليوم تمر وغدًا أمر.

قال العلمي:

«من ههنا» أي: من قوله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم﴾ تبتدئ المعركة بين يوسف وإخوته، وستنتهي بانتصار يوسف عليهم عند قوله: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ ؛ فقد عوّل على أن يوقع الجميع منهم في مأزق حرج مع

---

(١) الطبري (١٣/٢٧).

(٢) قصص الأنبياء (ص: ٢٩٢).

(٣) بتصرف من (إتحاف الإلف).

أبيهم، وأن يعمل معـهم عملاً يقابل عملهم، بحيث يدخل على جـميعهم الكرب والهم؛ لأنهم كـانوا أنزلوه في جُب الماء، فـأراد أن يُنزلهم في أتون نار الهم والغم، . . . كانوا عملوا معه عـملاً يريدون به أن يخلو وجه أبيهم لهم، فأراد أن يعمل مـعهم عملاً يلفت عنهم وجه أبيهم جـزاءً وفاقًا، فذر الرماد في العيون، وهيـأ لهم ضربة أليمة، كما كـانوا ذروا الرماد في عيون أبيـهم وآلموا يوسف، جـزاءً وفاقًـا فكأن يوسف يقـول: احـصدوا أشـواك أعمالكم السابقة.

هو عمل معهم هذه الحيلة المسيئة لـهم التي سيضيقون منها ذرعًا؛ لأنهم سبق أنهم عـملوا عليه تلك الحيلة المسيـئة، وهي: أخذه من أبيه بـحجة أنه ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ فما كـان منهم إلا أنهم أنزلوه في غيابة الجب، وقـد قيل: الهزيمة تعلم الظفر»[١].

٢- جواز تدبير الحيل لتحصيل مقصود مباح معهم [٢]

قال القرطبي:

«وفيه جواز التوصل إلى الأغـراض بالحيل؛ إذا لم تخالف شريعة، ولا هدمت أصلاً؛ خـلافًا لأبي حنيفـة في تجويزه الحيل، وإن خـالفت الأصول وخرمت التحليل»[٣].

قال ابن قيم الجوزية:

«ومن لطيف الكيد في ذلك: أنه لما أراد أخذ أخـيه توصل إلى أخذه بما يقـر إخوته أنه حق وعـدل، ولو أخـذه بحكم قدرتـه وسلطانه، لنُـسب إلى الظلم والجور- ولم يكن له طريق في دين الملك يأخذه بها.

فتوصل إلى أخذه بطريق يعترف إخوته أنها ليست ظلمًا؛ فوضع الصواع

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٠٠٤، ١٠٠٥) بتصرف.

(٢) «فوائد مستنبطة من سورة يوسف -عليه السلام-» (ص ٥١).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٣٦).

فى رحل أخيه بمواطأة منه له على ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾»[١].

قال القاسمى:

«فى الآية دليل على جواز الحيلة فى التوصل إلى المباح، وما فيه الغبطة والصلاح: واستخراج الحقوق» [٢].

* * *

س: كيف استجاز يوسف عليه السلام أن يجعل السقاية فى رحل أخيه ثم يُسرِّق قومًا أبرياء من السرقة فيقول: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾؟

ج: فى ذلك وجوه لأهل العلم منها ما يلى:

أولاً: أن يوسف عليه السلام لم يقل: إنكم لسارقون، إنما أذَّن مؤذن بذلك.

ثانيًا: إنهم نُسبوا إلى السرقة لا فى ذلك الحين، إنما لكونهم سرقوا من قبل، فأخذوا يوسف فأخفوه عن أبيه، وقالوا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾.

قال الطبرى رحمه الله:

إن قال لنا قائل: وكيف جاز ليوسف أن يجعل السقاية فى رحل أخيه، ثم يُسرِّق قومًا أبرياء من السَّرَق، ويقول: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾؟

قيل: إن قوله: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ إنما هو خبرٌ من الله عن مؤذِّن أذَّن به، لا خبر عن يوسف. وجائز أن يكون المؤذن أذَّن بذلك إذ فقد الصُّوَاع ولا يعلم بصنيع يوسف، واستجاز الأمر بالنداء بذلك، لعلمه بهم

---

(١) «بدائع التفسير» (٢/ ٤٦٤).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٥٨).

أنهم قد كانوا سرقوا سرقة في بعض الأحوال، فأمر المؤذن أن يناديهم بوصفهم بالسَّرق، ويوسف يعنى ذلك السَّرق لا سَرَقهم الصواع.

* وقال ابن الجوزى رحمه الله فى «زاد المسير»:

فإن قيل: كيف جاز ليوسف أن يُسرِّق من لم يسرق؟

فعنه أربعة أجوبة:

أحدها: أن المعنى: إنكم لسارقون يوسف حين قطعتموه عن أبيه وطرحتموه فى الجب. قاله الزجاج.

والثانى: أن المنادى نادى وهو لا يعلم أن يوسف أمر بوضع السقاية فى رحل أخيه، فكان غير كاذب فى قوله. قاله ابن جرير.

والثالث: أن المنادى نادى بالتسريق لهم بغير أمر يوسف.

والرابع: أن المعنى: إنكم لسارقون فيما يظهر لمن لم يعلم حقيقة أخباركم، كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[1] أى: عند نفسك لا عندنا، وقول النبى ﷺ: «كذب إبراهيم ثلاث كذبات» أى: قال قولاً يشبه الكذب، وليس به[2].

٣- ذهول المفاجأة:

قال أحمد نوفل:

«والأمر كله مفاجأة للإخوة هدت عزائمهم، وبخّرت الآمال التى كانت تجمعت فى نفوسهم حتى ملأتها... إنه لموقف شديد... ولكن... أليس إلقاء الولد فى الجب شديدًا؟... أليست فجيعة أب بابنه شديدة...؟ بلى.

وإن الذى يصنعه يوسف بهم إنما هو بأمر الله وليس شهوة انتقام؛ إنه يربيهم وينظف جرحهم الملتهب وإن آلمهم بعض الشىء؛ فهو فى النهاية لعافيتهم، ولو أراد الا يتألموا وألا تصيبهم هذه المصيبة ما كانوا زرعوا

(١) سورة الدخان: الآية: (٤٩).

(٢) نقلاً من (التسهيل) (ص: ٢٣٣، ٢٣٤).

الحنظل، ولو زرعوا عنبًا لحصدوا عنبًا، فمن يزرع الشوك لا يجوز أن يتأمل جنى العنب، ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾[1] ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[2]،[3].

٤- البريء واثق من نفسه، جريء في قوله وتصرفه:

إقبال إخوة يوسف الصديق عليهم وقولهم: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾؛ دليل على ثقتهم بأنفسهم وجرأتهم؛ لأن لهجتهم يمازجها استغراب، ويخالطها شيء من استهجان نسبتهم للسرقة.

* * *

س: هل الجعالة مشروعة؟

ج: جاء في الآيات السابقة أنهم قالوا: ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾[4].

فالجعالة مشروعة وهي أن تقول من وجد ضالتي فله ألف ريال مثلاً.. فهذا جُعل وذلك بأن تجعل مبلغًا مقطوعًا لمن فعل لك شيئًا معينًا... هذه غير الإجارة فالإجارة العمل فيها معلوم والجعالة العمل فيها غير معلوم. ففي الإجارة لا تقول من وجد بعيري.. لأن الحصول على البعير ممكن يستغرق ساعة أو شهرًا أو سنة وأنت تبحث عن بعير الرجل. لكن لا يجوز أن يكون الجعل مجهولاً - من وجد محفظتي فله ما فيها - يمكن يطلع فيها ريال ويمكن يكون فيها ألف إذًا لابد في عقد الجعالة أن يكون الجعل معلومًا.

قالوا: ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ وحمل البعير معلوم أنه يحمل خمسين كيلو مثلاً من الطعام أو القمح.

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٦٥).

(٢) سورة النساء: الآية: (٧٩).

(٣) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص ٤٩٦).

(٤) سورة يوسف: الآية: (٧٢).

٥- إذا اتُّهم المسلم فلابد أن يدافع عن نفسه بقوة مادام أنه على الحق:

إذا اتُّهم المسلم بتهمة وهو منها براء؛ فعليه أن يواجه الباطل بالحق، والتهمة بالنفى، ولا يقف ضعيفًا أو مستخزيًا أمام من يلقى عليه التهم بل يدفعها عن نفسه بقوة مادام واثقًا من براءته.

قال أحمد نوفل: «لقد تكلموا بما يعلمون من أنفسهم من براءة فجاءت كلماتهم واثقة فيها نبرة التحدى، فما قالوا: لسنا سارقين، لا، وإنما قالوا: ﴿تَاللَّهِ﴾، ولقد كثر القسم بهذه الصورة فى السورة، ثم قالوا بعد القسم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ أى: أنكم أنتم فى قرارة أنفسكم من خلال ما رأيتم من أمانتنا عبر أكثر من موقف، أنتم بأنفسكم موقنون أنَّا بُرآء.

وهذا أبلغ فى اعتقاد البراءة وفى تأكيدها من أن تنفى عن نفسك التهمة فقط، ولكن بأن تقول لمن يتهم: أنا لن أرد عليك. أنت فى قرارة نفسك تعلم فساد الدعوى التى تدعى.

إن فى نبرة الرجال هؤلاء لثقة، جعلتهم يستعملون هذه المؤكدات ويُخرجون كلامهم هذا الإخراج، ولقد نفوا عن أنفسهم بالإضافة إلى ما قلناه لا مجرد السرقة؛ وإنما أيضًا إفساد فى الأرض»(١).

٦- جواز الحلف بالله تعالى للحاجة أو لإثبات البراءة:

فيجوز للإنسان أن يحلف بالله للحاجة أو لإثبات براءته لكن عليه أن يحذر من الحلف بغير الله.

فقد قال ﷺ: «من كان حالفًا فلا يحلف إلا بالله»(٢).

وقال ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك»(٣).

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص ٤٩٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٨٣٦) كتاب المناقب، ومسلم (١٦٤٦) كتاب الأيمان.

(٣) صحيح: رواه أبو داود (٣٢٥١) كتاب الأيمان والنذور، الترمذى (١٥٣٤) كتاب النذور والأيمان، وأحمد (٢/ ١٢٥)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٦٢٠٤).

٧- قلب الحجة على الخصم أبلغ فى الرد عليه:

لقد قلب إخوة يوسف -عليه السلام- حجة الفتيان عليهم، وهذا أبلغ فى الرد وآكد فى نفى الاتهام؛ فقد جعلوا علم أهل مصر بصدقهم حجة عليهم:

١- لقد علم أهل مصر أنهم جاؤوا ليمتاروا لأهلهم.

٢- ولما وجدوا البضاعة رُدَّت إليهم لم ينكروها ويخفوها.

٣- وعدوا العزيز بأن يراودوا أباهم ليأتى معهم أخوهم؛ ففعلوا، وقدموا به.

* * *

س: قال إخوة يوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ﴾ فكيف أقسموا على علم غيرهم؟

ج: أجاب على نحو ذلك الطبرى بقوله:

لأنهم -فيما ذُكر- ردُّوا البضاعة التى وجدوها فى رحالهم، فقالوا: لو كنا سرَّاقًا لم نردَّ عليكم البضاعة التى وجدناها فى رحالنا.

وقيل: إنهم كانوا قد عُرفوا فى طريقهم ومسيرهم أنهم لا يظلمون أحدًا، ولا يتناولون ما ليس لهم، فقالوا ذلك حين قيل لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾.

* أما ابن الجوزى فى «زاد المسير» فقال:

فإن قيل: كيف حلفوا على علم قومٍ لا يعرفونهم؟

فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم قالوا ذلك؛ لأنهم ردوا الدراهم ولم يستحلُّوها، فالمعنى: لقد علمتم أنَّا رددنا عليكم دراهمكم وهى أكثر من ثمن الصاع، فكيف نستحل صاعكم، . . . رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مقاتل.

والثانى: لأنهم لما دخلوا مصر كمموا أفواه إبلهم وحميرهم حتى لا تتناول شيئًا، وكان غيرهم لا يفعل ذلك. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: أن أهل مصر كانوا قد عرفوهم أنهم لا يظلمون أحدًا»(١).

٨- الاسترسال للخصم ليقيم الحجة على نفسه:

قال أحمد نوفل:

«لقد قابلوا ثقة الإخوة فى نفى التهمة بثقة أخرى فى إثبات التهمة، وكأنهم مستيقنون منها، قالوا: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾؛ أى: فما جزاء السارق سواء كان فردًا منكم أو كان بالتواطؤ فيما بينكم، ما جزاؤه إن ثبت كذبكم بالدليل المحسوس والبينة القاطعة؟!»(٢).

٩- ينبغى لمن دخل بلدًا أن يعرف أحكام وقوانين ذلك البلد الذى نزل فيه:

قال السمرقندى:

«وكان الحكم فى أرض مصر للسارق الضرب والتضمين، وكان الحكم بأرض كنعان أنهم يأخذون السارق ويسترقونه؛ ففوضوا الحكم إلى بنى يعقوب؛ ليحكموا بحكم بلادهم»(٣).

وقال البغوى:

«﴿جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾؛ أى: فالسارق يُسلَّم بسرقته إلى المسروق منه فيسترقه سنة، وكان ذلك سُنة آل يعقوب فى حكم السارق، وكان حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعف قيمة المسروق، فأراد يوسف أن يحبس أخاه عنده؛ فرد الحكم إليهم؛ ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم»(٤).

---

(١) التسهيل (ص: ٢٣٥، ٢٣٦).

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص ٤٩٨).

(٣) «مختصر تفسير السمرقندى» (٢/ ١٧١).

(٤) «مختصر تفسير البغوى» (١/ ٤٤٨).

قال السعدى:

«وكان هذا فى دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان ملكًا لصاحب المال المسروق»[١].

١٠- ينبغى على كل مسؤول أن يباشر المهام بنفسه:

فينبغى على كل مسؤول أن يباشر تنفيذ العملية التى أمر بها بنفسه؛ كيلا يدع مجالاً لاحتمال إفساد خطته من أحد من الذين يمكن أن يعهد إليهم بمهمة التنفيذ[٢].

وهذا كان من دأب النبيين وفعل المرسلين؛ كما قام سليمان -عليه السلام- بنفسه ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾[٣].

١١- كيد يوسف لإخوته بتدبير من الله:

قال العلمى:

«بدأ المفتش يفتش بأوعيتهم قبل وعاء بنيامين؛ فتطاولت أعناقهم ليروا ما يبرر كلامهم أمام من اتهمهم، ثم مشي مشيًا متثاقلاً نحو رحل بنيامين، وما كاد يفتحه حتى استخرج الصواع منه، وعندئذ قطعت جهيزة قول كل خطيب، فاقشعرت أبدانهم، ووقفت شعور رؤوسهم، وسكتوا كأنما على رؤوسهم الطير؛ رأوا ذلك؛ فأجفلوا وبُهتوا جميعًا لما نظروه مما لم يكونوا يتوقعونه من بنيامين؛ أما بنيامين؛ فقد انصبَّ عليه سوط ولوم وطعن من إخوته، فتظاهر بالخجل وتصنَّع بالاضطراب تصنعًا لم يغير شيئًا من مظاهر عزته وأنفته، وكأنه لم يعمل شيئًا يُذكر؛ صبر ولم يُرد أن يكاشفهم بالحقيقة، خوفًا من ظهور الأمر قبل أوانه؛ فتبطل الحيلة التى دبرها شقيقه يوسف، فأبقى الأمر مكتومًا إلى حينه، وتحمل تبعة السرقة والتصاقها به؛

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٢٤).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٤٦).

(٣) سورة النمل : الآية: (٢٠).

لاعتقاده أنه بذلك يخلص من جور إخوته له ومضايقتهم إياه بفلسطين، وأنه بذلك رُفع من حضيض الأسر إلى أوج النسر، وهكذا تمت الحيلة ليوسف، ورُبَّ حيلة أنفع من قبيلة، وبسعيه هذا فاز بطريدته أخذ أخاه بنيامين.

وأما إخوته؛ فأحسوا بنيران هبت فى أبدانهم، وودوا لو تُسوَّى بهم الأرض ولا كانوا يشهدون هذا المشهد المخجل أمام عزيز مصر وعبيده»[1].

* * *

س: لماذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه؟

ج: ذلك - والله أعلم -: لدفع الشبهة، حتى لا يُقال -إذا فتش أول متاع فوجد الصواع فيه-: إن فتيان العزيز هم الذين أخفوا الصواع فى رحل أخيهم، فبدأ بأوعيتهم حتى تظهر براءتهم أولاً.

ونحو هذا الوجه من دفع التهم قول الشاهد: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فبدأ بما يُظهر براءة المرأة حتى لا يُتهم هو بالتجنى عليها.

ونحوه أيضًا: قول مؤمن آل فرعون الذى يُخفى إيمانه فى شأن موسى عليه السلام: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾[2] فقدم الكذب دفعًا لما قد يتوهم من نصرته له.

ونحو ذلك أيضًا: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[3].

١٢- الكيد نوعان: حسن وقبيح:

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

قال ابن قيم الجوزية:

«فنسب الله هذا الكيد إلى نفسه، كما نسبه إلى نفسه فى قوله تعالى:

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٠٢٤، ١٠٢٥).

(٢) سورة غافر: الآية: (٢٨).

(٣) سورة سبأ: الآية: (٢٥).

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (١)وفى قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾(٢)، وفى قوله تـعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(٣).

وقد قيل: إن تسمية ذلك مكرًا وكيدًا واستهزاءً، وخداعًا من باب الاستعارة ومجاز المقابلة، نحو: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾(٤)، ونحو قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (٥).

وقيل -وهو أصوب-: بل تسميته بذلك حقيقة على بابه؛ فإن المكر إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفى، وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان:

قبيح: وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه.

وحسن: وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له، فالأول مذموم، والثانى ممدوح»(٦).

وقال العلمى:

«... أو يقال: لما كان هذا الكيد محمودًا ومأذونًا فيه شرعًا؛ لما فيه من فائدة يوسف وأخيه؛ نُسب لله، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، بخلاف كيد الإخوة؛ فإنه شر ليوسف؛ فلهذا نُسب لهم وللشيطان فى قول أبيه له: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فيوسف ما قصد إلا خير أخيه، والإخوة لم يقصدوا إلا شر أخيهم».

(١) سورة الطارق: الآيتان: (١٥، ١٦).
(٢) سورة النمل : الآية: (٥٠).
(٣) سورة الأنفال: الآية: (٣٠).
(٤) سورة الشورى: الآية (٤٠).
(٥) سورة البقرة : الآية: (١٩٤).
(٦) «بدائع التفسير» (٢/ ٤٦٠).

قال الشاعر:

ويقبح من سواك الفعل عندي

فتفعله فيحسن منك ذاكا[1]

١٣- العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات:

قال الرازي:

«واعلم أن هذه الآية تدل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات؛ لأنه تعالى لما هدى يوسف إلى هذه الفكرة مدحه لأجل ذلك؛ فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾، وأيضًا وصف إبراهيم -عليه السلام- بقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ عند إيراد دلائل التوحيد»[2].

قال السمرقندي:

«﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾؛ يعني: ليس من عالم إلا وفوقه أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى»[3].

١٤- ثبات أبناء يعقوب -عليه السلام- على كره يوسف -عليه السلام-:

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

قال العلمي:

«هذه الكلمة تشف عن ثباتهم على كره يوسف، حتى يوم ما فاهوا بذلك، وعن أن الحقد قد أكل قلوبهم، والحفيظة ملأت صدورهم!! والعجيب أنهم لم يكتفوا بالإيقاع بيوسف بما عملوه معه، حتى أردفوا عملهم السيئ بالقول السيئ، مخالفين قول بعض الحكماء: «لا تتبع أخاك بعد القطيعة وقيعة فيه، فتسد عليه طريق عفوه عنك»، وأما هو - عليه

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٠٢٦).

(٢) «تفسير الرازي» (١٨/ ١٨٢).

(٣) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٧١).

السلام-؛ فلم يحفل بطعنهم، بل هضمه قائلاً: «إنه كلام لا يسر ولا يضر؛ فلنمر عليه مر الكرام»(١).

* * *

س: ماذا يعنون بالأخ فى قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾؟

ج: يعنون به يوسف عليه السلام.

أما السرقة التى نسبوه إليها وعابوه بها فمن العلماء من قال: إنه سرق فى صغره صنمًا كان لجده(٢)، وذكروا أمورًا أخر، منها أن عمة يوسف كانت تُحبه فسرَّقته شيئًا وهو لم يسرقه -وهو منطقة إسحاق- فبحثوا عنها فوجدوها مع يوسف، فأخذته عمته مقابل سرقته. وكل ذلك لم يصح فيه خبرٌ عن النبى ﷺ.

* * *

س: ما الذى أسره يوسف فى نفسه؟

ج: أسرَّ فى نفسه مقولة: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾، أى: أنه قال فى نفسه سرًّا: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

قال ابن الجوزى رحمه الله تعالى فى «زاد المسير»:

قوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ فى هاء الكناية ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها ترجع إلى الكلمة التى ذُكرت بعد هذا، وهى قوله تعالى: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾، وروى هذا المعنى العوفى عن ابن عباس.

والثانى: أنها ترجع إلى الكلمة التى قالوها فى حقه، وهى قولهم: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾، وهذا معنى قول أبى صالح عن ابن عباس.

فعلى هذا يكون المعنى: أسرَّ جواب الكلمة فلم يجبهم عليها.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/١٠٤٦، ١٠٤٧).

(٢) أورد الطبرى بذلك آثارًا عن سعيد بن جبير وقتادة.

والثالث: أنها ترجع إلى الحجة، المعنى: فأسر الاحتجاج عليهم فى ادعائهم عليه السرقة، ذكره ابن الأنبارى.

* * *

س: هل فى يوسف وأخيه شرٌ حتى يُقال لإخوته: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾؟

ج: حاشا لله، ما فى يوسف ولا أخيه شرٌّ، فليست أفعل التفضيل فى قوله: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ على بابها، وإنما هى كقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾[1]، مع أن أصحاب النار ليسوا فى شىء من الخير بحال.

١٥- «الحليم الذى يسمع الأذى ويغضى عليه ويكظم الغيظ ويتجاوزه ويلجأ فى الحال إلى ذكر الله؛ كيلا يدع مجالاً للشيطان أن يدفعه إلى أن يقول قولاً أو يفعل فعلاً فى غير مرضاة الله عز وجل»[2].

يا له من موقف عصيب

وعندئذ عادوا إلى الموقف المحرج الذى وقعوا فيه. عادوا إلى الموثق الذى أخذه عليهم أبوهم: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾. فراحوا يسترحمون يوسف باسم والد الفتى، الشيخ الكبير، ويعرضون أن يأخذ بدله واحدًا منهم إن لم يكن مُطلقه لخاطر أبيه؛... ويستعينون فى رجائه بتذكيره بإحسانه وصلاحه وبره لعله يلين: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ولكن يوسف كان يريد أن يلقى عليهم درسًا. وكان يريد أن يشوقهم إلى المفاجأة التى يعدها لهم ولوالده وللجميع! ليكون وقعها أعمق وأشد أثرًا

(١) سورة الفرقان: الآية: (٢٤).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٤٨).

فى النفوس: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾..

ولم يقل معاذ الله أن نأخذ بريئًا بجريرة سارق؛ لأنه كان يعلم أن أخاه ليس بسارق، فعبَّر أدق تعبير يحيكه السياق هنا باللغة العربية بدقة: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ وهى الحقيقة الواقعة دون زيادة فى اللفظ تحقق الاتهام أو تنفيه.

﴿إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾... وما نريد أن نكون ظالمين.

وكانت هى الكلمة الأخيرة فى الموقف. وعرفوا أن لا جدوى بعدها من الرجاء، فانسحبوا يفكرون فى موقفهم المحرج، أمام أبيهم حين يرجعون[1].

● **الدروس المستفادة من الآيتين:**

١- أنزلوا الناس منازلهم:

«عندما يكون للمسلم حاجة عند صاحب نفوذ؛ فإنه يعرضها عليه، ويقدم لها مبررًا ثم يعززها بذكر خير صفاته؛ فإن ذكر الخير يشكل حافزًا يدفعه للمضى فى فعل الخير بشرط أن لا يبالغ فى مدحه أو يُشعره بتقديسه أو تأليهه»[2].

والدليل على ذلك أنهم ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[3].

٢- ليس منا من لم يوقر كبيرنا:

﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾.

قال القاسمى:

«لما تعين بنيامين وإبقاءه عند يوسف بمقتضى فتواهم طفقوا يعطفونه عليهم بأن له أبًا شيخًا كبيرًا، يحبه حبًا شديدًا، يتسلى به عن أخيه المفقود؛

(١) الظلال (٤/ ٢٠٢٢، ٢٠٢٣).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٤٩).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٧٨).

فخذ أحدنا بدله رقيقًا عندك».

وقال ابن عاشور: «ووصفوا أباهم بثلاث صفات تقتضي الترقيق عليه، وهي: حنان الأبوة، وصفة الشيخوخة، واستحقاقه جبر خاطره؛ لأنه كبير قومه، أو لأنه انتهى فى الكبر إلى أقصاه؛ فالأوصاف مسوقة للحث على سراح الابن لا لأصل الفائدة؛ لأنهم قد كانوا أخبروا يوسف -عليه السلام- بخبر أبيهم.

والمراد بالكبير: إما كبير عشيرته؛ فإساءته تسوؤهم جميعًا ومن عادة الولاة استجلاب القبائل، وإما أن يكون «كبيرًا» تأكيدًا لـ «شيخًا»؛ أى: بلغ الغاية فى الكبر من السن، ولذلك فرعوا على ذلك ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾، إذ كان هو أصغر الإخوة، والأصغر أقرب إلى رقة الأب عليه»[1].

٣- لا محاباة فى أحكام الشرع:

قال العلمى: «الحكم الشرعى الذى لفظتموه عام؛ فهو لا ينظر فى كون المجرم له أب شيخ كبير أم لا، ولا فرق فيه بين ولد وولد، ولا يحتمل شيئًا من المحاباة، ومراعاة الوجوه»[2].

* * *

س: قوله تعالى: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ فيه نوع من الاحتراز، وضح ذلك.

ج: إيضاحه: أنه لم يقل: معاذ الله أن نأخذ إلا من سرق، بل قال: ﴿إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ وذلك احترازًا من وصف أخيه بالسرقة، فالاحتراز هنا عن الكذب وعن قذف البرىء بالتهمة؛ فأخوه لم يسرق حقيقة.

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٣٦، ٣٧).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٠٥٧).

٤- حرمة ترك الجانى وأخذ غيره بدلاً منه؛ إذ هذا من الظلم:

ونحن نعلم يقينًا أن الله -عز وجل- حرم علينا الظلم بكل أنواعه.

روى مسلم أن الله -عز وجل- قال فى الحديث القدسى: «يا عبادى! إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا» (١).

وقال ﷺ: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة...» (٢).

وقال ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تُحمل على الغمام يقول الله: وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين» (٣).

وقال ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة»(٤).

وقال ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرًا فإنه ليس دونها حجاب»(٥).

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ أى ولما يئسوا من إجابة طلبهم يأسًا تامًا، وعرفوا أن لا جدوى من الرجاء، اعتزلوا جانبًا عن الناس يتناجون ويتشاورون ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: قال أكبرهم سنًا وهو «روبيل»: أليس قد أعطيتم أباكم عهدًا وثيقًا بردِّ أخيكم؟ ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ أى: ومن قبل هذا ألا تذكرون تفريطكم فى يوسف؟ فكيف ترجعون إليه الآن؟ ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ أى: فلن أفارق أرض مصر حتى يسمح لى أبى بالخروج منها ﴿أَوْ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٨) كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) صحيح: أخرجه الطبرانى (٤/ ٨٤)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (١١٧).

(٤) صحيح: أخرجه الحاكم (١/ ٨٣)، والديلمى (١/ ٩٥)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (١١٨).

(٥) حسن: رواه أحمد (٣/ ١٥٣)، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (٧٦٧).

يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ أى: يحكم بخلاص أخى ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أى: وهو سبحانه أعدل الحاكمين لأنه لا يحكم إلا بالعدل والحق ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ أى: ارجعوا إلى أبيكم فأخبروه بحقيقة ما جرى وقولوا له: إن ابنك بنيامين سرق ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أى: ولسنا نشهد إلا بما تيقَّنا وعلمنا فقد رأينا الصاع فى رحله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أى: ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ أى: واسأل أهل مصر عن حقيقة ما حدث.

قال البيضاوى: أى: أرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة[1] ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أى: واسأل أيضًا القافلة التى جئنا معهم وهو قوم من كنعان كانوا بصحبتهم فى هذه السفرة ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أى: صادقون فيما أخبرناك من أمره ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أى: زيَّنت وسهلت لكم أنفسكم أمرًا ومكيدة فنفذتموها... اتهمهم بالتآمر على «بنيامين» لما سبق منهم فى أمر يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أى: لا أجد سوى الصبر محتسبًا أجرى عند الله ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أى: عسى أن يجمع الله شملى بهم، ويقر عينى برؤيتهم جميعًا.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أى: العالم بحالى الحكيم فى تدبيره وتصريفه[2].

هذا الشعاع من أين جاء إلى قلب هذا الرجل الشيخ؟ إنه الرجاء فى الله، والاتصال الوثيق به، والشعور برحمته وعظمته. ذلك الشعور الذى يتجلى فى قلوب الصفوة المختارة، فيصبح عندها أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذى تلمسه الأيدى وتراه الأبصار[3].

قال ابن إسحاق وغيره: لما كان التفريط منهم فى بنيامين مترتبًا على

(١) البيضاوى (ص: ٢٦٨).

(٢) صفوة التفاسير (٢/ ٦٣، ٦٤).

(٣) الظلال (٤/ ٢٠٢٥).

صنيعهم فى يوسف، قال لهم ما قال. وهذا كما قال بعض السلف: إن من جزاء السيئة السيئة بعدها!

• الدروس المستفادة من الآيات[١]:

١- الحرص على تنفيذ مبدإ الشورى:

قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [٣].

عندما يواجه المؤمن ظرفًا صعبًا يتعلق به أو بجماعته أو ببلده أو بأمته؛ فعليه أن يلجأ إلى الشورى، ويتبادل الرأى مع الآخرين لدفع المصاعب بالجهد المشترك، الذى يؤدى إليه تبادل الرأى وتقليب وجوه النظر [٤].

٢- من السنة تقديم الكبير:

«﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾، ولأول مرة يُبرز السياق واحدًا منهم بعينه، والمرة يكون المتكلم أعقلهم وأكبرهم، وشىء طبيعى أن يكون الأكبر هو الذى يتكلم الآن؛ لأنه الذى يتحمل المسؤولية أمام أبيه بالدرجة الأولى، وأن غيابه مع ذاك الأخ يتخفف من مصيبته، ويقنع ولو احتمالاً أن الأمر ليس تدبيراً كيديًا سيئًا أعده الإخوة، فهذا واحد من البقية قد فُقد» [٥].

٣- كل من حصل له العلم بشىء جاز له أن يشهد به وإن لم يشهده المشهود عليه:

﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾.

---

(١) بتصرف من (إتحاف الإلف).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٥٩).

(٣) سورة الشورى: الآية: (٣٨).

(٤) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٥١).

(٥) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص ٥٠٨).

قال القرطبى:

«قال أصحابنا: شهادة الأعمى جائزة، وشهادة المستمع جائزة، وشهادة الأخرس إذا فُهمت إشارته جائزة، وكذلك الشهادة على الخط -إذا تيقن إنه خط فلان- صحيحة؛ فكل من حصل له العلم بشىء جاز أن يشهد به، وإن لم يشهده المشهود عليه؛ قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1] وقال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ خير الشهداء الذى يأتى بشهادته قبل أن يُسألها»[2]»[3].

٤- لا أحد يعلم الغيب إلا الله عز وجل:

قال الزمخشرى فى هذه الآية: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾.

أى: وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق، أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف[4].

٥- الاحتراس فى النقل أمان من الكذب:

قال ابن عاشور:

«وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ احتراس من تحقيق كونه سرق، وهو إما لقصد التلطف مع أبيهم فى نسبة ابنه إلى السرقة، وإما لأنهم علموا من أمانة أخيهم ما خالجهم به الشك فى وقوع السرقة منه»[5].

٦- المؤمن الصادق لا يخشى شهادة الشهود:

فالمؤمن الصادق الذى يعلم أنه على الحق لا يخشى من شهادة الشهود الصادقين المؤتمنين... بل إنه من الممكن أن يطلب من الناس أن يستشهدوا

(١) سورة الزخرف: الآية: (٨٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٧١٩) كتاب الأقضية.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٤٥).

(٤) الكشاف (٢/ ٢٧٠).

(٥) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٤٠).

بجميع الشهـود الذى رأوا ما حدث معه بأم أعينهم ليـشهدوا على ذلك ثقة فى صدقه وأمانته وأنه لا يكذب أبدًا والدليل على ذلك قولهم:

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾.

٧- إن الأنبياء قد تخاطبهم الأحجار والبهائم والجمادات.. والله يُنطقها[١].

قال القرطبى:

«وقيل: المعنى ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ وإن كانت جمادًا؛ فأنت نبى الله، وهو يُنطِق الجماد لك، وعلى هذا؛ فلا حاجة إلى إضمار»[٢].

* * *

س: وضح المراد بقولهم: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾؟

ج: فى ذلك وجهان لأهل العلم:

أحدهما: واسأل أهل القرية، ويريدون بالقرية: مصر.

الثانى: واسأل القرية نفسها، فهى وإن كانت جمادًا إلا أن الله يُنطقها لك؛ فأنت نبى.

هذا، وقد قال النبى ﷺ: «**إنى أعرف حجرًا بمكة كان يُسلِّم علىَّ**».

٨- جواز اتهام البرىء للملابسات أو تهمة سابقة[٣].

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

«لم يصدقهم أبوهم هذه المرة، مع أنهم -فيما يعتقدون- صادقون فيها؛ لأن من عُهد عليه الكذب، لا يُصدَّق ولو تكلم بالصدق، كما أن من عُرف بالصدق يُصدَّق فى كل شىء ولو كان كاذبًا، فأبوهم لم يقابل كلامهم بالتصديق بل استغشهم، ولم يكن فى هذه المرة الثانية أقل منه استغشاشًا

---

(١) «زاد المسير» (٤/٢٦٨)، و«تفسير سلطان العلماء» (٢/ ١٣٥)، و«فتح القدير» (٣/ ٤٦).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٤٦).

(٣) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٣٩).

لهم فى المرة الأولى.

كانوا استشهدوا بسؤال القرية والعير، فلم يأبه لاستشهادهم، ولم يعبأ بأيمانهم ذلك؛ لأنه تعود منهم الغدر والكذب واليمين الغموس، فما صدقهم فى هذه مع أنهم كانوا -فى تصورهم- صادقين، فما مثلهم إلا كمثل حكاية الذئب وراعى الغنم المشهورة»[1].

٩- ليست كل الظنون على القياس:

قال ابن عطية: «ظن بهم سوءًا؛ فصدق ظنه فى زعمهم فى يوسف -عليه السلام- ولم يتحقق ما ظنه فى أمر بنيامين؛ أى: أخطأ فى ظنه بهم فى قضية (بنيامين)، ومستنده فى هذا الظن علمه أنَّ ابنه لا يسرق، فعلم أن فى دعوى السرقة مكيدة؛ فظنه صادق على الجملة لا على التفصيل.

وأما تهمته أبناءه بأن يكونوا تمالؤوا على أخيهم بنيامين؛ فهو ظن مستند إلى القياس على ما سبق من أمرهم فى قضية يوسف -عليه السلام-»[2].

١٠- الصبر الجميل هو الذى لا تسخط ولا جزع ولا شكوى فيه للخلق[3].

قال السعدى:

«﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ؛ أى: ألجأ فى ذلك إلى الصبر الجميل الذى لا يصحبه تسخط ولا جزع ولا شكوى للخلق، ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد والكربة انتهت، فقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾؛ أى: يوسف وبنيامين وأخوهم الكبير الذى أقام فى مصر»[4].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٠٧٩).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٤١).

(٣) «تفسير السمرقندى» (٢/ ١٧٣)، و«دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٥٤).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٢٥، ٢٦).

١١- جزاء السيئة سيئة بعدها:

قال ابن كثير فى هذه الآية:

«﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾؛ أى: ليس كما ذكرتم أنه سرق فإنه ليس سجية ولا خلقة، وإنما سولت لكم أنفسكم أمرًا؛ فصبر جميل.

قال ابن إسحاق وغيره: لما كان التفريط منهم فى بنيامين مترتبًا على صنيعهم فى يوسف قال لهم ما قال، وهذا كما قال بعض السلف: إن من جزاء السيئة السيئة بعدها، ثم قال: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾؛ يعنى: يوسف وبنيامين وروبيل ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾؛ أى: بحالى وما أنا فيه من فراق الأحبة ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فيما يقدره ويفعله وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة»[1].

﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾

لما عاد أولاد يعقوب - عليه السلام- إليه من غير ولديه (بنيامين وروبيل) تجددت الأحزان فى قلبه لفقد يوسف - عليه السلام- وأحس أن قلبه يكاد أن يتمزق من الحزن على فقد أولاده.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾.

وهى صورة مؤثرة للوالد المفجوع. يحس أنه منفرد بهمه، وحيد بمصابه، لا تشاركه هذه القلوب التى حوله ولا تجاوبه، فينفرد فى معزل، يندب فجيعته فى ولده الحبيب يوسف، الذى لم ينسه، ولم تهوّن من مصيبته السنون، والذى تذكره به نكبته الجديدة فى أخيه الأصغر فتغلبه على صبره الجميل.

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٢١٤).

﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ويكظم الرجل حزنه ويتجلد فيؤثر هذا الكظم فى أعصابه حتى تبيض عيناه حزنًا وكمدًا[1].

* ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ أى: من كثرة البكاء ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ أى مكظوم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف.

فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق؛ ﴿قَالُوا﴾ له على وجه الرحمة له والرأفة به والحرص عليه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.

يقولون: لا تزال تتذكره حتى ينحل جسدك وتضعف قوتك فلو رفقت بنفسك كان أولى بك. ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يقول لبنيه لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه إنما أشكوه إلى الله عز وجل وأعلم أن الله سيجعل لى مما أنا فيه فرجًا ومخرجًا وأعلم أن رؤيا يوسف لا بد أن تقع ولا بد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى ولهذا قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال لهم محرضًا على تطلب يوسف وأخيه، وأن يبحثوا عن أمرهما: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ أى: لا تيأسوا من الفرج بعد الشدة، فإنه لا ييأس من روح الله وفرجه، وما يقدره من المخرج فى المضايق، إلا القوم الكافرون[2].

فأما المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله، الندية أرواحهم بروْحه، الشاعرون بنفحاته المحيية الرخية، فإنهم لا ييأسون من روْح الله ولو أحاط بهم الكرب، واشتد بهم الضيق. وإن المؤمن لفى روح من ظلال إيمانه، وفى

---

(١) الظلال (٤/ ٢٠٢٥).

(٢) قصص الأنبياء (ص: ٢٩٤، ٢٩٥).

أنس من صلته بربه، وفى طمـأنينة من ثقته بمولاه، وهو فى مضـايق الشدة ومخانق الكروب[١]. .

• الدروس المستفادة من الآيات[٢]:

(١) جواز البكاء والتأسف عند المصيبة.

قال القاسمى:

«دلت الآية على جواز التأسف والبكاء عند المصيبة.

قال الزمخشرى:

فإن قلت: كيف جاز لنبى الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ؟

قلت: الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن، ولذلك حمد صبره وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن.

وقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال: **«إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»**[٣].

وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة، ولطم الصدور والوجوه، وتمزيق الثياب.

وعن الحسن أنه بكى على ولد أو غيره؛ فقيل له فى ذلك؟ فقال: ما رأيت الله جعل الحزن عارًا على يعقوب[٤].

(٢) بيان أن المصائب تُذكر ببعضها:

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

قال ابن الجوزى:

قوله تعالى: **﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾** أى: أعرض عن ولده أن يطيل معهم

---

(١) الظلال (٤/ ٢٠٢٦).

(٢) بتصرف من «إتحاف الإلف».

(٣) صحيح: رواه البخارى (١٣٠٣) كتاب الجنائز.

(٤) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٦٧).

الخطب، وانفرد بحزنه، وهيّج عليه ذِكر يوسف ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قال ابن عباس: أى: يا طول حزنى على يوسف[1].

* **قال الرازى:**

«واعلم أن يعقوب لما ضاق صدره بسبب الكلام الذى سمعه من أبنائه عظم أسفه على يوسف - عليه السلام -، وإنما عظم حزنه على مفارقة يوسف عند هذه الواقعة لوجوه:

* الحزن الجديد يقوى الحزن القديم الكامن. والقرح إذ وقع على القرح كان أوجع.

* **قال العلمى:**

«كان يعقوب يرى أن يوسف هو ثمرة حياته، ومرجع آماله، وزهرة أعماله، وتعزيته فى شيخوخته، ووارث علمه، ومجدد مجده، وأنه هو الذى تمثلت فيه ملامحه، وتوفرت فيه خلائق أبيه وغرائزه؛ ولذلك لم ينسه فعندما سمع نبأ بنيامين؛ تذكر ولده يوسف؛ فتولى عن أولاده، وخلا بنفسه، فصارت الهواجس تتقاذفه، والأفكار تخنقه، وقد جرت عادته أن يتعزى عن يوسف ببنيامين؛ ولكن اليوم لم يجد ما يتعزى به عنه، فاندفع إلى ذكراه، ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، فقد كان تعزيتى عن كل شىء، وكان زينة أولادى، وبيت قصيدهم، فصعّد الزفرات، وأسال العَبرات حيث طفحت عواطفه عن طريق العينين فانسكب دمعهما قطرات يسابق بعضها بعضًا؛ وبالنتيجة ابيضت عيناه من الحزن الصامت، ولكن بدون أن يجنى ذلك البياض على نظره، وأشد الحزن ما يُبكى الرجال، وكان حينما يبكى لا يدرى، أيبكى يوسف.. أم يبكى بنيامين.. أم يبكى روبيل... أم يبكى شخصه الذى أصيب بهذه المصائب... أم يبكى تشويش حال أسرته

---

(١) «زاد المسير» (٤/٢٦٩).

وتشتتها. . أم سوء سمعة بنيامين واسترقاقه في مصر. . إلى آخر الأحوال المحزنة الأليمة التي صُبت فوق رأسه - عليه الصلاة والسلام - ؟!

(٣) ما أُعطيت أمة من الأمم الاسترجاع ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[١] غير هذه الأمة، ولو كان أُعطيها أحد قبلكم لأعطيها يعقوب حين قال: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[٢].

قال السمرقندي:

«وقال سعيد بن جبير: ما أُعطيت أمة من الأمم ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ غير هذه الأمة، ولو كان أوتيها أحد قبلكم لأوتيها يعقوب حين قال: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾»[٣].

* * *

س: قوله: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ظاهره الشكوى، فأين الصبر؟

ج: أجاب عن ذلك ابن الجوزي في «زاد المسير» فقال:

﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ فإن قيل: هذا لفظ الشكوى، فأين الصبر؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه شكا إلى الله تعالى، لا منهُ.

والثاني: أنه أراد به الدعاء، فالمعنى: يا رب ارحم أسفي على يوسف. وذكر ابن الأنباري عن بعض اللغويين أنه قال: نداء يعقوب الأسف في اللفظ من المجاز الذي يُعنى به غير المظهر في اللفظ وتلخيصه: يا إلهي ارحم أسفي، أو أنت راءٍ أسفي، أو هذا أسفي، فنادى الأسف في اللفظ، والمنادى في المعنى سواه، كما قال: ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾[٤] والمعنى: يا هؤلاء

(١) سورة البقرة: الآية: (١٥٦).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٣١٤)، و«دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٥٥).

(٣) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٧٣)، وانظر «فتح القدير» (٣/ ٤٨).

(٤) سورة الأنعام: الآية: (٣١).

تنبهوا على حسرتنا، قال: والحزن ونفور النفس من المكروه والبلاء لا عيب فيه ولا مأثم إذا لم ينطق اللسان بكلام مؤثِّم ولم يشكُ إلا إلى ربه فلما كان قوله: ﴿يَا أَسَفَىٰ﴾ شكوى إلى ربه، كان غير ملوم [١].

(٤) شدة الألم على قلب يعقوب (عليه السلام) بغياب بنيامين فقد كان يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف (عليه السلام).

قال الرازي: «إن يوسف وأخاه كانا من أم واحدة، وربما كانت المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل؛ فكان يعقوب - عليه السلام - يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف، فلما وقع ما وقع، زال ما يوجب السلوة؛ فعظم الألم والوجد» [٢].

(٥) شكوى المؤمن همه وغمه إلى الله من أسباب الفرج.

قال ابن كثير:

«وقوله: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ أي: من كثرة البكاء ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ أي: مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف؛ فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق؛ ﴿قَالُوا﴾ له على وجه الرحمة له والرأفة به والحرص عليه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يقولون: لا تزال تتذكره حتى تنحل جسدك وتضعف قوتك فلو رفقت بنفسك كان أولى بك ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يقول لبنيه: لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه إنما أشكو إلى الله عز وجل وأعلم أن الله سيجعل لي مما أنا فيه فرجًا ومخرجًا وأعلم أن رؤيا يوسف لا بد أن تقع ولا بد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى ولهذا قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ثم قال لهم محرضًا على تطلب يوسف وأخيه وأن يبحثوا عن أمرهما: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا

(١) التسهيل (ص: ٢٥١).

(٢) «تفسير الرازي» (١٨/ ١٩٣).

من يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ ؛ أى: لا تيأسوا من الفرج بعد الشدة؛ ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ وفرجه وما يقدره من المخرج فى المضايق ﴿إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[1].

(٦) بيان أن شدة الحزن تعرض صاحبها للحرض أو الموت[2].

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.

قال البغوى:

«﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾» قال ابن عباس: دفنًا، وقال مجاهد: الحرض ما دون الموت؛ يعنى: قريبًا من الموت، وقال ابن إسحاق: فاسدًا حتى تكون دنف الجسم مخبول العقل، وأصل الحرض: الفساد فى الجسم والعقل من الحزن والهموم أو العشق أو الهم، يقال: رجل حرض، وامرأة حرض، ورجلان حرض، ورجال ونساء حرض، كذلك يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث؛ لأنه مصدر وضع موضع الاسم؛ ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أى: من الميتين»[3].

* * *

س: لماذا حزن يعقوب عليه السلام هذا الحزن الشديد حتى ذهب هذا الحزن ببصره أو ببعض بصره؟

ج: ذكر بعض أهل العلم: أن هذا الحزن الشديد سببه أنه لا يعلم هل يوسف عليه السلام حىٌّ أو قد مات؟ وإذا كان على قيد الحياة كيف حاله مع الله؟ وما حال دينه فى الوسط الذى هو فيه من الكفار؟ هل هو مستقيم على أمر الله أم أن هناك أمرًا آخر والعياذ بالله؟

فكل هذه الأسئلة تدور بخلد يعقوب عليه السلام، ثم ما معه من العلم

---

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٢١٥).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٣١٥)، و«أيسر التفاسير» (٢/ ٦٤١).

(٣) «مختصر تفسير البغوى» (١/ ٤٥١).

برؤيا يوسف، وأنها ستتحقق بإذن الله.

هذا، ومن أهل العلم من قال: إن مجرد الحزن ليس بمحرم، وإنما المحرم ما يُفضى إلى لطم الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية.

وقد قال النبى ﷺ: «إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[١].

(٧) درس جليل من صبر يعقوب (عليه السلام) على محنته.

قال السعدى: «ومنها: هذه المحنة العظيمة التى امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب - عليه السلام -، حيث قضى بالفراق بينه وبين يوسف، هذه المدة الطويلة التى يغلب على الظن أنها تبلغ ثلاثين سنة فأكثر، من ذلك أنه بقى مدة فى بيت العزيز قبل السجن، فى الإمكان أن تكون من سبع السنين إلى العشر أو نحو ذلك، على وجه الحرص والحذر، ثم مكث بضع سنين فى السجن، والأكثر أنها سبع سنين، ثم بعد خروجه دخلت سبع السنين المخصبات، فهذه نحو إحدى وعشرين سنة، ثم دخلت السبع المجدبات، وتردد إخوة يوسف إليه مرات، والظاهر أن اللقاء كان فى آخرها، فهذه تقارب الثلاثين ونحوها؛ وهو فى هذه المدة لم يفارق الحزن قلبه، وهو دائم البكاء حتى ابيضت عيناه من الحزن، وفقد بصره وهو صابر لأمر الله، محتسب الثواب عند الله، قد وعد من نفسه الصبر، ولا شك أنه وفّى بما وعد به، ولا ينافى ذلك، قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ فإن الشكوى إلى الله لا تنافى الصبر، وإنما ينافى الصبر، الشكوى إلى المخلوق»[٢].

(٨) بيان أنه تحرم الشكوى لغير الله - عز وجل-[٣].

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال أبو حيان: «وكأنهم قالوا له ذلك على جهة تفنيد الرأى أى: لا تزال

---

(١) التسهيل (ص: ٢٥١-٢٥٢).

(٢) «فوائد مستنبطة من سورة يوسف - عليه السلام -» (ص ٥٥).

(٣) «أيسر التفاسير» (٢/٦٤١)، و«دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٥٦).

تذكر يوسف إلى حال القرب من الهلاك، أو إلى أنْ تهلك فقال هو: إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله أى: لا أشكو إلى أحد منكم، ولا غيركم.

وقال أبو عبيدة وغيره: البث أشدّ الحزن، سُمى بذلك لأنه من صعوبته لا يطيق حمله، فيبثه أى: ينشره»[1].

* * *

س: وضح المراد بقول يعقوب عليه السلام: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾؟

ج: في ذلك وجوه منها:

أولاً: أعلم من لطف الله وإحسانه وأنه يجازى الصابرين على صبرهم، والمحسنين على إحسانهم ما لا تعلمون.

ثانيًا: أعلم أن مع العسر يسرًا، وأن الفرج مع الكرب، وأن الله يجيب المضطر إذا دعاه.

ثالثًا: قد يُقال: أعلم أن رؤيا يوسف عليه السلام ستتحقق، وأن يوسف عليه السلام حىٌّ، ولكنى لا أعلم أين هو[2].

* * *

س: وضح بعض صور البلاء التى حلت بيعقوب عليه السلام.

ج: من ذلك: فقدان ولده يوسف عليه السلام، وقد كان يحبه محبة عظيمة، وبكاؤه على ذلك حتى ذهب بصره.

ومن ذلك: فقدان بنيامين.

ومن ذلك: ما شاع فى الناس من أن ابنه سرق.

ومن ذلك: اتهام أبنائه له بأنه فى ضلاله القديم.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٣١٥).

(٢) التسهيل (ص: ٢٥٢).

س: ما الحكمة من حجب علم الغيب عن الناس؟

ج: إن الله - جل جلاله - حجب علم الغيب عن الناس، ذلك لأجل رحمتهم وإسعادهم، إذ لو علم الناس الغيب؛ لنزلوا إلى الحضيض، ولكانوا أخس المخلوقين، وأتعب الخلق أجمعين، ذلك أن المرء لو اطلع على الغيب بعد عشر سنين مثلاً سيكون رئيس حكومة أو مثريًا أو طبيبًا أو أستاذًا جليلاً فى العلم - لو صار هذا لم يفكر يومًا ما فى علم السياسة، ولا فى جلب المال، ولا فى قراءة الكتب، ولا فى تحصيل العلم، ولا فى دخول المدارس العالية؛ وإذن تضيع الحكمة، وتذهب الحياة سُدًى، وتكدر معيشة كل إنسان؛ أما جهل الناس بالمستقبل؛ فهو الذى يكفل سعادة الناس وصفاء عيشهم؛ لأنهم يجدّون ويدأبون على السعى، وذلك داعٍ حثيث إلى إتقان العمل.

علم الناس بالغيب قد يسبب أضراراً كثيرة، ناهيك بما يكون من اطلاع بعض الناس على ما فى قلوب الآخرين، من حسد وبغض وكراهة، فكيف يعيش الناس فى صفاء، وهم مطلعون على ذلك الجفاء والعداء والاستياء؟ لهذا اقتضت حكمة الحكيم الرحيم أن يمنع الغيب عن الناس.

(٩) التحسس يكون برفق ولطف وبالحواس؛ كالسؤال عنه، والنظر، والبحث، والتحرى عنه؛ للتأكد والتثبت من الأخبار.

قال العلمى: «التحسس: طلب الشىء بالحاسة، وهو قريب من التجسس، وهو: تعرف الشىء بواسطة الجس، أو التحسس فى الخير ومنه الحاسوس، والتجسس فى الشر ومنه الجاسوس، وهو: الذى يطلب الكشف عن عورات الناس، وكذلك الجوس. وهو: طلب الشىء بالاستقصاء والتردد والطوف، ومنه: ﴿فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾ [1]. ويقال: التحسس:

(١) سورة الإسراء: الآية: (٥).

الاستماع لحديث القوم، والتجسس: التفتيش عن بواطن الأمور، والجاسوس: صاحب سر الشر، والناموس: صاحب سر الخير، وأحس يستعمل في إدراك الحسي والمعنوي، يقال: أحسست بالحرارة والبرودة مثلاً، وأحسست منه مكرًا، وأحسست منه بمكر، وما أحسسنا منه خبرًا، وهل تحس من فلان بخير؟»[1].

وقال أبو بكر الجزائري:

«هذا اللفظ دالٌّ على أنه تيقن حياة يوسف؛ وذلك إما بوحي إلهي، أو إلهام، أو هداية عقل؛ وإلا كيف يطلب منهم التحسس على يوسف؟ والتحسس: شدة الطلب والتعرف، وهو أعم من التجسس»[2].

(١٠) اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين؛ لأن فيه إما التكذيب بالربوبية، وإما الجهل بصفات الله - تعالى.

قال ابن عطية:

«والروح: الرحمة، ثم جعل اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين؛ إذ فيه إما التكذيب بالربوبية، وإما الجهل بصفات الله - تعالى»[3].

(١١) إن القنوط من أكبر كبائر الذنوب؛ لأن المؤمن يرجو الله حتى في الشدائد.

قال ابن الجوزي:

«﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ لأن المؤمن يرجو الله في الشدائد»[4].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١١٣، ١١٤).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٤٠).

(٣) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٧٤).

(٤) «زاد المسير» (٤/ ٢٧٦).

قال القرطبي:

«﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ دليل على أن القنوط من الكبائر وهو اليأس»[١].

وتلاقت القلوب مرة أخرى

ويدخل إخوة يوسف مصر للمرة الثالثة، وقد أضرَّت بهم المجاعة، ونفدت منهم النقود، وجاؤوا ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم يشترون بها الزاد.. يدخلون وفي حديثهم انكسار لم يُعهد في أحاديثهم من قبل، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ أي: فخرجوا راجعين إلى مصر فدخلوا على يوسف فلما دخلوا قالوا: يا أيها العزيز أصابنا وأهلنا الشدة من الجدب والقحط ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أي: وجئنا ببضاعة رديئة مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارًا.. قال ابن عباس: كانت دراهمهم رديئة لا تُقبل في ثمن الطعام[٢]، أظهروا له الذل والانكسار استرحامًا واستعطافًا ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي: أتمم لنا الكيل ولا تنقصه لرداءة بضاعتنا ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أي: بردِّ أخينا إلينا أو بالمسامحة عن رداءة البضاعة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أي: يثيب المحسنين أحسن الجزاء.

● **الدروس المستفادة من الآية**[٣]:

(١) جواز الإخبار بالبلاء من غير تسخط.

قال السعدي:

«ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد، وما هو فيه من مرض، أو فقر،

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٥٢).

(٢) الرازي (١٨/ ٢٠١).

(٣) بتصرف من «إتحاف الإلف».

أو غيرهما على غير وجه التسخط؛ لقول إخوة يوسف: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾، وأقرهم يوسف على ذلك»[١].

قال أبو بكر الجزائرى:

«جواز الشكوى إذا كان المراد بها الكشف عن الحال للإصلاح أو العلاج؛ كأن يقول المحتاج: إنى جائع أو عارٍ مثلاً، وكأن يقول المريض للطبيب: أشكو ألمًا فى بطنى أو رأسى مثلاً»[٢].

(٢) أنه يتعين على العبد إذا خاف على نفسه الضرر من جوع أو مرض أن يشكو ذلك؛ لرفعه.

قال القرطبى: «هذه المرة الثالثة من عودهم إلى مصر، وفى الكلام حذف أى: فخرجوا إلى مصر؛ فلما دخلوا على يوسف قالوا: ﴿مَسَّنَا﴾ أى: أصابنا ﴿وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾؛ أى: الجوع والحاجة، وفى هذا دليل على جواز الشكوى عند الضر؛ أى: الجوع؛ بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره أن يبدى حالته إلى من يرجو منه النفع؛ كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب؛ ليعالجه ولا يكون ذلك قدحًا فى التوكل، وهذا ما لم يكن التشكى على سبيل التسخط، . . . والصبر والتجلد فى النوائب أحسن، والتعفف عن المسألة أفضل، وأحسن الكلام فى الشكوى سؤال المولى زوال البلوى، وذلك قول يعقوب: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أى: من جميل صنعه وغريب لطفه وعائدته على عباده فأما الشكوى على غير مشك فهو السفه إلا أن يكون على وجه البث والتسلى»[٣].

---

(١) «فوائد مستنبطة من سورة يوسف - عليه السلام -» (ص ٥٩).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٤١).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٥٢).

(٣) بيان فضل الصدقة وثواب المتصدقين.

قال القاسمي:

«﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ : أتممه ووفره بهذه الدراهم المزجاة؛ كما توفره بالدراهم الجياد، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾؛ أى بردِّ أخينا، أو بالإيفاء، أو المسامحة وقبول ما لا يُعد عوضًا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾؛ أى: يثيبهم أحسن المثوبة»[1].

قال العلمى: «قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾؛ أى: يجزيهم فى الآخرة بما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ ويجزيهم فى الدنيا بالصحة والعافية، ورفع درجات الاحترام، والثناء عليهم من الناس[2].

(٤) أن الله (عز وجل) يؤيد المظلوم ولو بعد حين:

أن الله عز وجل يؤيد المظلوم ولو بعد حين ويجعله فى منزلة عالية إذا صبر واتقى فكان إخوة يوسف الذين كادوا له جاؤوا إليه اليوم متسولين. . . يقولون: مسنا وأهلنا الضر تصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين. أذلهم الله له، هؤلاء الذين ظلموه أتى بهم الله أذلاء صاغرين يقولون: تصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين.

(٥) أنه لا يجوز للعبد أن يقول: اللهم تصدق علىَّ؛ لأن الصدقة إنما تكون ممن يبتغى الثواب، وإنما يقول: اللهم تفضل علىَّ[3].

قال القرطبى:

«يكره للرجل أن يقول فى دعائه: اللهم تصدق علىَّ؛ لأن الصدقة إنما تكون ممن يبتغى الثواب والله تعالى متفضل بالثواب بجميع النعم لا رب

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٦٩).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١١٢٥، ١١٢٦).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٥٨).

غيره... وسمع الحسن رجلاً يقول: اللهم تصدق عليَّ فقال الحسن: يا هذا ! إن الله لا يتصدق إنما يتصدق من يبتغى الثواب أما سمعت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ قل: اللهم أعطنى وتفضل عليَّ»[1].

* * *

س: على فرض أن إخوة يوسف كانوا أنبياء، فكيف سألوا الصدقة بقولهم: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ ؟

ج: ابتداءً؛ فكما قد تقدَّم أن فى نبوتهم خلافًا، ثم على فرض أنهم أنبياء فلقولهم توجيهات:

أحدها: أنهم أرادوا بقولهم: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أى: لا تنقصنا من العطاء شيئًا بسبب عدم جودة دراهمنا.

الثانى: من العلماء من يرى أن الصدقة حلالٌ للأنبياء قبل نبينا محمد ﷺ .

الثالث: أن المراد: تصدَّق علينا برد أخينا إلينا.

إلا أن الطبرى رحمه الله ردَّ هذا الوجه الأخير بقوله:

هذا القول وإن كان قولاً له وجه، فليس بالقول المختار فى تأويل قوله: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾؛ لأن «الصدقة» فى متعارف العرب، إنما هى إعطاء الرجل ذا حاجةٍ بعض أملاكه ابتغاءَ ثواب الله عليه، وإن كان كلّ معروف صدقة، فتوجيه تأويل كلام الله إلى الأغلب من معناه فى كلام من نزل القرآن بلسانه أولى وأحرى. هذا والله أعلم[2].

(٦) الفرج مع الكرب.

قال السعدى:

«ومنها: أن الفرج مع الكرب؛ فإنه لما اشتد الكرب بيعقوب، وقال:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٥٥).

(٢) التسهيل (ص: ٢٥٦، ٢٥٧).

يا أسفى على يوسف، قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

وهم حين دخلوا على يوسف، وقفوا بين يديه موقف المضطر، فقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾.

فحينئذٍ لما بلغ الضر منتهاه من كل وجه، عرفهم بنفسه، فحصل بذلك البشارة الكبرى لأبويه وإخوته وأهلهم، وزال عنهم الضر والبأساء، وخلفه السرور والفرح والرخاء»[1].

(٧) خضوع البشر لحكم الغريب.

قال العلمي:

«توسلوا إليه بصوت مازجه السؤال ومسكنه التشكي؛ لأنهم لم يكونوا يعرفونه أنه أخوهم: ولو كانوا يعرفونه أنه أخوهم ما سوغوا لأنفسهم أن يخضعوا له هذا الخضوع، وذلك لما فى فطرة البشر من قلة الاحترام بين الأقرباء؛ فالإنسان إذا تُرك لفطرته، ودار أمره بين أن يذل نفسه لقريبه أو لأحد الغرباء؛ فضَّل الخضوع للغريب، ولهذا السبب ترى الشعوب التى يحكمها الفاتحون من الغرباء أسهل قيادًا، وأقرب خضوعًا لقوانين الدولة ممن يحكمهم أناس من أبناء جلدتهم، وبهذه القاعدة يستدل على كثير من غوامض التاريخ المختلف فى حقيقتها؛ كأصل الفراعنة الأولين مثلاً فالمؤرخون مختلفون فى: هل هم مصريون أو دخلاء؟ ونظرًا لما هو معلوم من استعبادهم أهل البلاد الأصليين يرجح أنهم غرباء فاتحون، للسبب الذى تقدم»[2].

---

(١) «فوائد مستنبطة من قصة يوسف - عليه السلام -» (ص ٥٧).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/١١٢٦، ١١٢٧).

وحان وقت المفاجأة الكبرى

وعندما يبلغ الأمر بهم إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار لا تبقى فى نفس يوسف قدرة على المضى فى تمثيل دور العزيز، والتخفى عنهم بحقيقة شخصيته. فقد انتهت الدروس، وحان وقت المفاجأة الكبرى التى لا تخطر لهم على بال؛ فإذا هو يترفق فى الإفضاء بالحقيقة إليهم، فيعود بهم إلى الماضى البعيد الذى يعرفونه وحدهم، ولم يطلع عليه أحد إلا الله:

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾..

ورنَّ فى آذانهم صوت لعلهم يذكرون شيئًا من نبراته. ولاحت لهم ملامح وجه لعلهم لم يلتفتوا إليها وهم يرونه فى سمت عزيز مصر وأبهته وشياته، والتمع فى نفوسهم خاطر من بعيد:

﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾.. أئنك لأنت؟! فالآن تدرك قلوبهم وجوارحهم وآذانهم ظلال يوسف الصغير فى ذلك الرجل الكبير..

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. مفاجأة! مفاجأة عجيبة. يعلنها لهم يوسف ويذكرهم فى إجمال بما فعلوه بيوسف وأخيه فى دفعة الجهالة.. ولا يزيد.. سوى أن يذكر منة الله عليه وعلى أخيه، معللاً هذه المنة بالتقوى والصبر وعدل الله فى الجزاء.

أما هم فتتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف، ويجللهم الخزى والخجل وهم يواجهونه محسنًا إليهم وقد أساؤوا.

حليمًا بهم وقد جهلوا، كريمًا معهم وقد وقفوا منه موقفًا غير كريم:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾..

اعتراف بالخطيئة، وإقرار بالذنب، وتقرير لما يرونه من إيثار الله له عليهم بالمكانة والحلم والتقوى والإحسان. يقابله يوسف بالصفح والعفو وإنهاء الموقف المخجل. شيمة الرجل الكريم. وينجح يوسف فى الابتلاء بالنعمة كما نجح من قبل فى الابتلاء بالشدة. إنه كان من المحسنين.

﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ . .

لا مؤاخذة لكم ولا تأنيب اليوم. فقد انتهى الأمر من نفسى ولم تعد له جذور. والله يتولاكم بالمغفرة وهو أرحم الراحمين. . ثم يحول الحديث إلى شأن آخر. شأن أبيه الذى ابيضت عيناه من الحزن. فهو معجل إلى تبشيره. معجل إلى لقائه. معجل إلى كشف ما علق بقلبه من حزن[١].

● **الدروس المستفادة من الآيات[٢]:**

(١) مرارة العقاب أشد من حرارة العذاب.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ .

«. . .وقول يوسف - عليه السلام - هذا الذى قاله لهم: فيه العتاب من أكثر من وجه، فكأنه قال لهم: أنهيتم كلامكم، وأكثرتم خطابكم فما كان فى حديثكم إلا ذكر ضرورتكم. . . أفلا يخطر ببالكم حديث أخيكم يوسف؟! وذلك فى باب العتاب أعظم من كل عقوبة.

ثم هذا الإفراد بذكر إخوة الأخ ليوسف دون إخوتهم: ﴿بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ . ثم وصفهم بالجهل. وفى الآية التالية عتاب آخر أحرّ وأمرّ؛ إذ قال لهم: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾؛ فكأنه قال: إنى أخٌ لمثل هذا لا مثلكم، وهل ما عاملتمونى به فعل الإخوة؟!»[٣].

* * *

(١) الظلال (٤/ ٢٠٢٧).

(٢) بتصرف من «إتحاف الإلف».

(٣) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص ٥٣١).

س: ما الذى صنعوه بأخى يوسف؟

ج: ظاهر الكتاب العزيز يفيد أنهم حسدوه كما حسدوا يوسف عليه السلام، فقد قال تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

ثم يبدو أيضًا أنهم آذوه وأهانوه، وقد قال له يوسف: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقد يدخل فى هذا أيضًا قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

* * *

س: قوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ جاهلون بماذا؟

ج: جاهلون بعاقبة ما تفعلونه بيوسف وأخيه، وجاهلون بجزاء قطع الأرحام، وأذى الوالد الشيخ الكبير، إلى غير ذلك مما فعلوه.

قال السعدى رحمه الله:

وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم، أو توبيخ لهم؛ إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغى ولا يليق منهم.

(٢) وأما بنعمة ربك فحدث.

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

إخبار يوسف الصديق - عليه السلام - عن نفسه بالتقوى والصبر من باب التحدث بنعمة الله.

وهذا مقام النبيين والصديقين إذا لم يكن على سبيل الترفع والفخر والرياء.

«وشاهد ذلك قول كعب ﷺ: «ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لى بها مشهد بدر وإن

كانت بدر أذكر في الناس منها».

اعلموا - أرشدكم الله - أن الله - سبحانه وتعالى - إذا أسبغ على عبده نعمة؛ فإنه - جل جلاله - يحب أن يرى أثرها عليه؛ لقوله ﷺ: «إذا أنعم الله - عز وجل - على عبده نعمة؛ فإنه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[1].

(٣) التمكين في الأرض ثمرة الصبر والتقوى.

﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

«نتعلم من هذه الآية الفاذة الجامعة: أن التقوى هي السبب الأقوى، وأن الصبر عواقبه الجبر، ونتعلم منها - أيضًا - أن الإنسان يجازى على تقواه في الدنيا والآخرة، حيث جعل منة الله عليه وعلى أخيه من ثواب التقوى والصبر»[2].

قال السعدي: «ومنها: فضيلة التقوى، وأن كل خير في الدنيا والآخرة؛ فمن آثار التقوى الصبر، وأن عاقبة أهلها أحسن العواقب؛ لقوله: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾»[3].

(٤) المؤمن الصادق لا يعرف الانتقام طريقًا إلى قلبه:

المؤمن الموصول قلبه بالله - تبارك وتعالى - حين يبلغ من القوة حدًا يمكنه من الانتقام ممن أساؤوا إليه لا يستسلم لوسواس نفسه، ولا يفرغ شحنة حقده، بل يكتفي بلفت نظرهم إلى فداحة ما ارتكبوه من خطإ في حقه[4].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٤/١٣٧)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (١٢٩٠).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/١١٤٨).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/٤١).

(٤) «دروس مستفادة من سورة يوسف -عليه السلام-» (ص ٥٨، ٥٩).

(٥) فوائد التصريح بكلمة: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾.

قال العلمي:

«أولاً: الإشارة إلى قولهم: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، ثم قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ فيشبه أن يكون قوله: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ من نوع التلميح لشىء آخر، تذكيرًا لإخوته بما كان سمع منهم، كأنه يقول: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ الذى كنتم قلتم عنه: كيت وكيت، ولم تتذكروه، وتذكروه بعنوان إخوتى له إلا فى موضعى الحسد والانتقاد، ولكن فى مقابلة ذلك، ها أنا ذا أذكره باسم الإخوة فى موضع الافتخار به والمباهاة، فأنا أباهى وأفاخر به، صارخًا بين الملإ: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾.

ثانيًا: لما لم يقولوا له: أإنك لأنت أخونا يوسف بل تعارفوا عليه باسمه فقط، غير مقرون بالنسبة الأخوية المشتركة بين الطرفين ﷺ أجابهم بجواب من نوعه؛ أى: أنه لم يقل: نعم، أنا أخوكم يوسف- بل قال ما معناه: أنا يوسف الذى تسمونه بهذا الاسم كأنه أجنبى عنكم، وهذا أخى الذى أنتسب إليه حيث هو لم يصدق منه ما يشم منه رائحة التباعد عن انتساب أحدنا للآخر؛ فحيث أنتم لم تذكرونى باسم الأخوة؛ فلا أعدم من أن أذكره بهذا الاسم.

ثالثًا: لعله أراد بقوله: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ الإشارة إلى أنه إذا كان يوجد لى أخ حقيقى؛ فهذا هو الأخ الحقيقى، الذى يقوم بحقوق الأخوة، ولم يمسنى بأذى مطلقًا، هذا هو أخى الذى شاركنى فى سرائى وضرائى، هذا هو أخى الذى اجتمعت نفسى ونفسه فى صعيد واحد من هموم الحياة وآلامها، كما اجتمعت نفسى ونفسه فى صعيد واحد من الغبطة والسرور:

إن أخاك الحق من كان معك

ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك
شتت فيك شمله ليجمعك

رابعًا: لعله أراد بقوله: ﴿وَهَٰذَا أَخِي﴾ إنه الأخ الذى حرصتم على التفريق بينى وبينه، وعملتم على بُعدى عنه، ها هو جالس بجانبى، ها هو لصيقى، ها هو لا يفصل بينى وبينه إلا مر النسيم، ها هو ذا تسمع أذنه سريرة شفتى، ها هو ذا يشار إليه بإشارة القريب، ها هو بين بصرى وسمعى، ضد ما كنتم سعيتم سابقًا من التفريق والتبعيد، وهذا على حد ما قيل: «أزجر المسىء بثواب المحسن»[1].

(٦) الذنوب والخطايا سبب كل بليَّة ومصيبة:

الذنوب والخطايا سبب لخلف المرء عن الولاية والكرامة، ولو كان وجيهًا ذا نسب رفيع، ومنه الحديث: «من أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبه»[2].

فالشاهد أن الذنوب والخطايا سبب كل بليَّة ومصيبة تحدث للعبد فى هذه الحياة الدنيا... وهى سبب خذلانه عند الموت... وهى سبب شقائه فى الآخرة إن لم يتب منها قبل الموت.

(٧) وجوب الاعتراف بالخطإ وطلب المغفرة:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾.

نتعلم من هذه الآية: إنه ينبغى للمسىء أن يعترف بإساءته، ويطلب المغفرة ممن أساءه، ولو أصغر منه سنًّا، كما وقع من إخوة يوسف - عليه السلام-، وحينئذٍ ينبغى للمُساء إليه أن يغفر للمسىء، كما وقع من يوسف معهم.

أقروا بذنوبهم، ورجعوا إلى صوابهم، واستقبحوا عملهم، وسخطوا على أنفسهم، وأعلنوا فظاعة ما أجروه، ونحن لا نرتاب فى أن يوسف -

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/١١٤٩، ١١٥٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

عليه السلام - قَبِل منهم هذا كله؛ لأن العبد إنما يحاسب الناس بحسب ظواهرهم، ولكن هل يُعتبر هذا القول منهم توبة نصوحًا بالنسبة لله تعالى الذى يعلم السر وأخفى، بحيث ينالون بها من الله الغفران؟

ورُب قائل يقول: إنهم أرادوا بذلك التوصل إلى استنزال عفو أخيهم عنهم، والتعرض لمغفرته لهم.

وربما يقول آخر: إن القوم ندموا على ما فرط منهم ظاهرًا وباطنًا وأخلصوا لله التوبة.

وهذا هو الأقرب؛ بدليل تسميتهم كواكب؛ لأنهم إذا لم يكونوا كواكب بعد هذه التوبة والأوبة، ففى أى وقت يكونون كذلك؟ نعم نعم، إنهم ندموا وأنابوا وأخلصوا لله التوبة(١).

(٨) إن أكرمكم عند الله أتقاكم:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾.

إنه بالطاعات ومكارم الأخلاق يكون الإيثار والأفضلية:

* **قال السعدى:**

«أى: فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك والتبعيد لك عن أبيك؛ فآثرك الله - تعالى - ومكنك مما تريده»(٢).

(٩) صلاح حال إخوة يوسف - عليه السلام-.

قال ابن عاشور:

«وفيه تعريض بأنهم قد صلح حالهم من بعد. وذلك إما بوحى من الله إن كان صار نبيئًا أو بالفراسة لأنه لما رآهم حريصين على رغبات أبيهم فى

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢٢٣).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٢٧).

طلب فداء (بنيامين) حين أُخذ فى حكم تهمة السرقة وفى طلب سراحه فى هذا الموقف مع الإلحاح فى ذلك وكان يعرف منهم معاكسة أبيهم فى شأن بنيامين علم أنهم ثابوا إلى صلاح»[١].

(١٠) ينبغى أن نغفر لمن يسىء إلينا ونحسن إليه، ونصفى له الود وأن نغض الطرف عن كل إهانة تلحق بنا.

قال القاسمى:

«قال بعضهم: إن تجاوز يوسف عن ذنب إخوته وإبقائه عليهم ومصافاته لهم تعلمنا: أن نغفر لمن يسىء إلينا، ونحسن إليه، ونصفى له الود، وأن نغضى عن كل إهانة تلحق بنا؛ فيسبغ الله - تعالى - إذ ذاك علينا نعمه وخيراته فى هذه الدنيا؛ كما أوسع على يوسف، ويورثنا السعادة الأخروية»[٢].

(١١) ربما صحت الأجسام بالعلل.

قال العلمى:

«قيل: إن كلام يوسف مع إخوته كان من قبيل المعاتبة التى هى أقل من التثريب بدرجات؛ فهى المعاتبة، ثم اللوم، ثم التقريع، ثم التوبيخ، ثم التأنيب، ثم التثريب.

قال بعض العلماء: المعاتبة احتكاك بين القلوب، تزيدها حرارة وتجاذبًا، والعتاب فاتحة حديث المحبين، وظاهر العتاب خير من باطن الحقد، وأكثر الناس لؤمًا، أقلهم لومًا، قال الناظم:

لعل عتبك محمود عواقبه

فربما صحت الأجسام بالعلل»[٣]

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/٤٧، ٤٨).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/٣٧٣).

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/١١٣١).

(١٢) لقد عفا يوسف (عليه السلام) عن إخوته عفواً يفوق الخيال.

﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

الإنسان يصيب ويخطئ، ويسرع ويبطئ، والإنسان من ماء وطين، وليس من الملائكة العليين، وإن لكل صارم نبوة، ولكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة، والكمال لله، والعصمة لأنبيائه، لا تثريب عليكم اليوم، فبعد اعترافكم بالخطإ، وإنابتكم إلى الله؛ لا يثربكم إلا كل صاحب إحساس أصم، وعواطف مائتة.

يا من عدى ثم اعتدى ثم اقترف
ثم انتهى ثم ارعوى ثم اعترف
أبشر بقول الله في آياته
إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

لا تثريب عليكم اليوم؛ إنى قد وهبتكم لأبيكم وعيالكم، وإنى مستعد لمسامحتكم ألف مرة لو قُدِّر أن يُجْنَى علىَّ ألف جناية.

لا تثريب عليكم اليوم؛ فقد مرت تلك الأيام المتعبة بخيرها وشرها، فيجب أن نُسدل الستار على حلوها ومرها، ولم يبق إلا أن نطرد أشباحها المروعة من مسرح الخيال، ونتحامى المطالعة فى ذلك التاريخ المظلم.

لا تثريب عليكم اليوم؛ فأنا لست عدو إخوتى، ولكنى عدو تقطيع الأرحام، وكما رأيتم أن من واجبكم الاعتراف بالخطإ، أرى من واجبى عدم لومكم وتأنيبكم، فلا تفتكروا فيما كان بينى وبينكم من الإحن؛ فقد جعلتها دُبر أذنى وتحت أقدامى، فلا آخذ بها عليكم اليوم؛ لأن خطيئتكم ذابت واضمحلت أمام هذا الاعتراف والندم.

لا تثريب عليكم؛ لأنكم أنتم كنتم من أهم الأسباب التى ساعدت على ارتقائى لهذا المنصب العالى وإن يكن ذلك بطريق غير مباشرة، لكن

حركتكم معى أدت إلى هذه الحادثة العظيمة ذات الأثر البعيد فى التاريخ البشرى، حادثة ارتقائى على عرش الملك.

لا تثريب عليكم اليوم؛ بل عفوت عنكم عفواً لا يخلطه تثريب، ولا يكدر صفوه تأنيب، لى ولكم رب اسمه «الغفار» واسمه «الرحمن الرحيم»[1].

* * *

س: ما وجه الختام بقوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾؟

ج: وجه ذلك: أنه سأل الله المغفرة لهم، فكأنه قال: أما أنا وقد ظلمتمونى وآذيتمونى فعفوت لكم عماً بدر منكم فى حقى، والله سبحانه وتعالى أرحم منِّى بكم، وأرحم منكم بى؛ فأرجو الله أن يرحمنا جميعًا.

(١٣) العبرة بالخواتيم:

*** قال السعدى - رحمه الله-:**

«إن العبرة فى حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى فى أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة»[2].

قال العلمى:

«العبرة بالخواتيم:

إذا تأمل الإنسان فى حوادث الدهر، وجدها سلسلة متصلة الحلقات، كل حادثة منها ولدت من أخرى، لولاها لم تولد، وبدونها لم توجد، ورأى الخير آتيًا من صلب الشر، والشر نازلاً من صلب الخير، حتى ينتهى الأمر بأنه يحكم بعدم وجود خير محض وشر محض، وبأنها أمور نسبية،

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/١١٦٨، ١١٦٩).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/٢٧).

وينبغى أن يضع نصب عينيه: أن ما يراه اليوم مصيبة، قد يضمن فى الغد سعادته، وأن ما يراه سعادة، ربما يكفل له فيما بعد شقاوته فالأمور بخواتيمها، والحوادث يحكم عليها لا بصدورها، بل بأعجازها»[1].

معجزة باهرة

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[2].

قال الطبرى: ذُكر أن يوسف لما عرَّف نفسه إخوته سألهم عن أبيهم فقالوا: ذهب بصره من الحزن فعند ذلك أعطاهم قميصه[3].

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه، وهو الذى يلى جسده، فيضعوه على عينى أبيه، فإنه يرجع بصره بعد ما كان قد ذهب، بإذن الله، وهذا من خوارق العادات، ودلائل النبوات وأكبر المعجزات.

ثم أمرهم أن يتحملوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر، إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفُرقة، على أكمل الوجوه وأعلى الأمور[4].

• الفوائد المستفادة من هذه الآية[5]:

(١) ربما يكون إرسال القميص علامة لأبيه على حياته أو لتعجيل المسرة له:

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

«وقوله: ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا ﴾ يدل على أنه أعطاهم قميصًا. فلعله

---

(١) «موسوعة تفسير سورة يوسف» (٢/ ١١٨١، ١١٨٢).

(٢) سورة يوسف : الآية: (٩٣).

(٣) الطبرى (١٣/ ٥٧).

(٤) قصص الأنبياء (ص: ٢٩٦).

(٥) بتصرف من «إتحاف الإلف».

جعل قميصه علامة لأبيه على حياته، ولعل ذلك كان مصطلحًا عليه بينهما. وكان للعائلات فى النظام القديم علامات يصطلحون عليها ويحتفظون بها؛ لتكون وسائل للتعارف بينهم عند الفتن والاغتراب؛ إذ كانت تعتريهم حوادث الفقد والفراق بالغزو والغارات وقطع الطريق. وتلك العلامات من لباس ومن كلمات يتعارفون بها وهى الشعار، ومن علامات فى البدن وشامات.

وفائدة إرساله إلى أبيه القميصَ أن يثق أبوه بحياته ووجوده فى مصر، فلا يظن الدعوة إلى قدومه مكيدة من ملك مصر، ولقصد تعجيل المسرة له.

والأظهر أنه جعل إرسال قميصه علامة على صدق إخوته فيما يبلغونه إلى أبيهم من أمر يوسف عليه السلام بجلبه فإنّ قمصان الملوك والكبراء تُنسج إليهم خصيصًا ولا توجد أمثالها عند الناس وكان الملوك يخلعونها على خاصتهم، فجعل يوسف عليه السلام إرسال قميصه علامة لأبيه على صدق إخوته أنهم جاؤوا من عند يوسف عليه السلام بخبر صدق»[١].

(٢) فيه إثبات المعجزات للأنبياء.

فإن القميص لما أُلقى على وجه يعقوب رجع بصيرًا مع أنه لو كان هناك أب أعمى فأتيت له بقميص ولده لا يحدث هذا فالله عز وجل يخرق العادة بمعجزات الأنبياء كما حصل فى هذه المعجزة المشتركة ليوسف ويعقوب عليهما السلام بإلقاء القميص على وجه يعقوب فيرتد بصيرًا.

«وأما كونه يصير بصيرًا؛ فحصل ليوسف - عليه السلام - بالوحى، فبشرهم به من ذلك الحين»[٢].

(٣) المؤمن يسعى دائمًا لإسعاد كل من حوله.

لا يأل المؤمن جهدًا فى تخفيف الآلام عن الناس، فإذا علم أن له كرامة

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٥٠، ٥١).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٥١).

عند ربه؛ كإجابة الدعاء مثلاً؛ فإنه يسعى لأن يجعل منها ما يرد به البصر إلى كفيف والعافية إلى سقيم، وما يرد إلى ذلك من معطيات السعادة ومتطلبات الحياة[1] .

(٤) الحث على صلة الأرحام.

قال: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ لقصد صلة أرحام عشيرته.

قال المفسرون: وكانت عشيرة يعقوب - عليه السلام- ستًّا وسبعين نفسًا بين رجال ونساء[2] .

قال العلمي:

«تعليقًا على قوله: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: علم يوسف - عليه السلام - أن الرجل العظيم هو من يتوخى للناس المنفعة، ويوطئ لهم أسباب السرور، ولو كانوا قد أهانوه، فلذلك طلب إلى إخوته الإتيان بأهلهم وكان هذا التوجه وهذه العناية من سيدنا يوسف في محلها وعند وقتها؛ لأنهم كانوا في فلسطين في ضيق عظيم، فكان من رحمة الله أن سخر لهم قلب يوسف وحنَّنه عليهم، حتى لو لم يعثروا على يوسف أخيهم، لكانوا في حاجة شديدة إلى يوسف آخر يعثرون عليه، لينقذهم من شدتهم ولأوائهم، ويأمرهم بالإتيان بأهلهم أجمعين، ولا يخفى ما في هذا العمل الذي تكرم به يوسف من نسيان، أو تناسي ما كانوا عملوا معه من بخلهم عليه بوجود شخصه بينهم، فهل آن لنا أن نقتدي بهذه القدوة الطيبة ونتناسى أعمال أعدائنا معنا، لا سيما إذا كانوا من أقاربنا وذوي رحمنا!

رأى يوسف أنه لا يحسن انفراده بالعيشة بمصر، متمتعًا بالنعيم الرغد، دون إخوته وسلائلهم[3] .

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف -عليه السلام-» (ص ٦٢).

(٢) «التحرير والتنوير (ص٦٢).

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١١٧٥، ١١٧٦).

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾

وأخذت العير تشق طريقها من مصر إلى أرض كنعان حيث يعقوب (عليه السلام) الذى ابتُلى ابتلاءً شديدًا فكان صابرًا على البلاء راضيًا عن رب الأرض والسماء (جل وعلا)... وبينما هو فى تلك الهموم والأحزان وإذا به فجأة قد هدأت نفسه وانشرح صدره وجفت دموعه، ودخل روح على قلبه! ما هذا الشعور الغريب، والإحساس الوافد؟ إنه الآن ليشعر بانشراح فى أعماق نفسه، وابتهاج فى قرارة وجدانه ونشوة نبتت فى حنايا ضلوعه؛ إن هذا الشعور الذى يغمره، والفيض الذى يشتمله، ليشبه ما كان فى صدر أيامه الماضية، وعهوده الذاهبة، حينما كان يخطو يوسف بين يديه، ويرى ابتسامة الحياة بين شفتيه!

أحس يعقوب (عليه السلام) بهذا، فصاح بملء قلبه وجوارحه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾[1][2].

أى: قال يعقوب لمن حضر من قرابته: إنى لأشم رائحة يوسف.

قال ابن عباس: هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف وبينهما مسيرة ثمان ليال: [3] ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أى: تسفهونى وتنسبونى إلى الخَرَف وهو ذهاب العقل وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف تقديره: لأخبرتكم أنه حى.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أى: قال حفدته ومن عنده: والله إنك لفى خطإ وذهاب عن طريق الصواب قديم، بإفراطك فى محبة يوسف، ولهجك بذكره، ورجائك للقائه... قال المفسرون: وإنما قالوا ذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ أى: فلما جاء

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٩٤).

(٢) قصص القرآن / مجموعة من العلماء (ص: ١٥٠).

(٣) القرطبى (٩/ ٢٥٩).

المبشـر بالخبر السـار... قـال مجاهد: كان البـشير أخاه يهـوذا الذى حمل قميـص الدم، فقال: أُفـرحه كما أحـزنته[١]: ﴿أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أى طرح البشير القميص على وجه يعقوب ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أى: عاد بصيرًا لما حدث له من السـرور والانتعـاش ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: قال يـعقوب لأبـنائه: ألم أخبـركم بأنى أعلم ما لا تعلمـونه من حـياة يوسف وأن الله سيرده علىَّ لتـتحقق الرؤيا؟ قال المفسـرون: ذكَّرهم بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. روى أنه سأل البشير كيف يوسف؟ فقال: هو ملك مصر، قال: ما أصنع بالملك! على أى دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة[٢].

● **الدروس المستفادة من الآيات[٣]:**

(١) حمل ريح يوسف إلى يعقوب (عليهما السلام) آية عظيمة:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾.

* **قال الفخر الرازى:**

إن الله تعالى أوصل تلك الرائحة إليه على سبيل إظهار المعجزات؛ لأن وصول الرائحة إليه من هذه المسافـة البعيدة أمر مناقض للعادة، فـيكون معجزة ولا بد من كونها مـعجزة لأحدهما والأقرب أنهـا ليعقوب - عليه السـلام - حـين أخبر عنه ونسبوه فى هذا الكلام إلى ما لا ينبغى، فظهر أن الأمر كما ذكر فكان معجزة له.

قال أهل المعانى: إن الله - تعالى - أوصل إليه ريح يوسف عليه السـلام عند انقضاء مـدة المحنة ومجىء وقت الروح والفرج من المكان البـعيد ومنع من وصول خبره إليه مع قرب إحدى البلدتين من الأخرى، وذلك يدل على أن كل سهل فهـو فى زمان المحنة صعب وكل صعب فهو فى زمـان الإقبال

---

(١) الطبرى (١٣/ ٦٣).

(٢) الرازى (١٨/ ٢٠٩).

(٣) بتصرف من «إتحاف الإلف».

سهل، ومعنى: ﴿لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أشم... وعبَّر عنه بالوجود؛ لأنه وجدان له بحاسة الشم[1].

(٢) توارث بنى إسرائيل الجفاء والغلظة والسفه والجهالة.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾.

لقد كان أولاد يعقوب -عليه السلام- غائبين عنه؛ فمن هم الذين خاطبهم يعقوب عليه السلام؟... إنهم أحفاده.

وجوابهم لجدهم النبى يعقوب - عليه السلام - يدهشك ويثير استغرابك واستهجانك؛ لأنهم لم يكونوا أقل انتقادًا لجدهم من آبائهم حيث سبقوهم فى الجفاء والغلظة والسفه والجهالة والقحة والبهت من ثلاثة وجوه:

١- الحلف باليمين الغموس، وأما آباؤهم، فإنما طعنوا طعنًا خلواً من اليمين؛ فقالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.

٢- المواجهة؛ فإن آباءهم لم يصفوا سيدنا يعقوب بهذا الوصف الشائن إلا فى غيبته، ولكن هؤلاء الأحفاد واجهوه به مواجهة، وخاطبوه به خطابًا، ولم يحفظوا منزلة الجدود وكرامتها، ولم يحترموا له عقيدة ولا مذهبًا.

٣- تسجيلهم على جدهم بأنه عاش - مع الأسف - فى ضلال مستمر معه ومنذ ولادة عمهم يوسف بالعراق إلى أن جاء فلسطين إلى أن شُرِّد منها إلى مصر إلى هذا الوقت؛ أى: أنه فى ضلاله طيلة (٤٠) سنة، ولذلك وصفوه بالقديم»[2].

(٣) بيان أنه قد يأتى الضلال بمعنى الخطإ.

قال ابن عطية:

«وقولهم: ﴿لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ يريدون فى انتكافك وتحيرك، وليس

---

(١) «تفسير الفخر الرازى» (٩/ ٢١٢).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢٣٤، ١٢٣٥، ١٢٣٦) بتصرف.

هو بالضلال الذى هو فى العرف ضد الرشاد؛ لأن ذلك من الجفاء الذى لا يسوغ لهم مواجهته به، وقد تأول بعض الناس على ذلك، ولهذا قال قتادة رحمه الله: قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبى الله عليه السلام،... وقال ابن عباس: المعنى: لفى خطئك»[1].

(٤) إنه لا ينبغى لنا أن نكافئ السفيه على سفهه بمثله، وإلا أصبحنا شركاء فى الخلة التى ننقمها منه.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾.

قال العلمى:

«وأما جدهم؛ فلما سمع ذلك من أحفاده، كبر عليه انتقادهم، وهبَّ جسمه، وتمرمر فى داخله، وتنهد تنهدًا عميقًا ولم يُجبهم بحلوة ولا مرة، كما كان أجاب أولاده قائلاً: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ بل اغتفر لهم حديثهم وخشونتهم، وتغاضى عن نغمتهم الجافة اليابسة، واستقبل جفاءهم وغلظتهم بالغض والاحتمال[2].

(٥) آية مدهشة وعجيبة من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات.

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾

قال ابن كثير:

«أمرهم بأن يذهبوا بقميصه وهو الذى يلى جسده؛ فيضعوه على عينى أبيه؛ فإنه يرجع إليه بصره بعد ما كان ذهب بإذن الله، وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات»[3].

---

(١) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٧٩).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢٣٥).

(٣) «البداية والنهاية» (٢/ ٢١٦).

س: من البشير الذى ذكره الله فقال: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾؟

ج: الله أعلم بالبشير من هو، وهل هو من إخوة يوسف أم من غيرهم، إلا أن كثيرًا من أهل العلم - كما نقل عنهم الطبرى - قالوا: هو يهوذا، وهو أخو يوسف لأبيه، قالوا: وهو الذى كان قد لطخ القميص بالدم، فأراد أن يُسعد أباه كما أحزنه[1].

(٦) غرائب خطيرة ونوادر مثيرة.

قال العلمى:

«وبعد؛ فمن غرائب التاريخ ونوادر الحوادث، أن الذين يحملون القميص هذه المرة (القميص) الحاضر الذى يشير إلى حياة يوسف، وقد نشأ منه سرور أبيهم، هم الذين كانوا حملوا (القميص) الماضى، الذى كان يشير إلى موت يوسف، وقد نشأ عنه حزن أبيهم!!»[2].

(٧) تتفاوت حظوظ الناس من العلم بحسب قربهم من الله.

تتفاوت حظوظ الناس من العلم بحسب قربهم من الله؛ فمن كان أعلم بالله؛ فهو أقرب إليه من سواه، ومن لم يكن على قرب من الله؛ لم يكن عنده من العلم ما ينفعه فى دينه ولا دنياه ولا فى آخرته[3].

* * *

(١) ولعل ذلك متلقى من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب.

(٢) «مؤغر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢٤٢).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٦٥).

توبة وندم

وهنا أحس أبناؤه بالندم على كل ما فعلوه فقالوا: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾[1]. أى: مخطئين فيما ارتكبنا مع يوسف.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى﴾ وعدهم بالاستغفار.. قال المفسرون: أخَّر ذلك إلى السَّحَر ليكون أقرب إلى الإجابة وقيل: أخَّرهم إلى يوم الجمعة ليتحرى ساعة الإجابة ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أى: الساتر للذنوب الرحيم بالعباد.

* * *

س: وضح المراد بقولهم: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾.

ج: المراد، والله أعلم: يا أبانا سل لنا ربك يعف عنا ويستر علينا ذنوبنا التى أذنبناها فيك وفى يوسف؛ فلا يعاقبنا بها يوم القيامة.

* * *

س: لماذا قالوا ﴿اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ ولم يقولوا: استغفر لنا ذنبنا... مع أنه ذنب واحد؟

ج: رُبَّ سائل يسأل: لماذا قالوا: ﴿ذُنُوبَنَا﴾ بصيغة الجمع، مع أنه ذنب واحد؟ وجوابنا عن ذلك من ثلاثة وجوه:

١- أنهم أتوا بصيغة الجمع باعتبار أفرادهم؛ لأن كل واحد من العشرة قد اقترف الذنب، فهو نظير: ركب القوم دوابهم، ولبسوا عمائمهم.

٢- لأن ذلك الذنب الواحد مريع فى الحقيقة، باعتبار أنهم خطئوا إلى الله، وإلى كل من أبيهم وأخويهم، بل وإلى أشخاصهم وضمائرهم، وشريعتى العقل والنقل.

٣- إن الذى اجترموه ليس هو ذنبًا واحدًا، بل هو ذنوب كثيرة:

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٩٧).

حسدوا أخاهم، بغضوه من غير ما جرم، ضللوا أباهم ضلالاً مبينًا، تآمروا على قتل أخيهم أو طرحه أرضًا أو إلقائه فى غيابة الجب، وأخيرًا قرروا هذه المشورة النهائية، لعبوا على أبيهم دورًا مهمًا، نصبوا أمامه الأحبولة؛ فاصطادوا فيها أخاهم من بين يديه، وقالوا له: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾، ولكن غشوه إذ وعدوا أنهم سيحفظونه، وأخلفوا وعدهم، وكانوا مصممين على خلف هذا الوعد من البدء، ألقوه فعلاً فى غيابة الجب ولم يرحموه، وبذلك قطعوا الرحم التى بينه وبينهم، بل والرحم التى بينهم وبين أبيهم، عقوا بذلك أباهم، أحزنوا بذلك بنيامين، بكوا كذبًا، قالوا: أكله الذئب كذبًا، جاؤوا على قميصه بالدم كذبًا، أقر بعضهم بعضًا على الكذب كَذبًا، إلى غير ذلك مما ظهر للمتأملين، فلهذا قالوا: ﴿اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ بصيغة الجمع، وكان أقل هذه الجمع ثمانية[1].

* * *

س: لماذا طلبوا الاستغفار من أبيهم ولم يطلبوه من أخيهم؟

ج: الجواب أنه لما كان سيدنا يعقوب من جهةٍ رجل دين، ومن جهةٍ أخرى أباهم، رأوه أهلاً لأن يسألوه الدعاء لهم، وأما سيدنا يوسف؛ فلما كان من جهة أخاهم الأصغر، ومن جهة ثانية كان فى نظرهم رجلاً مدنيًّا، وحاكمًا إداريًّا، ووزيرًا ماليًّا، ولم يعلموا - أيضًا - أنه نبى؛ لم يطلبوا منه الاستغفار، ولكن ذكروا له ما يسر الرجال المدنيين، والحكام الإداريين، من علو مراتبهم وتقدمهم على الأقران، فقالوا له: ﴿لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، ومع أنهم لم يروه - فى نظرهم - أهلاً أن يكون واسطة بينهم وبين ربهم، فقد رأى هو شخصه أهلاً لذلك؛ لأنه أعرف بنفسه منهم، فقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[2].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/١٢٤٨، ١٢٤٩).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/١٢٤٧).

س: ما هى الأسباب التى جعلت يعقوب (عليه السلام) يسوف فى الاستغفار لأولاده؟

ج: أجابهم بالتسويف والممادة لأسباب:

١- ليتعرف حالهم فى صدق التوبة وإخلاصها؛ لأنه ما من شىء يفنى فى الطبيعة، وإنما الأشياء تتبدل مظاهرها.

٢- لحينما يذهب إلى المعبد الذى كان عمله بالحجر حينما كان مسافراً من فلسطين إلى العراق.

٣- لبعد ما يجتمع بيوسف ويراه قد صفح عنهم تمامًا، وحينئذٍ يكون العدل قد استوفى حقه، لم يبق إلا حق الله - تعالى -، فلا يكون بعد مانع من استغفار الله - تعالى - لهم.

٤- أخَّر ذلك جريًا مع طبع الشيخوخة التى تتطلب التؤدة والتأنى فى سائر الأمور مطلقًا.

٥- لحين تكون فيه الإجابة أقرب؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾[1] ؛ لأن النفس تكون حينئذٍ أصفى، والقلب أفرغ من الشواغل[2].

* * *

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٧).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢٥٢-١٢٥٤) بتصرف.

اجتماع الأحباب بعد الفرقة الطويلة

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾(١).

يخبر تعالى عن ورود يعقوب (عليه السلام) على يوسف - عليه السلام- هو وبنوه وأهله فقد تحملوا عن آخرهم من بلاد كنعان إلى مصر، وخرج يوسف والملك والأمراء وأكابر الناس لتلقيهم.

وقوله تعالى: ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ أى: قال لهم بعد ما دخلوا عليه وآواهم إليه: ادخلوا مصر أى: اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين أى: مما كنتم فيه من الجهد والقحط. وقدر الله تعالى دخول يعقوب فى السبع السنين المجدبة ويقال - والله أعلم - إن الله تعالى رفع بقية السنين المجدبة عن أهل مصر ببركة قدوم يعقوب عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أى: أجلسهما معه على السرير ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أى: سجد له أبواه وإخوته الباقون. وكانوا أحد عشر رجلاً ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ أى: التى كان قصها على أبيه من قبل: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ الآية... وقد كان السجود سائغًا فى شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحُرِّم هذا فى هذه الملة، وجُعل السجود مختصًا بجناب الرب سبحانه وتعالى... وفى الحديث: «إن معاذًا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: إنى رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يُسجد لك يا رسول الله فقال: «لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت

(١) سورة يوسف : الآية: (٩٩).

المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها» والغرض: أن سجود التحية كان جائزًا فى شريعتهم، ولهذا خروا له سجدًا فعندها قال يوسف عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أى: هذا ما آل إليه الأمر، فإن التأويل يُطلق على ما يصير إليه الأمر،... وقوله: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أى: صحيحة صدقًا يذكر نعم الله عليه[1].

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ أى: أنعم الله علىَّ بإخراجى من السجن... قال المفسرون: ولم يذكر قصة الجب تكرمًا منه لئلا يُخجل إخوته ويذكرهم صنيعهم بعد أن عفا عنهم ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ أى: جاء بكم من البادية لأنهم كانوا أهل إبل وغنم ببادية فلسطين، ذكَّرهم بنعمة الله على آل يعقوب حيث نقلهم من البادية إلى الحضر واجتمع شمل الأسرة بمصر.

قال الطبرى: ذُكر أن يعقوب دخل مصر هو ومن معه من أولاده وأهاليهم وأبنائهم وهم أقل من مائة، وخرجوا منها يوم خرجوا وهم زيادة على ستمائة ألف[2] ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أى: أفسد ما بينى وبين إخوتى بالإغواء قال أبو حيان: وذكر هذا القدر من أمر إخوته لأن النعمة إذا جاءت إثر بلاء وشدة كانت أحسن موقعًا [3] ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أى: لطيف التدبير يحقق مشيئته بلطف ودقة خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أى: العليم بخلقه الحكيم فى صنعه.

ويا له من مشهد! بعد كرّ الأعوام وانقضاء الأيام. وبعد اليأس والقنوط. وبعد الألم والضيق. وبعد الامتحان والابتلاء. وبعد الشوق المضنى والحزن الكامد واللهف الظامئ الشديد.

يا له مِنْ مشهد حافل بالانفعال والخفقات والفرح والدموع!

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٩٨، ٤٩٩).

(٢) الطبرى (١٣/ ٧٣).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٣٤٩).

ويا له من مشهد ختامي موصول بمطلع القصة: ذلك في ضمير الغيب وهذا في واقع الحياة. ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه[١].

• الدروس المستفادة من الآيتين[٢]:

(١) المسلم البار بوالديه يُحسن استقبالهما:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾.

المسلم البار بأبويه يحسن استقبالهما، ويحتفي بهما عندما يقومان بزيارته، ولا ينتظر حتى يصلا إلى بيته؛ ليظهر لهما حفاوته، بل يسارع بالخروج إليهما، ولا يسمح بأي حال إلا أن يبيتا عنده؛ إكرامًا لهما وبرًّا بهما[٣].

(٢) بيان أن الأمن هو ملاك العافية، وبها لذة العيش، وأن الرفعة بها كمال النعيم في الدنيا إلى حين[٤].

قال ابن عاشور:

«والأمن: حالة اطمئنان النفس وراحة البال وانتفاء الخوف من كل ما يخاف منه، وهو يجمع جميع الأحوال الصالحة للإنسان من الصحة والرزق ونحو ذلك، ولذلك قالوا في دعوة إبراهيم - عليه السلام -: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾[٥] إنه جمع في هذه الجملة جميع ما يطلب لخير البلد»[٦].

(٣) العبد المؤمن يلتمس الأمن والأمان من الله وحده.

يلتمس العبد المؤمن من الله وحده الأمن والأمان، وإن كان قد بذل الجهد في اتخاذ الأسباب التي تشيع الأمن بين الناس، وخصوصًا إذا كان

---

(١) الظلال (٤/ ٢٠٢٩).

(٢) بتصرف من «إتحاف الإلف».

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٦٦).

(٤) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٦٦).

(٥) سورة البقرة : الآية: (١٢٦).

(٦) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٥٥).

ذلك العبد فى مركز القوة ويتمتع بالسلطان، فإنه لا يتمتع بالإحساس بالأمن إلا إذا لجأ إلى الله وطلب منه أن يسبغه عليه[١].

(٤) حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة.

قال ابن كثير:

«وهذا إخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة... فجاؤوا كلهم ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ اجتمع بهما خصوصًا وحدهما دون إخوته ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾»[٢].

(٥) الخالة بمنزلة الأم.

﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾.

«وأبواه: أحدهما يعقوب - عليه السلام- وأما الآخر؛ فالصحيح: أن أم يوسف - عليه السلام - هى (راحيل) توفيت قبل ذلك حين ولدت بنيامين، ولذلك قال جمهور المفسرين: أطلق الأبوان على الأب وزوج الأب وهى (ليئة) خالة يوسف - عليه السلام - وهى التى تولت تربيته على طريق التغليب والتنزيل»[٣].

وقد قال النبى ﷺ: «الخالة بمنزلة الأم»[٤].

* * *

س: قوله: ﴿آمِنِينَ﴾ آمنين من ماذا؟

ج: آمنين من ملك مصر الذى كان يحكم مصر آنذاك، قال بعض العلماء: كان لا يسمح لهم بدخول مصر إلا بإذنه.

وقال بعض العلماء: آمنين من الجوع والقحط.

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٦٦).

(٢) «البداية والنهاية» (٢/ ٢١٧، ٢١٨).

(٣) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٥٥).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٠٠) كتاب الصلح، ومسلم (١٧٨٣) كتاب الجهاد والسير.

(٦) وجوب التأدب مع الله فى الخطاب.

قال ابن عاشور:

«وجملة ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ تأدب مع الله كالاحتراس فى الدعاء الوارد بصيغة الأمر وهو لمجرد التيمّن، فوقوعه فى الوعد والعزم والدعاء بمنزلة وقوع التسمية فى أول الكلام وليس هو من الاستثناء الوارد النهى عنه فى الحديث: أن لا يقول اغفر لى إن شئت، فإنه لا مُكره له[1]؛ لأن ذلك فى الدعاء المخاطب به الله صراحة»[2].

(٧) وجوب إكرام الوالدين بوضعهما وإجلاسهما بمكان مرتفع أدبًا معهما.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

فمن الأدب ألا يجلس الابن فى مكان مرتفع ويترك الوالدين فى مكان منخفض بل يجب عليه أن يرفع والديه ويُجلسهما فى مكان مرتفع إكرامًا لهما.

(٨) أن الانقياد والمبالغة فى التعظيم بالانحناء قد يُعبَّر عنه بالسجود وكان عادة أهل الشام ومصر.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾.

قال محمد رشيد رضا:

«والسجود التطامن والانحناء الذى سببه الانقياد والخضوع أو المبالغة فى التعظيم، وأصله قولهم: سجد البعير إذا أخفض رأسه لراكبه عند ركوبه، وكان من عادات الناس فى تحية التعظيم فى بلاد فلسطين ومصر وغيرها»[3].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٣٩) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٧٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٥٥، ٥٦).

(٣) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٢٥٣)، وانظر «تفسير سلطان العلماء» (٢/ ١٤٠)، و«فتح القدير» (٣/ ٢٨٢).

وقال ابن عاشور:

«وكان السجود تحية الملوك وأضرابهم، ولم يكن يومئذ ممنوعًا فى الشرائع وإنما منعه الإسلام لغير الله تحقيقًا لمعنى مساواة الناس فى العبودية والمخلوقية. ولذلك فلا يُعدّ قبوله السجودَ من أبيه عقوقًا لأنه لا غضاضة عليهما منه إذ هو عادتهم»[1].

(٩) اختصار يوسف القول فى جلسة الاتهام وتبسطه فيه فى جلسة الختام.

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَاىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

«نرى يوسف - عليه السلام - قد اندفع فى خطابه الذى ألقاه بحضور أهله جميعًا كالسيل المنهمر، ورُزق نشاطًا أيما نشاط، بخلاف وقفته وهو لدى الباب بين يدى العزيز، حينما قالت زليخا: ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فإننا رأيناه فى ذلك الموقف قد اختصر القول اختصارًا؛ إذ قال: ﴿ هِىَ رَاوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ وسكت، فأين ذلك الانقباض والاختصار فى القول، من هذا التبسط والاندفاع فيه؟ فهو قد أنشأ هنا خطابًا أطنب فيه أى إطناب.

ولعل السر فى هذا الإطناب هو سروره وفرحه بأبيه وذويه، والسر فى اختصاره فيما سبق، حصره وانقباضه؛ لكونه كان عبدًا خادمًا.

وأيضًا أين مقامه وهو عبد خادم من مقامه وهو سيد مخدوم؟!

وأين مقامه وهو حاكم من مقامه وهو محكوم؟

وأين مقامه وهو يتكلم بين يدى أهله، من مقامه وهو يتكلم بين خصومه وعدويه؟

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٥٦).

وأخيراً: أين مقامه وهو صبى يافع، من مقامه وهو رجل كهل»[١].

(١٠) قد يتأخر تأويل الرؤيا عشرات السنين إذ تأخرت رؤيا يوسف أربعين سنة.

فلا يُشترط أن يرى المؤمن الرؤيا فتتحقق فى التو واللحظة بل قد يتأخر تأويل تلك الرؤيا عشرات السنين.

(١١) أن الانتقال من البادية إلى المدينة نعمة كبيرة:

بيان أن الانتقال من البادية إلى المدينة نعمة؛ وذلك لما يلحق أهل البادية من الجفاء والبعد عن موارد العلوم وعن رفاهية المدينة.

وفى الحديث: «من بدا جفا»[٢]؛ أى: مَن حَلَّ البادية؛ ففى هذا دليل على حسن النقلة من البوادى إلى المدن[٣].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ يعم جمع الشمل والتنقل من الشقاوة إلى النعمة بسكن الحاضرة، وكان منزل يعقوب - عليه السلام - بأطراف الشام فى بادية فلسطين، وكان رب إبل وغنم وبادية»[٤].

(١٢) أنه يُكره التذكير بالإساءة بعد العفو عن صاحبها.

قال القرطبى: «قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم يقل: من الجب استعمالاً للكرم؛ لئلا يُذكر إخوته صنيعهم بعد عفوه عنهم بقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾[٥].

قال أبو حيان: «ذكر إخراجه من السجن وعدل عن إخراجه من الجب

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/١٢٦٧، ١٢٦٨).

(٢) حسن: أخرجه أحمد (٤/٢٩٧). قال الهيثمى (٨/١٠٤): رجاله رجال الصحيح غير الحسن بن الحكم النخعى وهو ثقة، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (١٢٧٢).

(٣) «محاسن التأويل» (٦/٢٨٢).

(٤) «المحرر الوجيز» (٣/٢٨٢).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/٢٦٧).

صفحًا عن ذكر ما تعلق بقول إخوته، وتناسيًا لما جرى منهم إذ قال: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وتنبيهًا على طهارة نفسه، وبراءتها مما نُسب إليه من المراودة. وعلى ما تنقل إليه من الرياسة فى الدنيا بعد خروجه من السجن بخلاف ما تنقل إليه بالخروج من الجب، إلى أن بيع مع العبيد[(١)].

(١٣) بيان نسبة النزغ إلى الشيطان وأسنده إليه؛ لأنه بوسوسته وإلقائه.

قال أبو حيان: «وأسند النزغ إلى الشيطان لأنه الموسوس كما قال: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا﴾[(٢)] وذكر هذا القدر من أمر إخوته؛ لأنّ النعمة إذا جاءت إثر شدة وبلاء كانت أحسن موقعًا»[(٣)].

قال القاسمى:

«﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ﴾ أى: أفسد ﴿الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أى: الحسد، وأسنده إلى الشيطان؛ لأنه بوسوسته وإلقائه، وفيه تفادٍ عن تثريبهم أيضًا؛ وإنما ذكره؛ لأن النعمة بعد البلاء أحسن موقعًا»[(٤)].

* * *

س: لماذا نسب يوسف الإساءة التى كانت من إخوته إلى الشيطان؟

ج: ذلك والله أعلم لأمور، منها ما يلى:

أولاً: أن الشيطان هو الذى نزغ.

ثانيًا: لأن يوسف قد وعد إخوته أنه لا يُثرب عليهم ولا يُعيرهم، ولا يُوبخهم.

ثالثًا: أن يوسف قال ذلك تلطيفًا للأمر ومبالغة فى إذهاب الهمّ من نفس إخوته.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٣٢٨).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٣٦).

(٣) «البحر المحيط» (٦ / ٣٢٨).

(٤) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٨١).

س: وضح معنى قول يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾.

ج: قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾، يقول: إن ربي ذو لطف وصنع لما يشاء، ومن لطفه وصنعه أنه أخرجني من السجن، وجاء بأهلي من البَدْو بعد الذى كان بيني وبينهم من بُعد الدار، وبعد ما كنت فيه من العُبُودية والرِّق والإسار.

وأورد أثراً بإسناد حسن عن قتادة قال:

قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾، لطف بيوسف وصنع له حتى أخرجه من السجن، وجاء بأهله من البدو، ونزع من قلبه نزغ الشيطان، وتحريشه على إخوته.

(١٤) إنما الأعمال بالخواتيم:

«وبنهاية القصة يتكشف رمز الحلم؛ فلقد أصبح يوسف متحكمًا فى خزائن مصر ولقاء الأب بالابن، ولَمَّ شمل الأسرة، وكلا البداية والنهاية تسير فى خطوط متوازية؛ مما يدل على بناء محكم وتصميم متقن وفن رائع سبق زمانه وما يزال، تنزيل من حكيم حميد»[1].

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾

وبعد تلك الرحلة الطويلة المليئة بالجراح والأفراح وإذا بيوسف (عليه السلام) يدعو بهذا الدعاء المؤثر ويقول: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[2].

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص ٣٩).

(٢) سورة يوسف: الآية: (١٠١).

* قال ابن كثير - رحمه الله -: دعا به ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته وما مَنَّ الله به عليه من النبوة والملك سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة وأن يتوفاه مسلمًا حين يتوفاه وأن يُلحقه بالصالحين وهم إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[1].

* وقال صاحب الظلال - رحمه الله -:

وقبل أن يُسدل الستار على المشهد الأخير المثير، نشهد يوسف ينزع نفسه من اللقاء والعناق والفرحة والابتهاج والجاه والسلطان، والرغد والأمان.

ليتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر! كل دعوته وهو في أبهة السلطان، وفي فرحة تحقيق الأحلام أن يتوفاه ربه مسلمًا وأن يلحقه بالصالحين:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ . .

* ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ . .

آتيتني منه سلطانه ومكانه وجاهه وماله. فذلك من نعمة الدنيا.

﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ . .

بإدراك مآلاتها وتعبير رؤاها. فذلك من نعمة العلم.

نعمتك يا ربي أذكرها وأعددها . .

﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ . .

بكلمتك خلقتها وبيدك أمرها، ولك القدرة عليها وعلى أهلها . .

﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ . .

فأنت الناصر والمعين.

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٠٠).

ربّ تلك نعمتك. وهذه قدرتك.

رب إنى لا أسألك سلطانًا ولا صحة ولا مالاً. ربّ إنى أسألك ما هو أبقى وأغنى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾..

وهكذا يتوارى الجاه والسلطان، وتتوارى فرحة اللقاء واجتماع الأهل ولمة الإخوان. ويبدو المشهد الأخير مشهد عبد فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه، وأن يلحقه بالصالحين بين يديه.

إنه النجاح المطلق فى الامتحان الأخير [1]..

• الدروس المستفادة من هذه الآية [2]:

(١) أهل الشكر فى مزيد:

قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [3].

وها هو يوسف (عليه السلام) يتوجه بالشكر إلى الله (جل وعلا) على ما أنعم به عليه من النعم الجزيلة التى لا تُعد ولا تُحصى فيقول:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

«أعقب ذكر نعمة الله عليه بتوجهه إلى مناجاة ربه بالاعتراف بأعظم نعم الدنيا والنعمة العظمى فى الآخرة، فذكر ثلاث نعم: اثنتان دنيويتان؛ وهما: نعمة الولاية على الأرض، ونعمة العلم. والثالثة أخروية وهى: نعمة الدين الحق المعبر عنه بالإسلام.

(٢) أن الملك يدخل فيه النبوة: لأنه يشمل ملك الأرواح، وملك الأجسام، وملك الأرواح هو: النبوة؛ لأن سلطان الأنبياء على القلوب والأرواح سلطان كبير.

---

(١) الظلال (٤/ ٢٠٢٩، ٢٠٣٠).

(٢) بتصرف من «إتحاف الإلف».

(٣) سورة إبراهيم : الآية: (٧).

قال العلمى: «إن الملك يدخل فيه النبوة: لأنه يشمل ملك الأرواح وملك الأجسام، وملك الأرواح هو: النبوة؛ لأن سلطان الأنبياء على القلوب والأرواح سلطان كبير، يضاهى سلطان حكام الدنيا على الأجساد والظواهر، بل يفوقه بكثير؛ لأن من كان له سلطان على الروح، كان له شيء من السلطان على الجسد بالتبع، وهؤلاء هم الأنبياء، وأما الملوك الزمنيون؛ فإن سلطانهم على الجسد، لا يستتبع السلطان على القلب»[1].

(٣) ثناء العبد على ربه عند النقصان والافتقار.

قال ابن كثير:

«ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت وشمله قد اجتمع عرف أن هذه الدار لا يقر لها قرار وأن كل شيء فيها ومن عليها فان.

وما بعد التمام إلا النقصان فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله واعترف له بعظيم إحسانه وفضله.

وسأل منه - وهو خير المسؤولين - أن يتوفاه أى: حين يتوفاه على الإسلام.

وأن يلحقه بعباده الصالحين.

وهكذا كما يقال فى الدعاء «اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين» أى: حين تتوفانا.

ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام كما سأل النبى ﷺ عند احتضاره أن يرفع روحه إلى الملإ الأعلى والرفقاء الصالحين من النبيين والمرسلين كما قال: «اللهم فى الرفيق الأعلى»[2] ثلاثًا ثم قضى.

قال ابن القيم رحمه الله[3]:

قول الله تعالى ذكره: ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢٩٢).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٤٣٧) كتاب المغازى.

(٣) التفسير القيم.

بِالصَّالِحِينَ﴾: جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غيره سبحانه، وكون الوفاة على الإسلام أجلُّ غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء.

(٤) لا بد بعد تمام النعمة من الدعاء وسؤال الله الثبات على الإسلام حتى الممات.

قال الزمخشري:

«﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ طلب للوفاة على حال الإسلام، ولأن يختم له بالخير والحسن، كما قال يعقوب لولده: ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[(١)].

قال السعدي: «أي: أدِم عليَّ الإسلام وثبتني حتى تتوفاني عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار»[(٢)].

* وتأملوا معي هذا الموقف المهيب لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز (رحمه الله):

* قال رجاء بن حيوة (وزير عمر بن عبد العزيز المخلص): كنت مع عمر بن عبد العزيز لما كان واليًا على المدينة، فأرسلني لأشتري له ثوبًا، فاشتريت له ثوبًا بخمسمائة درهم، فلما نظر فيه قال: هو جيد، لولا أنه رخيص الثمن!

فلما صار خليفة للمسلمين، بعثني لأشترى له ثوبًا، فاشتريته له بخمسة دراهم! فلما نظر فيه قال: هو جيد، لولا أنه غالي الثمن!

قال رجاء: فلما سمعت كلامه بكيت.

فقال لي عمر: ما يبكيك يا رجاء؟ قلت: تذكرت ثوبك قبل سنوات،

---

(١) سورة البقرة: الآية: (١٣٢).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٣٠)، و«فوائد مستنبطة من قصة يوسف» (ص ٦١).

وما قلت عنه... فكشف عمر لرجاء بن حيوة سر هذا الموقف. وقال: يا رجاء إن لى نفسًا تواقة، وما حققت شيئًا إلا تاقت لما هو أعلى منه... تاقت نفسى إلى الزواج من ابنة عمى فاطمة بنت عبد الملك فتزوجتها، ثم تاقت نفسى إلى الإمارة فوليتها، وتاقت نفسى إلى الخلافة فنلتها. والآن يا رجاء تاقت نفسى إلى الجنة، فأرجو أن أكون من أهلها.

* إنه عمر الذى مات وهو يردد قول الله (جل وعلا): ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١).

(٥) دين الأنبياء واحد وهو: الإسلام، وهو الدين الذى ارتضاه الله - تعالى - لجميع خلقه.

فالإسلام هو الدين الحق وهو النعمة العظمى التى جاء بها كل الأنبياء ورضيها الله لكل الناس فقال (جل وعلا): ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾(٦).

---

(١) سورة القصص : الآية: (٨٣).
(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٩).
(٣) سورة البقرة : الآية: (١٣٢).
(٤) سورة المائدة : الآية: (٣).
(٥) سورة آل عمران : الآية: (٨٥).
(٦) سورة آل عمران : الآية: (٨٣).

* ومن أجل ذلك عاش كل الأنبياء والمرسلين على الإسلام وماتوا على الإسلام... قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[3].

وقال تعالى حاكيًا عن نوح عليه السلام أنه قال: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[4].

(٦) الأنبياء يسألون الله أحسن الدعاء، وطلب حسن الخاتمة بالإسلام من أجل ما يسأل الله به؛ فهم قد سنُّوا هذه السنة الحسنة.

قال ابن القيم الجوزية: «جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غيره سبحانه، وكون الوفاة على الإسلام أجلٌّ غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء»[5].

---

(١) سورة البقرة : الآية: (١٣٠-١٣٣).

(٢) سورة آل عمران : الآية: (٦٧).

(٣) سورة النمل : الآية: (٣٠-٣١).

(٤) سورة يونس : الآية: (٧٢).

(٥) «بدائع التفسير» (٢/٤٧٦).

(٧) مشروعية سؤال الموت؛ إن لم يكن لضرر أو ملل من العبادة أو رغبة في الراحة.

قال ﷺ: «لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لضُرٍّ نَزَلَ به فإنْ كانَ لا بُدَّ مُتَمَنِّيًا فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي وتَوَفَّنِي إذَا كانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لي»(١).

وقال ﷺ: «لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ، وَلا يَدْعُ به مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إنَّهُ إذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ انْقَطَعَ عَمَلُهُ وإنَّهُ لا يَزِيدُ المُؤْمِنَ عُمْرُهُ إلا خَيْرًا»(٢).

وقال ﷺ: «لا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ المَوْتَ إمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ وإمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ»(٣).

وصية يوسف (عليه السلام) عند الموت

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه **قال:** أتى النبي ﷺ أعرابيًا؛ فأكرمه، فقال رسول الله ﷺ: «سَلْ حاجتك»، فقال: ناقة برحلها وأعنزًا يحلبها أهلي، فقال رسول الله ﷺ: **«أعجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل؟»** فقال أصحابه: يا رسول الله! وما عجوز بني إسرائيل؟ قال: **«إن موسى لما سار ببني إسرائيل من مصر ضلوا الطريق فقال: ما هذا؟ فقال علماؤهم: نحن نحدثك؛ إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقًا من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا. قال: فمن يعلم موضع قبره؟ قالوا: ما ندري أين قبر يوسف؛ إلا عجوز من بني إسرائيل؛ فبعث إليها؛ فأتته، فقال: دليني على قبر يوسف، قالت: لا والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي، قال: ما حكمك؟ قالت: أكون معك في الجنة، فكره أن يعطيها ذلك، فأوحى الله إليه: أن**

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣٥١) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٨٠) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٨٢) كتاب الدعوات.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٥٦٧٣) كتاب المرضى.

أعطها حكمها، فانطلقت بهم إلى بحيرة موضع مستنقع ماء، فقالت: انضبوا هذا الماء فأنضبوا. قالت: احفروا هنا فلما حفروا واستخرجوا عظام يوسف فلما أقلوها إلى الأرض إذا الطريق مثل ضوء النهار»[١].

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾

قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾[٢].

* ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ أي: ذلك الذي أخبرناك عنه يا محمد من أمر يوسف وقصته، من الأخبار المغيبة التي لم تكن تعلمها قبل الوحي، وإنما نُعلمك نحن بها على أبلغ وجه وأدق تصوير، ليظهر صدقك في دعوى الرسالة ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ أي: وما كنتَ حاضرًا مع إخوة يوسف حين تآمروا على أخيهم وأجمعوا أمرهم على إلقائه في الجُبِّ وهم يحتالون ويمكرون به وبأبيه ليرسله معهم، فإنك يا محمد لم تشاهدهم حتى تقف على حقيقة القصة وإنما جاءتك بوحي من العليم الخبير[٣].

* * *

س: لماذا أوحى الله إلى نبيه محمد ﷺ سورة يوسف؟

ج: لذلك أسباب، منها:

أولاً: إجابة على سؤال السائلين عن هذه القصة، كما قال تعالى: **﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾**.

---

(١) صحيح: اخرجه أبو يعلى (١٣/ ٢٣٦)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (٣١٣).

(٢) سورة يوسف: الآية: (١٠٢).

(٣) صفوة التفاسير (٢/ ٦٩).

ثانيًا: لتثبيت النبى ﷺ، وتصبيره وتسليته كما قال تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾(١).

ثالثًا: ليعتبر بها أولو الألباب كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾.

قال الطبرى رحمه الله:

«يقول تعالى ذكره: هذا الخبر الذى أخبرتك به من خبر يوسف ووالده يعقوب وإخوته وسائر ما فى هذه السورة ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾، يقول: من أخبار الغيب الذى لم تشاهده، ولم تعاينه، ولكنا نوحيه إليك ونعرّفكه، لنثبِّت به فؤادك، ونشجع به قلبك، وتصبر على ما نالك من الأذى من قومك فى ذات الله، وتعلم أن من قبلك من رسل الله إذ صبروا على ما نالهم فيه، وأخذوا بالعفو، وأمروا بالعُرف، وأعرضوا عن الجاهلين فازوا بالظفر، وأُيِّدوا بالنصر، ومُكِّنوا فى البلاد، وغلبوا من قَصَدوا من أعدائهم وأعداء دين الله»(٢).

• الدروس المستفادة من الآية(٣):

(١) تقرير النبوة المحمدية لرسولنا ﷺ بأصدق برهان، وأعظم حجة(٤).

قال ابن الجوزى:

«وفى هذا احتجاج على صحة نبوَّة نبينا ﷺ؛ لأنه لم يشاهد تلك القصة، ولا كان يقرأ الكتاب، وقد أخبر عنها بهذا الكلام المعجز، فدلَّ على أنه أُخبر بوحى»(٥).

---

(١) سورة هود: الآية: (١٢٠)

(٢) التسهيل (ص: ٢٧٨).

(٣) بتصرف من «إتحاف الإلف».

(٤) «أيسر التفاسير» (٢/ ٥٦١).

(٥) «زاد المسير» (٤/ ٢٩٣).

* ولقد جعل الله -عز وجل- هذه الآية علامة على صحة رسالة النبى ﷺ حتى لا يبقى مجال لأن يرتاب فيها أحد من طلاب الحق المخلصين، وهى: إتيان رجل أمى عاش بين الأميين إلى ما بعد سن الكهولة بكتاب؛ فيه أعلى العلوم الإلهية والأدبية والاجتماعية والشرعية، وأخبار الأمم والأنبياء السابقين، الذى لم يقرأ هو ولا قومه عنهم شيئًا وغير ذلك من أخبار الغيب التى ظهر صدقها فى زمنه وبعد زمنه، ببلاغة عجز البلغاء عن مثلها، وأسلوب أشد إعجازًا»[1].

(٢) أن الذى أُنزل إلى الرسول ﷺ من الكتاب هو الحق المبين؛ لأن إخباره صدق، وأوامره ونواهيه عدل.

قال السعدى:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

لما قصَّ الله هذه القصة على محمد ﷺ قال الله له: ﴿ذَلِكَ﴾ النبأ الذى أخبرناك به **﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾** ولولا إيحاؤنا إليك لما وصل إليك هذا الخبر الجليل، **﴿وَمَا كُنتَ﴾** حاضرًا **﴿لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾** أى: إخوة يوسف **﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾** به حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه، فى حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى، ولا يمكن أحدٌ أن يصل إلى علمها، إلا بتعليم الله له إياها.

كما قال تعالى لما قصَّ قصة موسى وما جرى له، ذكر الحال التى لا سبيل للخلق إلى علمها إلا بوحيه فهذا أدل دليل على أن ما جاء به رسول الله حقًّا»[2].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٣١٤).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٣٠).

(٣) المسلم الحق لا يلجأ إلى أدعياء العلم: كالمشعوذين والكهان والمنجمين والمتنبئين وأحزابهم؛ ليستقى منهم علمًا أو يستفيد منهم معرفة[١].

(٤) هذه القصة لم تكن متداولة بين القوم الذين نشأ فيهم رسولنا محمد ﷺ.

قال أبو حيان:

«﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أى: عند بنى يعقوب حين أجمعوا أمرهم على أن يجعلوه فى الجب، ولا حين ألقوه فيه، ولا حين التقطته السيارة، ولا حين بيع. وهم يمكرون أى: يبغون الغوائل ليوسف، ويتشاورون فيما يفعلون به. أو يمكرون بيعقوب حين أتوا بالقميص ملطخًا بالدم، وفى هذا تصريح لقريش بصدق رسول الله ﷺ»[٢].

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ هذه تسلية للنبى ﷺ أى: ليس أكثر الخلق ولو حرصت على إيمانهم وبالغتَ فى إرشادهم بمصدقين لك لتصميمهم على الكفر.

وهذا كقول الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[٣].

● **الدروس المستفادة من هذه الآية[٤]:**

(١) بيان حكم الله فى الناس: وهو أن أكثرهم لا يؤمنون؛ فلا يحزن الداعية ولا يكرب[٥].

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٧٠).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٣٣٠، ٣٣١).

(٣) سورة الأنعام: الآية: (١١٧).

(٤) بتصرف من «إتحاف الإلف».

(٥) «أيسر التفاسير» (٢ / ٦٥١).

قال العلمي: المؤمنون أقل من الكافرين:

مقتضى هذه الآية: أن المؤمنين أقل من الكافرين، ولذلك شواهد:

١- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] أي: لاستأصلنهم بالإغواء.

٢- قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2] كرر هذه الآية سبع مرات فيمن أرسلهم نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ؛ كما يعلم من «سورة الشعراء».

٣- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[3] الحواريون كانوا اثنى عشر فقط...»[4].

فهذه الآية تفيد أن طبيعة أكثرية الناس عدم الإيمان، وأن المؤمنين بالنسبة لغيرهم هم أقلية.

(٢) إن الهداية بيد الله وحده.

قال القاسمي:

«قال الرازي - ما معناه -: وجه اتصال هذه الآية بما قبلها: أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا من النبي ﷺ قص نبأ يوسف تعنتًا، فكان يظن أنهم يؤمنون إذا تلي عليهم، فلما نزلت أصروا على كفرهم... وكأنه إشارة إلى ما ذكر في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[5]»[6].

---

(١) سورة الإسراء: الآية: (٦٢).

(٢) سورة الشعراء: الآية: (٨).

(٣) سورة آل عمران: الآية: (٥٢).

(٤) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٣٢١، ١٣٢٢).

(٥) سورة القصص: الآية: (٥٦).

(٦) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٨٦).

(٣) بيان شدة حرص رسول الله ﷺ على إيمان قومه، وشفقته على أمته، وإخلاصه في دعوته.

قال العلمي:

«هذه الآية تشير إلى إخلاص النبي ﷺ في دعوته؛ إذ الغاية من الدعوة صلاح العالم، وانتظام شؤونه على منهاج السعادة، فإذا وجَّه الداعي قصده إلى هذا الغرض، بدون نظر إلى منفعة مادية، بل ولا معنوية تعود عليه؛ استقام على الطريقة، وقضى حياته في سيرة راضية، وكان كلامه مقبولاً جدًّا، وإذا انحرف عن هذا القصد، ولو قيد أنملة؛ رأيته يضطرب في حال دعوته، ويكون كالريشة تخفق بها الرياح، أينما تصرفت، وقد حكى التنزيل أن شعيبًا - عليه السلام - قد برأ نفسه ورفعها عن أن تؤم غرضًا من الدعوة سوى الإصلاح، قال: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾(١)، فتشوُّف الداعي إلى ما في أيدي القوم، وتطلعه إلى أن ينال من وراء إرشاده شيئًا من هذه الحياة؛ قادح في صدقه، وداخل بالريبة في إخلاصه»(٢).

(٤) على الداعية إلى الله أن يدعو إلى الإسلام على طريق رسول الله ﷺ، ولا ينتظر الاستجابة الفورية من الناس، بل يبذل جهده في دعوتهم إلى الحق، ويترك النتيجة لله تبارك وتعالى(٣).

قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾(٥).

---

(١) سورة هود: الآية: (٨٨).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١ / ١٣٢٤، ١٣٢٥).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٧١).

(٤) سورة آل عمران: الآية: (٢٠).

(٥) سورة الغاشية: الآيتان: (٢١، ٢٢).

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾

قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾(١) أى: ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، أى: من جعالة ولا أجرة بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحًا لخلقه ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾(٢).

أى: ما هذا القرآن إلا عظة وتذكير للعالمين، وأنت لا تطلب فى تلاوته عليهم مالاً، فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمردوا.

* ومن ثَمَّ فلا بد أن نضع نُصب أعيننا هذه الحقائق:

١- أن الأنبياء لا يأخذون من الناس أجرًا على دعوتهم وإرشادهم، وكذلك العلماء الربانيين.

٢- أن الدعوة لا ثمن لها؛ فيمتاز الأغنياء على الفقراء، ولا شرط لها؛ فيمتاز القادرون على العاجزين، إنما هى عامة شاملة لمن يريد.

٣- الدعوة ليست خاصة للمسلمين، بل هى للناس كافة وللعالمين جميعًا: إنسهم وجانهم، مؤمنهم وكافرهم.

دعوة للتأمل

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(٣).

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر فى آيات الله ودلائل توحيده، بما خلقه الله فى السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت،

(١) سورة يوسف: الآية: (١٠٤).

(٢) سورة ص: الآية: (٨٧).

(٣) سورة يوسف: الآية: (١٠٥).

وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم فى الأرض من قطع متجاورات وحدائق وجنات وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوان ونبات، وثمرات مختلفات، فى الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد الخالق الفرد الصمد[١].

﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ أى: يشاهدونها ليل نهار، ويمرون عليها بالعشى والإبكار ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أى: لا يفكرون فيها ولا يعتبرون، فلا تتعجب من إعراضهم عنك فإن إعراضهم عن هذه الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته أغرب وأعجب.

● الدروس المستفادة من الآية:

(١) بيان أنه لا عجب يا محمد إذا لم يتأملوا فى الدلائل على نبوتك؛ فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة، ثم إنهم يمرون عليها ولا يلتفتون إليها.

(٢) فضيلة التفكير فيما خلق الله فى الأرض والسماوات من كواكب زاهرات، وأفلاك دائرات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وحيوان ونبات؛ فسبحان الله المنفرد بكمال الأسماء والصفات.

(٣) العاقل هو الذى يتبصر فى الآيات الكونية المبثوثة من حوله؛ فإذا تدبرها علم أن من ورائها خالقًا قادرًا يستحق إفراده بالعبودية والشكر[٢].

* * *

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٠٢).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٧٢).

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قال ابن عباس: من إيمانهم، إذا قيل لهم: من خلق السموات؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: «الله»، وهم مشركون به.

وفى الصحيحين أن المشركين كانوا يقولون فى تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك.

وقال الحسن البصرى فى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قال: ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذاك، . . . يعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[1].

وثمَّ شرك آخر خفى لا يشعر به غالبًا فاعله، كما روى حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبى النَّجُود، عن عُرْوَة قال: دخل حذيفة على مريض، فرأى فى عضده سيرًا فقطعه -أو: انتزعه -ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

وفى الحديث: «من حلف بغير الله فقد أشرك». رواه الترمذى وحسَّنَهُ من رواية ابن عمر. وفى الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود وغيره، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الرُّقَى والتَّمائم والتِّوَلة شرْك».

وفى مسند الإمام أحمد حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تَعَلَّق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودَعَةً فلا ودع الله له».

---

(١) سورة النساء: الآية: (١٤٢).

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، ينادي مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك».

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى، عن مَعْقِل بن يَسَار قال: شهدت النبى ﷺ أو قال: حدثنى أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل». فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من دعا مع الله إلهًا آخر؟ فقال رسول الله ﷺ: «الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل». ثم قال: «ألا أدلّك على ما يُذهب عنك صَغير ذلك وكبيره؟ قل: اللهم أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك مما لا أعلم»[١].

• الدروس المستفادة من الآية:

(١) بيان حقيقة ثابتة وهى: أن غير أهل التوحيد - وإن آمنوا بالله ربًّا خالقًا رازقًا مدبرًا - أكثرهم يشركون به غيره فى بعض صفاته وعباداته[٢].

قال السمرقندى:

«قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾؛ يعنى: مقرون أن الله خالقهم، وهم مع ذلك يجعلون لله شريكًا.

وقال الضحاك: كانوا مشركين فى تلبيتهم.

وقال عكرمة: يعلمون أنه ربهم، وهم مشركون به من دونه»[٣].

(٢) أن كل من آمن بالله وكفر بمحمد ﷺ؛ فهو مشرك، وكل من آمن بتوحيد الربوبية، وأشرك شرك الألوهية؛ فهو مشرك.

قال البقاعى: «كانوا يقرون بأن الله خالقهم ورازقهم ويعبدون غيره،

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٠٢، ٥٠٣).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٥١).

(٣) «تفسير السمرقندى» (٢/ ١٧٩).

وكذا المنافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفران، وكذا أهل الكتابين يؤمنون بكتابهم ويقلدون علماءهم فى الكفر بغيره، فعلم أن إذعانهم بهذا الإيمان غير تابع لدليل، وهو محض تقليد لمن زُين له سوء علمه فرآه حسنًا، لما سبق فيه من علم الله أنه لا صلاحية له فأفسده بما شابهه به من الشرك»[١].

الشرك سبب لنزول العذاب

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[٢].

* قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله -:

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ الآية... أى: أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾[٣][٤].

﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أى: أو تأتيهم القيامة بأهوالها فجأة من حيث لا يشعرون ولا يتوقعون؟ والاستفهام إنكارى وفيه معنى التوبيخ.

* فالشرك سبب للعذاب المباغت والعقاب العاجل المفاجئ والتوحيد سبب الأمن والأمان والسعادة فى الدنيا والآخرة.

---

(١) «نظم الدرر» (٤/١٠٧).

(٢) سورة يوسف: الآية: (١٠٧).

(٣) سورة النحل: الآية: (٤٥).

(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٢/٥٠٣).

• الدروس المستفادة من الآية:

(١) بيان إمكان إتيان الغاشية فى الدنيا بغتة أو يوم القيامة.

قال أبو حيان:

«وإتيان الغاشية؛ يعنى: فى الدنيا؛ وذلك لمقابلته بقوله، أو ﴿تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ ؛ أى: يوم القيامة ﴿بَغْتَةً﴾؛ أى: فجأة فى الزمان من حيث لا يتوقع ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ تأكيد لقوله: ﴿بَغْتَةً﴾.

قال الكرمانى: لا يشعرون بإتيانها؛ أى: وهم غير مستعدين لها.

قال ابن عباس: تأخذ الصيحة على أسواقهم ومواضعهم»[١].

(٢) يحرص المؤمن على تتبع أشراط الساعة؛ ليبقى قلبه بذكر الله نابضًا، رجاؤه برحمة الله معلقًا[٢].

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٣].

يقول تعالى لرسوله ﷺ آمرًا له أن يخبر الإنس والجن، أن هذه سبيله، أى: طريقه ومسلكه وسنته، وهى الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بَصِيرة من ذلك، ويقين وبرهان، هو وكلّ من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان شرعى وعقلى.

وقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أى: وأنزه الله وأُجلّه وأعظّمه وأقدّسه، عن

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٣٣٢).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٧٧).

(٣) سورة يوسف: الآية: (١٠٨).

أن يكون له شريك أو نظير، أو عديل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة، أو وزير أو مشير، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه عن ذلك كله علوًّا كبيرًا [١].

• **الدروس المستفادة من الآية:**

(١) بيان أن الدعوة إلى الله هي مهمة الرسل وأتباعهم جميعًا؛ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن النار إلى الجنة، وهي ترتكز على دعائم، وتقوم على أسس لا بد منها، ومتى اختل واحد منها لم تكن دعوة صحيحة.

ومن هذه الدعائم:

١- العلم بما يدعو إليه؛ فالجاهل لا يصلح أن يكون داعية.

٢- العمل بما يدعو إليه حتى يكون قدوة حسنة.

٣- الإخلاص بأن تكون الدعوة لوجه الله لا رياء ولا سمعة.

٤- البداءة بالأهم فالأهم؛ كالعقيدة وفعل الواجبات وترك المحرمات.

٥- الصبر على ما يلاقى من سبيل الدعوة إلى الله.

٦- الأخلاق الكريمة؛ بأن يكون متحليًا بالخلق الحسن مستعملاً الحكمة في دعوته.

٧- عدم قنوط الناس من نصر الله وإن تأخر.

٨- الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

٩- التيسير لا التعسير، والتبشير دون التنفير [٢].

(٢) دعوة الرسل دعوة علم وبصيرة، وكذلك دعوة أتباعه.

قال ابن عاشور:

«وفي الآية دلالة على أن أصحاب النبي ﷺ والمؤمنين الذين آمنوا به

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/٥٠٣).

(٢) وانظر «من معالم المنهج النبوي في الدعوة إلى الله» لمحمد بن موسى نصر.

مأمورون بأن يدعوا إلى الإيمان بما يستطيعون. وقد قاموا بذلك بوسائل بث القرآن وأركان الإسلام والجهاد فى سبيل الله. وقد كانت الدعوة إلى الإسلام فى صدر زمان البعثة المحمدية واجبًا على الأعيان لقول النبى ﷺ: «بلّغوا عنّى ولو آية»(١) أى: بقدر الاستطاعة. ثم لما ظهر الإسلام وبلغت دعوته الأسماع صارت الدعوة إليه واجبًا على الكفاية كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢)(٣).

لم يبعث الله نبيًا من البادية ولا من النساء ولا من الجن

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾(٤).

يخبر تعالى أنه إنما أرسلَ رسُلَه من الرجال لا من النساء. وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة: أن الله تعالى لم يُوحِ إلى امرأة من بنات بنى آدم وَحى تشريع.

وزعم بعضهم: أن سارة امرأة الخليل، وأم موسى، ومريم أم عيسى نبيات، وكل ما جاء فى القرآن من الإيحاء إليهن، أو تكليم الملائكة لهن، لا يلزم منه أن يكنّ نبيات بذلك، فإن أرادوا بالنبوة هذا القدر من التشريف، فلا شك أنه تشريف لهن ولكن لا يكفى هذا للانتظام فى سلك النبوة بمجرده، والذى عليه أهل السنة والجماعة، أنه ليس فى النساء نبية، وإنما فيهن صديقات، كما قال تعالى مخبرًا عن أشرفهن مريمَ بنت عمران حيث

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٤٦١) كتاب أحاديث الأنبياء.
(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٠٤).
(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ٦٥-٦٦).
(٤) سورة يوسف: الآية: (١٠٩).

قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾[١] فوصفها فى أشرف مقاماتها بالصدّيقية، فلو كانت نبيّة لذكر ذلك فى مقام التشريف والإعظام، فهى صدِّيقة بنص القرآن.

وقال الضحاك، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً﴾ أى: ليسوا من أهل السماء كما قلتم. ويعضد هذا القول قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ المراد بالقرى: المدن، لا أنهم من أهل البوادى، الذين هم من أجفى الناس طباعًا وأخلاقًا. وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرقّ طباعًا، والطف من أهل بواديهم[٣].

* فالشاهد أن الرسالة من خصوصيات الرجال وليس فى النساء نبوة.

قال القرطبى: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ هذا رد على القائلين: ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾[٤] أى: أرسلنا رجالاً ليس فيهم امرأة ولا جنى ولا ملك ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ يريد المدائن ولم يبعث الله نبيًّا من أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو؛ ولأن أصل الأمصار أعقل وأحلم وأفضل وأعلم.

قال الحسن: لم يبعث الله نبيًّا من أهل البادية قط ولا من النساء ولا من الجن.

وقال قتادة: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أى: من أهل الأمصار لأنهم أعلم وأحلم.

وقال العلماء: من شرط الرسول أن يكون رجلاً آدميًّا مدنيًّا وإنما قالوا آدميًّا تحرزًا من قوله: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾[٥]، والله أعلم[٦].

---

(١) سورة المائدة: الآية: (٧٥).

(٢) سورة الفرقان: الآية: (٢٠).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٠٣، ٥٠٤).

(٤) سورة الأنعام: الآية: (٨).

(٥) سورة الجن: الآية: (٦).

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٧٤).

• **الدروس المستفادة من هذه الآية:**

(١) فيها رد على اليهود والنصارى وشرذمة قليلة من فرق المسلمين الذين يزعمون: أنه قد تكون المرأة نبية.

قال العلمي: «الرد على من يزعم أنه قد تكون المرأة نبية؛ كما هو مذهب اليهود والنصارى، وشرذمة قليلة من فرق المسلمين[١]».

(٢) اتخاذ البادية سكنًا مكروه إلا في الفتن؛ حين يفر المرء بدينه خشية أن يقع فيها.

قال ابن عطية:

«والتبدي مكروه إلا في الفتن، وحين يفر المرء بالدين؛ كقوله - عليه السلام -: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنمًا»[٢] الحديث، وفي ذلك أذن رسول الله ﷺ لسلمة بن الأكوع[٣]»[٤].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٥].

* قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله -:

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: هؤلاء المكذبين لك يا محمد ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/١٣٧٨).
(٢) صحيح: رواه البخاري (١٩) كتاب الإيمان.
(٣) صحيح: رواه البخاري (٧٠٨٧) كتاب الفتن.
(٤) «المحرر الوجيز» (٣/٢٨٦).
(٥) سورة يوسف: الآية: (١٠٩).

للرسل، كيف دمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها، فإذا استمع هؤلاء خبر أولئك، رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أى: وكما أنجينا المؤمنين فى الدنيا، كذلك كتبنا لهم النجاة فى الدار الآخرة أيضًا، وهى خير لهم من الدنيا بكثير، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[1] [2].

• **الدروس المستفادة من هذه الآية:**

(١) وجوب الاتعاظ والاستفادة من مصارع الأمم الماضية للتذكر والاعتبار.

قال القرطبى: «قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ إلى مصارع الأمم المكذبة لأنبيائهم؛ فيعتبروا»[3].

(٢) ترغيب وحض على العمل للدار الآخرة والاستعداد لها؛ ليظفر بها ويتقى المهلكات.

قال أبو حيان:

«﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ وهذا حض على العمل للدار الآخرة والاستعداد لها، واتقاء المهلكات»[4].

ألا إن نصر الله قريب

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾[5].

يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم

---

(١) سورة غافر: الآية: (٥١، ٥٢).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٠٤).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٧٥).

(٤) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٥٤).

(٥) سورة يوسف: الآية: (١١٠).

أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله فى أحوج الأوقات كقوله تعالى: ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ (١).

* ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ أى: يئس الرسل من إيمان قومهم ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ أى: أيقن الرسل أن قومهم كذبوهم ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ أى: أتاهم النصر عند اشتداد الكرب، ففى اللحظة التى تستحكم فيها الشدة، ويأخذ فيها الكرب بالمخانق، ولا يبقى أمل فى غير الله، فى هذه اللحظة يجىء النصر كاملاً حاسمًا فاصلاً ﴿ فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ﴾ أى: فنجينا الرسل والمؤمنين بهم دون الكافرين ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى: ولا يُردُّ عذابنا وبطشنا عن المجرمين إذا نزل بهم (٢).

• الدروس المستفادة من الآية:

(١) ورثة الأنبياء لا يتسرب اليأس إلى قلوبهم أبدًا.

ينبغى للداعية أن لا يسمح لليأس بأن يتسرب إلى نفسه إذا واجهه الناس بالإعراض عن دعوته أو بمقاومته أو بالسخرية منه أو بالتقول عليه؛ لو طال الزمن على ذلك؛ فإن نصر الله لآتٍ لا محالة، ولكنه موقوت بلحظة شعور الداعى باستحالة إيمان من لم يؤمن.

(٢) بيان سنة الله فى النصر على رسله وعباده المؤمنين زيادة من الإعداد والتمحيص، ثم يأتى نصر الله؛ فيعز أولياءه، ويذل أعداءه(٣).

(٣) النصر يتنزل حين يبذل الدعاة كل جهدهم ويستنزفون كل طاقاتهم، ثم يبلغون من قومهم مبلغًا من اليأس لا مزيد عليه:

قال أحمد نوفل:

هذه السنة تشير إلى نهاية هذه المواجهات بين الأنبياء وأقوامهم، وأن

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٢١٤).

(٢) «صفوة التفاسير» (٢/ ٧٠).

(٣) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٥٦).

النصر يتنزل حين يبذل الدعاة من الرسل كل جهدهم، ويستنزفون كل طاقاتهم، ثم يبلغون من قومهم مبلغًا من اليأس لا مزيد عليه، ويتيقنون أنهم مكذبون من هؤلاء الأقوام ولا أمل في الاستمرار وإطالة الزمن، عند ذاك يتنزل النصر؛ فننجي بهذا النصر من نشاء، أما القوم المجرمون؛ فلا يُرد بأسنا عنهم.

ولقد أكد هذه السنة آيات أخرى وقصص الكتاب العزيز، وهذا شاهد من قصة نوح: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ⦗١٠⦘ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ⦗١١⦘ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ⦗١٢⦘ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ⦗١٣⦘ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾[1].

ولا يخطرن ببالك أن استيآس الرسل كان من وعد الله، أو أن ظنهم التكذيب إن وعد الله مخلف، . . . معاذ الله؛ فهذا كفر مخلد في النار، ومعاذ الله أن يقع فيه عامة المؤمنين؛ فكيف بالأنبياء المرسلين؟!»[2].

(٤) عندما ينزل عذاب الله الموعود؛ فلا مرد له، وينجي الله من عذابه من يشاء؛ فالعاقل يسارع إلى الإيمان؛ لينجو من عذاب الله المحتوم قبل فوات الأوان[3].

(٥) يصح تسمية المشرك بالمجرم؛ لأن الشرك جريمة لا تُغتفر إلا من تاب منها قبل الموت.

* * *

(١) سورة القمر: الآيات: (١٠-١٤).

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص ٥٧٩، ٥٨٠).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٨٢).

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أصحاب العقول، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي: ما كان لهذا القرآن أن يُكذب ويُختلق، ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: يصدق ما صح من الكتب السماوية وينفي ما حُرّف وغُيِّر، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أوامر ونواهٍ في العقائد والعبادات والمعاملات وأنباء الأمم الغابرة والاعتبار بما كان منها من تأييد للرسل أو معادات لهم، وما كان من نتائج ذلك، فلهذا كان: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد. فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالربح المُبْيَضَّة وجوههم الناضرة، ويرجع المسودَّة وجوهُهم بالصفقة الخاسرة (٢).

● **الدروس المستفادة من الآية (٣):**

(١) العبرة في القصص القرآني لا يدركها إلا أولو الألباب أصحاب العقول الراشدون، فعلى كل لبيب أن يعقل القرآن، ويأخذ العبرة مما جاء في قصصه، ولا يكون من الذين عطّلوا عقولهم، ومرّوا بالعبر الماثلة في القصص القرآني مرور الغافلين (٤).

---

(١) سورة يوسف: الآية: (١١١).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٠٥، ٥٠٦).

(٣) بتصرف من «إتحاف الإلف».

(٤) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٨٢، ٨٣).

(٢) قصة يوسف هى القصة الوحيدة التى جاءت بكل أطرافها فى سورة واحدة أُطلق عليها اسم صاحب القصة، وتسلسلت أحداث القصة فى نسق رائع، وأسلوب ممتع، تنتقل بالقارئ من حدث إلى حدث فى عذوبة تشد القلوب؛ فلا تمل، وتشويق يجذب النفوس؛ فلا تسأم.

* قال محمد السيد الوكيل:

«وقصة يوسف - عليه السلام - فى القرآن الكريم هى القصة الوحيدة التى جاءت بكل أطرافها فى سورة واحدة، أطلق عليها اسم صاحب القصة، وقد بدأت هذه القصة برؤيا، وظلت أحداثها تترى متوالية متتابعة حتى انتهت بتفسير الرؤيا التى بدئت بها، وتسلسلت أحداث القصة فى نسق رائع، وأسلوب ممتع، تنتقل بالقارئ من حدث إلى حدث، فى عذوبة تشد القلوب؛ فلا تمل، وتشويق يجذب النفوس؛ فلا تسأم»[1].

(٣) قصة يوسف تتضمن فنونًا شتى من أساليب التربية والسلوكيات، وتهدف بوضوح إلى إبراز الخصائص النفسية للصفوة المختارة من الناس، وتشرح لنا فى أسلوب سهل أخَّاذ ثمرة اللجوء إلى الله - عز وجل - فى الضيق والمحن، وكيف لا يتخلى الله عمن يلتجأ إليه؛ فيصرف عنه السوء وينقذه مما يتورط فيه، ويضىء له الطريق مع شدة الظلام من حوله، ويمكِّن له فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء[2].

(٤) تسلية النبى ﷺ بما لقيه يعقوب ويوسف - عليهما الصلاة والسلام - من الهم ومن الأذى، وقد لقى النبى ﷺ من آله أشد ما لقيه من عداء كفار قومه؛ مثل عمه أبى لهب، والنضر بن الحارث وغيرهم، وإن وقع أذى الأقارب فى النفوس أشد من وقع أذى البُعداء.

---

(١) «نظرات فى أحسن القصص» (ص ٣٠٤).

(٢) «نظرات فى أحسن القصص» (ص ٣٠١،٣٠٢).

كما قال طرفة:

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة

على المرء من وقع الحسام المهند

(٥) بيان أن القرآن مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل، وكون أن محمدًا ﷺ أميًّا؛ فاستدل بذلك على صحة نبوته[١].

* قال البغوي:

«﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي﴾ ؛ أي: ولكن كان تصديق الذي ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة والإنجيل»[٢].

* قال ابن الجوزي:

«إن من تفكر: علم أن محمدًا ﷺ مع كونه أميًّا لم يأت بهذه القصة على موافقة ما في التوراة من قبل نفسه؛ فاستدل بذلك على صحة نبوته»[٣].

* قال ابن كثير:

﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: من الكتب المنزلة من السماء هو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير»[٤].

* قال الشوكاني:

«﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: ما قبله من الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور»[٥].

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٨٢).

(٢) «مختصر تفسير البغوي» (١/٤٥٦).

(٣) «زاد المسير» (٤/٢٩٧).

(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٢/٢٦٧).

(٥) «فتح القدير» (٣/٦١).

(٦) أن القرآن مفصل لكل شيء: من التحليل والتحريم، والأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهى عن المحرمات والمكروهات، والإخبار عن الرب - تبارك وتعالى - بالأسماء والصفات، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات؛ فتهدى به قلوبهم من الغى إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد.

(٧) الحاجة إلى تدبر معانى القرآن.

على المسلمين أن يكثروا من قراءة قصص القرآن، وأن يتدبروها؛ ليأخذوا منها العبر؛ فإن الله لم يقصها عبثًا، وإنما قصها للذكرى والأسوة والاعتبار.

(٨) القرآن هدى ورحمة وفيه تفصيل كل شيء.

قال السعدى: «لما قص الله تعالى علينا هذه القصة العجيبة بتفاصيلها قال فى آخرها: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

فنفى عن هذا القرآن الكذب والخطأ من جميع الوجوه، ووصفه بثلاث صفات، كل واحدة منها فيها أكبر برهان على أنه من عند الله، وأنه الحق الذى لا ريب فيه.

الصفة الأولى: أنه تصديق الذى بين يديه؛ أى: من الكتب المنزلة من السماء ومن كل الرسل المعصومين الذى أوحى الله إليهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾(١).

فهذا القرآن الذى جاء به محمد ﷺ جاء بالحق، وهو الصدق فى إخباره عن الله، وعن ملائكته، وعن اليوم الآخر، وعن جميع الغيوب السابقة واللاحقة، العدل فى أحكامه؛ فلا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن الشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾(٢).

---

(١) سورة الصافات: الآية: (٣٧).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (١١٥).

وأيضًا؛ فإن هذا القرآن صدق جميع ما جاءت به الرسل وهيمن عليها، واتفق منها على الأصول العظيمة، والشرائع الكبار العامة الشاملة.

وأيضًا؛ فإن الرسل أخبروا وبشروا بمحمد ﷺ، وبما جاء به محمد ﷺ، فصدق مخبرها وحقت بشارتها.

الصفة الثانية: أنه تفصيل لكل شيء، وهذا شامل لجميع ما يحتاجه الخلق فى عقائدهم، وأخلاقهم، وأعمالهم الظاهرة والباطنة، وفى دينهم ودنياهم:

فقد شرح الله به وفصَّل التوحيد، والرسالة والجزاء، وجميع العقائد الصادقة الصحيحة شرحًا وتفصيلاً لا يساويه فى ذلك أى كتاب كان.

وفصل فيه الحث على حقائق الإيمان، وعلى التخلق بالأخلاق الجميلة، والتنزه من الأخلاق الرذيلة، وبيَّن الطريق والأسباب التى يحصل بها حسنها والتى يدفع به سيئها.

كما فصل الشرائع الظاهرة، والأعمال الصالحة، والحلال والحرام، والخير والشر.

وفصل فيه جميع المقاصد والغايات النافعة، الدينية والدنيوية.

وفصل ما يتوصل به إليها؛ ... فصَّل فيه البراهين العقلية، كما فصل فيه البراهين السمعية.

الصفة الثالثة: أنه هدى ورحمة لقوم يؤمنون؛ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[1] ؛ أى: لكل حالة قويمة وطريقة مستقيمة؛ يهدى لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدى لمصالح الدين كلها، ومنافع الدنيا التى بها يقوم الدين، وتتم السعادة.

والفرق بين الهدى والرحمة: أن الهدى هو الوسائل، والطرق الموصلة

---

(١) سورة الإسراء: الآية: (٩).

إلى خيرات الدنيا والآخرة، والرحمة هى نفس الخيرات والثواب العاجل والآجل.

فسعادة الدنيا والآخرة متوقفة على اتباع هذا القرآن علمًا وعملاً.

وخص الله المؤمنين بالهدى والرحمة؛ لأنهم هم المنتفعون على الحقيقة، وبإيمانهم اهتدوا وزادهم الله هدى ورحمة؛ فهذا القرآن بصائر للناس كلهم، بصَّرهم بجميع ما يحتاجون إليه، فلم يبق خير إلا دلهم عليه، ولا شر إلا حذرهم منه، فقامت به الحجة على كل أحد، ولكنه هدى ورحمة لقوم يؤمنون»[1].

* * *

(١) «فوائد مستنبطة من قصة يوسف - عليه السلام -» (ص ٩٢-٩٤).

دعوة مستجابة

أخى الحبيب.... أختى الفاضلة:

أضع بين أيديكم هذا الكتيب المتواضع سائلاً ربى - عز وجل - أن ينفع به المسلمين فى كل زمان ومكان، وأن يجعله فى ميزان حسنات أبى وأمى.

فما كان فى هذا الكتيب من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من سهو أو خطإ أو نسيان فمنى ومن الشيطان.. والله ورسوله ﷺ منه براء وأعوذ بالله أن أذكركم به وأنساه.

فمن استفاد فائدة من هذا الكتيب فلا يبخل علىَّ بدعوة لعل الله أن يتجاوز عنى وعنكم، وأن يجمعنا جميعًا فى جنته إخوانًا على سُرر متقابلين.

* روى مسلم أن النبى ﷺ قال: «من دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثله»[1].

* جزى الله خيرًا كل من قرأ هذا الكتاب وتعلم منه شيئًا وعلَّمه لمن حوله.

* كما أنصح إخوانى وأخواتى بقراءة هذا الكتاب على المسلمين فى المساجد والبيوت ومجالس العلم لتعم الفائدة وتموت البدع وتحيا السنن وتعود الأمة مرة أخرى خير أمة أُخرجت للناس.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إلهٰ إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.... وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

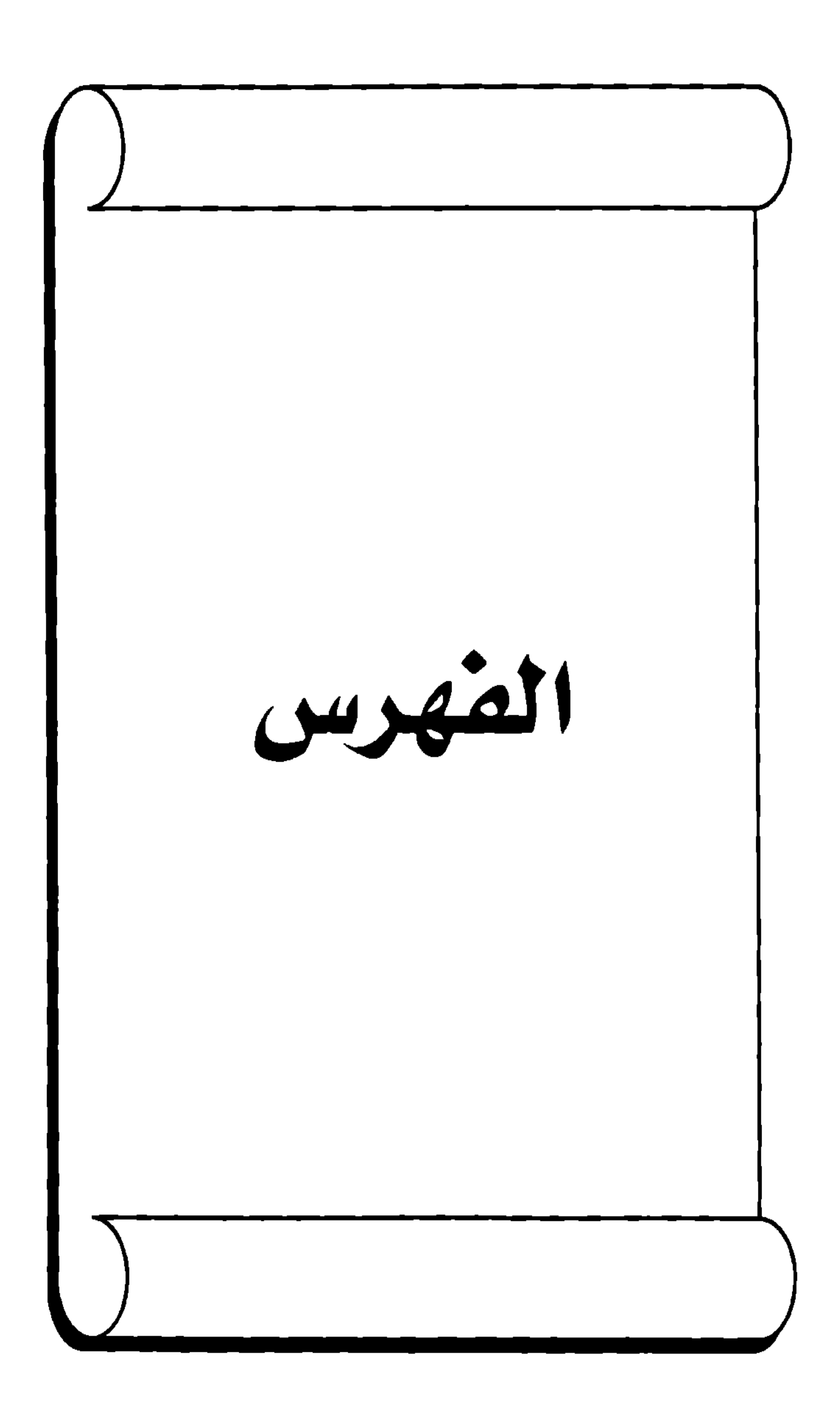
وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصرى

(أبو عمار)

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.


الفهرس

الفهرس

من إصداراتنا
الشيخ محمود المصري أبو عمار

فقه المسلم
كتاب الطهارة
كتاب الصلاة

فقه المسلم
أحكام الصلاة، كتاب الجنائز

فقه المسلم
فتاوى الصيام وفتاوى معاصرة

فتاوى الحج والعمرة
شرح كامل لمناسك الحج والعمرة

موسوعة الحقوق الإسلامية

يوم في الجنة

لا تحزن وابتسم للحياة

ساعة وساعة
نوادر وعجائب

ليلة في بيت النبي ﷺ

موسوعة كاملة عن عالم الجن والشياطين

تحذير الساجد من أخطاء العبادات والعقائد

أصحاب الرسول

صحابيات حول الرسول

السحر الحلال
كيف تكسب قلوب الناس

رفقاً بالمخطئين
كيف نتعامل مع أخطاء الناس

موسوعة الزواج الإسلامي السعيد

مسك الختام
روائع القصص في حسن الخاتمة

سيرة الرسول

رحلة إلى الدار الآخرة

أذكار الطفل المسلم

منهاج الطفل المسلم
شرح أكثر من ١٠٠ حديث من أحاديث النبي ﷺ

عقيدة الطفل المسلم

الفقه الميسر للطفل المسلم









www.ibtesama.com